كلمة

اليأس المكابر
و الهاوية الذهبية

(هذا العنوان يعني أناس يطمئنون
أنفسهم بأنه لا يعنيهم إطلاقاً)
جورج حنين

[نرى الى الظلام العربي الذي يتخبط في واقعه ضرباً من اختبار طاقة الأمة على مجابهة قدرها . و لأن أمة عربية مثلنا لم تزل تتجرع الدروس دون أن تستعد لادراك ما يحدث و استيعابه ، و التحاور مع عناصر الحياة فيه ، فاننا لا نخضع لكل ما ينهار فينا . قلنا مرة في " كلمات " ، لسنا في كل ما ينهار ، لأننا لم نسهم فيه، أو بالأصح لم يتح لنا مجال الاسهام فيه. هو واقع ينهار لأنه أسس وتأسس لذلك مبكراً ، ما دام يمعن في تكريس المصادرات و تبرير هندسة الغابة . و عندما نتأمل ما يحدث في ظلامنا العربي تجاه ما يتخلع ويتغير في العالم ، نشعر بثقةٍ غامضةٍ في يأسٍ كنا نتطلع اليه ، يأس فاتك لم ينقذنا منه سوى التشبث بالذات لئلا تصدق ما يقال ، حيث ما يقال شيئ غير الذي يحدث. (..) و ها نحن نجد أنفسنا في لحظة تراجيدية / ساخرة ، تتطلب تأمل الأوراق المخلوطة ، لكي نعرف حقاً أي حصان و أية عربة يزعم الزاعمون أنها تقود الركب العربي الى الهاوية الذهبية .]

- ا -

كان ذلك كلامنا في مقدمة العدد الماضي من " كلمات " الذي صدر قبل الاحتلا ل العراقي للكويت بأقل من شهر. لا نزعم نبوءةً ما، و لانتوشح بالميثولوجيا .لكننا لم نكن نتكلم عن كوكب بعيد ، كنا نقول عن كوكبنا العربي ، عن عذابنا فيه و ذعرنا الكامن المكبوت الذي يسوّر رؤانا جميعا من الماء الى الماء . و لم يكن ذلك هجساً ، بالمعنى المجازي ، لكنه انديـاح الجمرة في الأحشاء ، حيث (لكي يقول المرء كلمته الوحيدة الواحدة المتوحدة) ينبغي أن يجتاز مفازات المحاذير و القيود التي لا تحصى ، لئلا يخدش مرآة المشهد الساكنة ، لئلا يعكر صفو يقين البهائم أويوقظ القطيع من غفلته .

كنا نقول عن المشهد العربي المسكوت عن كوامنه ، فنحن بشرٌ نزدرد الخوازيق بصمت ، و لم يكن لنا حتى أن نختار أكثر الخوازيق رأفة و حناناً . و رغم ذلك لم نتخلَ عن موهبة اختيار خبيئة المشهد ، فحتى البهائم يمكنها أن تستشعر الزلازل ، أما نحن فلم تكن الكلمة تقوى على احتمال عبء أرواحنا . كلما حاولنا الايضاح ازددنا غموضاً .. ليس لأن القول لا يُفهم ، و إنما لأن القارئ (أكثر من الكاتب) مرصود لمصادرة حرية السبر و الحوار و التأمل .لذلك سيظل قولنا يبدو غريباً وغامضاً ، و مجللاً بحزن عميق ، ويائسا أيضا ، حتى اذا ما داهمتنا الحقيقة تكشّفت فضيحة الواقع، لتمنح غموضنا سطوعاً لا يضاهيه سوى الدم .

ألسنا على الشفير نفسه الذي يصقله لنا مهندسو كوارث من كل جنسيات الأرض ، و في مقدمتهم عربنا الأشقاء . عربٌ يرفعون شعار الحكمة ، فيما تغرّر بهم شعائر الحكم . و تضطرب بوصلاتهم

فيرون في الماضي مستقبلاً .

- ٣ -

هكذا ، بغتة ، تسقط جميع المبادئ و القيم في سلة الطاغية لتصير بعضاً من أسلابه و ذخيرته في آن . ويسقط - في ذلك -تاريخ كامل من العمل والتضحيات، ليتعلق الأمل (اليائس) بجزمة جندي يبشرنا بفاشية قادرة على التناسخ بحرية .

هكذا ، بغتة ، تبدو الدروس - التي تتهيأ الأمة لمراجعتها وتأمّل جوهرها - كما لو كانت خطأ شاملاً يتوجب مسحه من برنامج حياتنا .

هكذا ، بغتة ، تجد نفسك أمام جوقة من السماسرة تزايد على كل شيئ ، و تعبأ بكل شيئ .. إلا بالانسان . جوقة تتجرد من الحس الانساني لتلبس غريزة الوحش، و هذا ما يمنح المشهد العربي الراهن خاصية كابوسية وحشية لا تليق بالشعارات البراقة التي ظل الجميع يتبادلها طوال الليل العربي المعاصر .

هكذا ، بغتة ، تزهو الايديولوجيات بالكفن الأخير ، و الأتباع يرفعون التعاليم ليفتحوا بها بوابة التغيير ، و لا يدرون أن الهواء الأسود سيكون أول الوافدين ، وأن غبار الضحايا سوف يملأ فم الحرية .

هكذا ، بغتة ، تقدر الفضيحة على دفعنا الى مجابهة الواقع بعناصرنا الجوهرية المجردة ، الحس الانساني العميق الذي يرى الى الدم ساطعاً أكثر من النصل ، حيث تصبح النظريات رمادية ...

و رماداً أيضاً ، قياساً الى خضرة القلب .

- ٣ -

هكذا ، بغتة ، لم يعد الصمت ممكناً

- ٤ -

لذلك ،
لذلك كله ، عندما نسلّط ضوءاً صغيراً على مشهد الدم هذا ، إنما نمارس قدرتنا على إطلاق صرخة القلب (الذي يقال أنها أضعف الإيمان) . فالقلب لا يتسع لجرحٍ إضافيٍ .. هو الصمت ، إذ أن الصمت - حين يكون الكلام مُمكناً - ضربٌ من القبول ، وفي مواجهة الفاشية الرابضة أمامنا و حولنا ، ليس لنا أن نمنح المشهد تزكيةً يستجديها ، خاصة ونحن نرى الى منظومات فكرية وسياسية تعضّد هذه الفاشية بقدرٍ كبيرٍ من الفذلكات القلقة .
لم يباغتنا النظام العربي بانهياراته ، و من ثم بفشله في مواجهة الغزو و الاحتلال و الحرب ، إن السقوط الذي تتباهى به المنظومات الفكرية والسياسية ، و هي ترى في الغزو و الاحتلال والحرب إنقاذاً لها من اليأس و العجز و الاحباط ، لهو دلالة كافية على أن يأسنا المختلف ، يأسنا الخلاق ، كان طوال الوقت حصانةً لمنظوراتنا و رؤآنا لحركة الجوهر .
و ها هي الفضيحة تضعنا في مواجهة التاريخ ..

تاريخنا كله .

لذلك ،

لذلك كله ، رأينا في " كلمات " ، أن نتيح لضوئنا الصغيربأن يسعفنا لقراءة التاريخ .. ماضيه وحاضره .
و ما أن نعيد هذه القراءة حتى ينتابنا شعور فاجع بأن جميع مزاعم وعينا بحركة التاريخ ، ليست سوى وهم كامل ، و يتأكد لنا بأن ما حدث سابقاً - في شتى المراحل - لم يعد يشكل إضافة نوعية لخبرتنا ، و لا يساهم في توسيع أفق الادراك و المعرفة . و الأكثر إرعاباً هو شعورنا بأن الغالبية منا مؤهلة ، أكثر من غيرها ، لتمجيد الطغاة والتهليل لهم .ليس هذا فحسب، بل أنها مرشحة لأن تكون فاشية ما أن يتهيأ لها المناخ الملائم . إذ يكفي أن تكشط الجلد قليلاً ليطلع لك فاشي كامن لا تتوقعه . ونحن عندما نولي عناية خاصة برفض الفاشية ، فانما نريد أن نخشى على مستقبل كامل مهدد بعسف كبير ، لا يقل عسفاً عن الماضي الذي نستحضر بعض تجاربه في هذا العدد .

و لعل المشكل المضاعف مع الفاشية هو أنها تستدرج خصومها أيضا ، ليجدوا أنفسهم يمارسون السلوك ذاته ، و بالأدوات ذاتها . وبالقاء نظرة متأنية على مايحدث ، نرى الضحايا (و الضحايا المرشحة) تتوسل نفس اللغة الدموية ، و تستحث آلة الحرب لكي تعلن عن نفسها سريعاً ، كما لو أن العدو هو القدوة ، في حين ينبغي أن نذهب الى رفض كل ذلك :

الغزو و الاحتلال و الحرب .

- ٥ -

لكن ..
شعورٌ يخالجنا ، بأنه مهما كان الشكل الذي سنخرج به من هذه " الهاوية الذهبية " ، و مهما كانت الطريقة التي سيبتكرها لنا مهندسو الكوارث ، لكي ننجو من الموت (أومن الحياة) ، فإن ثمة عسف كثير ينتظرنا ، مالم يُحرم الطاغية من وشاح البطولة ، ومالم يتم الخلاص من سيادة الرأي الواحد و الطريق الواحد والنظر الواحد ، فلقد عشنا طوال ليلنا العربي المعاصر ضحية ذلك ، وها نحن ، عندما استيقظنا في هذه الفضيحة ..
انظروا كم رأيٍ نحن و كم نظريةٍ و كم طريق .

و ليس هذا من تنوع الحياة ،
و لكنها لعنة الشتات .

لقد كان الامتحان صعباً ، و فاضحاً للجميع ..
للجميع .

كلمات

الدم الفاضح

أمين صالح - قاسم حداد

الانسان ، ذلك الكائن المغسول
بالرعب ، من كهوفه الشاحبة ، يطل
على هذيان الانشقاقات القادمة ثم يرفع
رأسه صارخا .

- ١ -

هل شعبٌ آخر منذور للجهات ؟
هل شعبٌ آخر موعود بالشتات ، و اقتصاء آثار خرائط مراوغة ؟
هل ينبغي للأمة أن تشهد اقتلاعاً آخر
نفياً آخر
لجوءاً آخر ؟

كم دم تحتاج هذه الأمة لكي تبشر بخاتمة الانهيار و فاتحة الصحوة العظيمة و الانتفاضة الجليلة ؟

هذا الدم النبيل نعرفه . له لغة واحدة ، رائحة واحدة ، هوية واحدة .. لكنه يحمل شتى الأسماء :

فلسطيني
لبناني
كويتي

دمٌ عربي ، به يغسل الحاكم عرشه كل صباح ، و به يعلن جهراً إرهاب الدولة

و لا أحد بريئ من هذا الدم .
ليس ماء ، ليس رملاً . دمٌ فاضحٌ يجرد الخيانات من أسمالها ، و يهتك ليل التواطؤات والمؤامرات . دمٌ يشهر الفضيحة . مَن يقدر أن يفقأ عينيه كي لا يرى ؟
ها نراه – هذا الدم – يسري من البؤبؤ الى البؤبؤ ، يصل العار بالعار ، يجهر بأن جريمة أخرى ارتكبت .

ها نراه – هذا الدم – يرافق شعباً شرده الفتك ، خائضاً حمم الجحيم نحو كابوس طويل يزدهر فيه الرعب و الأنين . و الأرض خجلى ، تغض خجلى ، لأن لا ماء و لا عشب في هذا الامتداد الفسيح من المأساة . مفاوز تتلظى و يزداد سعيرها كلما خرّ جسد متعب و يائس .
و اري – أيتها الأرض المتجهمة – عارَك و عارَ الأمم ، و امنحينا موتاً مجيداً ، اذا كان لابد أن نموت ... هنا أو هناك .
و أنت ، أيها الدم الدليل ، يا من نازل البطش بلا كراهية و انسفك غدراً ، مَن يدلّك الى جذرك الأول ؟ من يرافقك الى مأواك و يسدل عليك الأمان و الطمأنينة ؟ غير أنك، يقيناً، تعلم أن لا نجاة لك ، و لا أمان لك ، في مسارب خائنة و غادرة ، ما لم تتدرع بالعنف وتجابه الضغينة بالضغينة .

– ٢ –

هناك .. هناك اخضرار المذبحة
و هنا إثم و فزاعات تنتحر .

شرّعت يوماً أنحاءها و ينابيعها و خواتمها باطمئنان و راحت تسرح في راحة السهل لاهيةً ، عاريةً ، غير محصّنة . كيف يمكن لهذه المتدثرة بالأمان و الشفاعة أن ترتاب وتستنطق المكامن كل يوم لتعرف بما يدبّرلها سراً من مكائد ؟ (لكن البراءة تقتل) فالأفعى شحذت أنيابها و انسلت عبر سلالم القرى ، و النصال الشرهة انتصبت حول المدائن : وحدها البوابات الرهيفة اختلجت أهدابها ، لكن لم ينتبه لها أحد .

جاء الاجتياح العراقي لبلد آمنٍ و مسالم ، مجرجراً وراءه لغة مضللة و سلسلة من الذرائع المخادعة :
سمى الغزو ثورة ، و الاحتلال خلاصاً ، و النهب توزيعاً عادلاً للثروة ، و الاغتصاب حماية ، و القتل جهاداً ، و التشريد تطهيراً ، و الاقتلاع وحدة .
و هل يضير الشاة لغو الجزار في ابتكار لغة للذبح .

كما لو أن لغة اللغو سوف تجمّل شكل الجثة . هكذا ، بوسعهم أن يسموا القصف وردة ، والقتل نزهة ، و الرصاصة برتقالة . و بوسعهم أن يصفوا الجريمة بالبهاء و الفخامة .

لغة فارغة لا تصرح ، و انما تعتقل العقل و تشلّه .

لغة كاذبة ، مضللة ، تحرّف الوعي و تخرّب المعرفة و تشوّه الادراك

دعارة لفظية تقحمنا في التشوش و اللامعنى .

لا . لم يكن النظام العراقي بحاجة الى غلالة تستر وجهه الدكتاتوري الفاشي . كان صريحاً في اعلان ذلك ، و لم يلجأ الى المراوغة و التمويه . كان الجميع يعرف ، لكن يتظاهر بالبراءة و يلتزم الصمت .. خوفاً أو تحالفاً أو تواطؤاً .

حتى الوحوش تبدأ صغيرة . تتغذى عن طريق الابتزاز مرة و الاستجداء مرة . لم يمانع أحد . " اتركوه حارساً جسوراً للبوابة الشرقية " ، قالوا و اطمأنوا ، و لم تكن هناك بوابة شرقية و انما شبّه لهم . و الوحوش تكبر حتماً ، و تحتاج الى المزيد لتشبع وتروي شهوة الاستبداد . و لأنها بلا عاطفة انسانية ، و تتصف بالخيانة و الغدر ، فكان من المتوقع أن يأخذوا تهديداته بجدية ، لكنهم لم يفعلوا الا بعد أن غرز أنيابه في اللحم الشقيق .

أسرف هذا النظام في البذخ و الرشوة و الفساد و تعزيز القوة العسكرية (و لم يكن وحده) . لم يوجه يوماً طاقاته و قدراته و موارده في تحقيق العدل و الرفاهية لشعبه ، و تطبيق الوحدة ، و تحرير الأراضي المحتلة (و لم يكن شاذاً عن بقية الأنظمة) . انما كشف - منذ البداية - عن طبيعته الفاشية ، و ممارساته القمعية و الارهابية ، وسياساته العدوانية و مغامراته المجنونة . (و لم يكن فريداً من نوعه) .

الآن ، الآن فقط ، أدركوا أن النظام المفخرة صار وحشاً طاغياً يهدد أمن العالم بأسره .

الآن فقط هَبَّ الجميع ليكشف الأسرار التي لم تكن أسراراً .

لم يكن خداعاً ، كان صمتاً فاتكاً .

و الدويّ الذي هزّ أركان العواصم الهشّة ، فضّ فضاء شيخوختنا المفتونة بالغفوة ، وجرنا الى حلبة تعج بالمحن و فوضى التأويل .

مرحى بالدوّي ، مرحى بالدويّ الذي يضيئنا و يرفع أنقاضنا عالياً .

هناك ، الأرض تذرف المجزرة تلو المجزرة .

و هنا ، مدائن مثقلة بالعار ملطخة بالإثم .

و إذ تحْدق الكارثة بغرف المهرجان ، نلمح وطناً يعدو خائضاً دم الطريق .

- ٣ -

البغال تجر الجثث
على مهل
بينما يتهشم الموت في مرآة النسيان .

ماذا كان يفعل الرجل العنيف ، الموغل في بدائيته ، لو لم تكن هناك ضحية تلهم القسوة و تفتتح المذبحة ؟
لو لم يكن هناك طاغية يتوسد مصالحه و يخطط للمحنة .. أو ربما يرتجل الفتنة ،
ها هم فرسان الغزو ، الأكثر عطشاً و جوعاً ، و الأقل ادراكاً و معرفة ، يرفعون الأرصفة - مثل ملاءة - بحثاً عن طعام . انتهى السطو و ما من تمرة و لا رغيف . صاروا أكثر شراسة من الجحيم ، و أشد ضراوة . لكن أرواحهم مريضة .
دفعهم الزعيم ، المتخم بالأسلاب ، نحو الأفران بلا زاد ولا حماية ، و أمرهم بالسفك قائلا :
" تلك بلاد مباحة "
و أحل لهم القتل . هكذا عاثوا في الأرض ، و ارتكبوا المحرّم ، و خاضوا دماء زكية تنتسب لبشرٍ لم يرتكبوا سوى إثمٍ واحد : أنهم ضحايا .
الضحية تغوي جلادها . نعرف ذلك . انها ترشوه - بالبراءة و الجمال و الخوف - لكي يقتلها . و الجلاد الذي لا يفهم تلك الصفات النبيلة (لأنه لا يمتلكها) يجد فيها تهديداً خطيراً لكينونته و وجوده و للتعاليم التي تغذى بها .. طوعاً أو قسراً . لذا يبادر فوراً الى ابادتها . انه يحطم المرآة - التي تمتلك قدرة فائقة على الاغواء - لكي لا تفتنه وتسحره ، فيكتشف آنذاك كم هو بشع و همجي ، و انه محض طلقة ملتهبة .. مليئة بالعنف و الحقد دونما سبب .

لكي تستعمر الوعي ، إقمعه ...

يقف الجندي الصغير ، صاغراً ، أمام سيده الطاغية الذي يغسل له دماغه مثل مربية نشطة تتقن عملها جيداً . بعد ذلك يطحن ضميره بحذائه الحديدي ، و يدنس مشاعره

بطقوس العنف و الاذلال ، و يدمّر أية بذرة للمعرفة في داخله .. انه ينتزع من أعماقه ما هو انساني و يغرس ما هو بهيمي . و عندئذ يطلق السيد مخلوقه - الجندي الصغير - في أرجاء الحلبة المحتدمة ، مجرداً من الوعي و الارادة ، بليد الحس و جامد الشعور ، محض آلة قتل . و كلما أسرف في البطش ، تمجّد خالقه و تماهى .

الجندي الصغير ضحية . و كل ضحية تختار لنفسها ضحية أخرى ، أكثر ضعفاً و خضوعاً ، لتضطهدها و تقمعها .

لكن الجندي الصغير لا يعرف أنه سيموت قبل الأوان .. بلا مجد ، و لا رثاء .

- ٤ -

شبح الحرية

ينبغي أن تملك ضميراً حياً لكي تصرخ احتجاجاً ، و ترفع سبابتك متهماً و مديناً هذا الاحتلال الذي لا اسم آخر له . كل الذرائع و التبريرات تتهاوى أمام دمعة طفل وفجيعة ثكلى و انكسار شيخ . لا ، لسنا في أمان . و ترعبنا أكثر الأصوات التي تصدر هنا وهناك .. بلا عاطفة ، بلا مشاعر ، بلا مبادئ بلا قيم . أصوات معدنية ، تهلل للغزو وترحب بنتائجه وتبارك شعاراته . هل وصل التضليل الى هذا الحد ؟ أم أنها المقايضة ؟ أم أنه الوعي الغائب ؟ أم أنه الوهم ؟ أم أنه اليأس ؟

ثمة يأس ناهش و وهم أعمى : أن الاحتلال يمكن أن يكون بديلاً عن النضال ، و أن اقتلاع شعب و تهجيره سوف يمهد الطريق للثورة الشاملة ، و أن قلب الأنظمة بالقوة العسكرية الخارجية (حتى لو كانت فاشية) هي الوسيلة المثلى لإنجاز الوحدة العظيمة و تحقيق الرخاء و السعادة و الحرية للشعوب .

هاهي المعجزة في متناول اليد !

أي يأس هذا الذي يجعلنا نتوق الى معجزة ٍ ما ، في زمن لا يؤمن بالمعجزات ؟

لم تعد الشعوب موضع ثقة . انها ليست مؤهلة لفعل التغيير. انها كسولة و عاجزة وجبانة . و بالتالي ، فالأجدر بنا أن ننتظر المعجزة ، أن ننشد الخارق ، فهو الملاذ الوحيد الذي سينقذنا من يأسنا المدمر .

و هاهي المعجزة في متناول اليد !

جيوش مسلحة بالحديد الباطش . سلب و سبي . اقتلاع و محو . تجويع و تشريد . قتل ونفي . هتك و اذلال . صلصال للكرامة البشرية . وحل للكبرياء . قفص للحرية .

و يا لها من معجزة !

أيتها النار يا مليكة الوقت

أين أخبئك و الهشيم سيد المكان ؟

تقول الحكمة : أنك لن تكون حراً عندما تصادر ، أو تقبل بمصادرة ، حرية انسان آخر .
و تقول الحكمة أيضا : أنك لن تكون جديراً بالحياة اذا سعيت الى نفي حياة الآخر .
و تقول الحكمة أيضا : أنك لن تكون ديمقراطياً عندما تبجّل دكتاتوراً .
لكن الأصوات المهللة و المرحّبة لا تصغي الى الحكمة . بل أنها تبصق في وجوهنا ، و تهين عقولنا ، و تطعن ضمائرنا ، فيما تزعم أنها تدافع عن أهداف نبيلة .

محتَلٌ من يؤيد احتلالاً .

- ٥ -

حيث تحيط بنا الأحابيل كالأساور

يقيناً ، النظام العراقي ليس هو المؤهل و الجدير بأن يحقق الأهداف الثورية المزعومة . فهذا النظام بمنطلقاته و تركيبته السلطوية القائمة على الحكم الدكتاتوري وعبادة الفرد و السلوك الارهابي الفاشي ، لا يمكن أن يكون ديمقراطياً و لا يمكن أن يكون ثورياً . و الارتهان الى هكذا نظام يعني أن الوهم قد استفحل ، و اليأس قد طغى ، و أن الموقف لا يمكن وصفه إلا بالانتهازية .

القفز الى إدانة الوجود الأمريكي : شكل آخر من التلاعب و الحيل . محاولة مخجلة لتجاهل واقع الغزو ، و إقرار الأمر الواقع ، و اعتبار الحدث مسألة تاريخية لابد من التسليم بها ، ومن ثم تجاوزها ونسيانها كما القضايا و الأحداث التاريخية الأخرى .
الحقيقة لا يمكن طمسها و الالتفاف حولها . انها ساطعة و تعشي البصر . ازاء مثل هذا الغزو و الاحتلال ، كان متوقعاً ، بل و محتوماً ، أن يحدث تدخل أجنبي ، و ذلك لأسباب اقتصادية و سياسية لابد و أن يعلمها الجميع . و التغافل أو استنكار حدوث هذا الأمر يعني أن هناك طرفاً لا يزال يتمتع بالبلاهة أو المراهقة السياسية ، و طرفاً آخر يتواطأ في خبث و يزايد في صفاقة .
و آهٍ من يسار الكلام .

لسنا مع الوجود الأجنبي ، غير أن النظام العراقي قد أعد الوليمة و دعا مختلف الأساطيل و القوات لمأدبة فاخرة . و في الصالة نجلس متفرجين - هكذا يشاء الآباء - لنتابع فصول المأساة و الملهاة معاً .

و اذ لا تحق لنا المشاركة في النص و ابداء الرأي و المبادرة بالفعل ، فاننا نلتمس السادة : أن تكون لنا – على الأقل – الحرية في اختيار صيغة موتنا .

– ٦ –

عندما خرقة تستر الخريطة
لا يكاد العار يكفي
لكل هذه الدول العارية

كيف نفهم ما يحدث في واقعنا العربي دون ربطه بالسلسلة المتصلة من الانهيارات على جميع الأصعدة : السياسية و الاقتصادية و الثقافية ؟
جسر من الهزائم المتلاحقة يمتد من حزيران الى آب .
ها هنا ، و ليس في أي مكان آخر ، تجد الهزائم ازدهارها و انتعاشها ، و يتوارى المواطن في كهوفه الشاحبة فاغراً فمه في رعب .
نقولها بعلو صوتنا : مدائننا متخمة بالانهيارات .. هكذا نفتح أذرعنا لنستقبل هبوب الانهيار الشامل .
و من أحشاء أمة في حالة إنهيار اندلقت بيضة الأفعى ، و من القشور الرقيقة خرج الزعيم مدججاً بالنقائض الفاضحة . ليس الدم وحده الذي يفضح ، الزعيم أيضا يفضح . إنه يفضح الأورام و يجمّلها في آن . يجسّم كل ما ينبغي أن يظل مستوراً و خفياً ، ويصعدها الى ذروتها القصوى ، فيبدو القمع صريحاً و التنكيل علنياً و الارهاب سلوكاً يومياً .
كينونة الزعيم ، بحد ذاتها ، تعد فضيحة . لكن وجوده ضرورة تفرضها طبيعة الأشياء ، ذلك لأنه افراز طبيعي للتمزقات السياسية و الفوضى الاقتصادية و انعدام الديمقراطية والحكم الدكتاتوري و عبادة الفرد و التناحرات الطائفية و الحروب الأهلية و التصدع والتفكك و الانقسامات و الانشقاقات .

باختصار ، الزعيم ثمرة الانهيارات .

-٧-

ضد الحرب . لا نجاة بالحرب و لا خلاص :

دمار شامل . أرض خراب . أشلاء تدشن الطرقات . مطر أسود .
أفواه مفتوحة بسعة الموت . سماء ذاهلة . هواء مسموم مأخوذ
برائحة الجثث . أكوام من الجثث اختبرت شهوة الكبريت . بيوت
ساجدة تبتهل للعراء . صلاة خرساء . مهود مأهولة بالقذائف .
أكباش ينهشها الدخان . عالم يعود الى حالته الهيولية الأولى .

لهذا نحن ضد الحرب ، هذه الآلة الجهنمية التي سوف تطحن كل ما هو حي .
لكننا بالمقابل ، لسنا مع الحلول التي تتستر على بشاعة الغزو و تسعى الى إقرار الأمر الواقع .. لتكافئ السكين بجراحٍ فاغرة جديدة .

- ٨ -

ممحاة الذاكرة

تمعنوا في الخارطة العربية لتروا التشققات التي تدعى حدوداً . كم هي دامية . و إلا ، ماذا نسمي الفتك العربي - العربي ؟

تتحرك العواصم مثل بيادق شطرنج ، لتأخذ شكل مقبرة يُدفن فيها الحلم العربي .

كلمات و مفاهيم كثيرة سوف تتسرب من الذاكرة ليطمرها النسيان : الوحدة ، القومية، الانتفاضة . و من يدري ، ربما في المستقبل القريب جداً ، سوف نسمع صرخة العبيد المدوّية :

تسقط الحرية .

صورة الزعيم في العقل العربي

د . فؤاد زكريا

تمر الثقافة العربية ، خلال أزمة الخليج ، بمرحلة من التوتر و الفرز لا نظير لها في الربع الأخير من القرن العشرين . فقد تولدت من الأزمة السياسية والعسكرية أزمة ثقافية لا تقل عنها خطورة ، أو لنقل أنها كشفت عن بؤر فاسدة في تلافيف العقل العربي كانت مختفية وراء قشرة من المواقف العقلية المبنية على المجاملات و التمني و التهويم و خداع الذات . و حين تنقشع غيوم هذه الأزمة - وأمل ألا تكون غيوماً رعدية - سيكون حسابنا لأنفسنا عسيراً ، و سيتكشف لنا من جوانب التهاون و الغفلة في حياتنا العقلية ما يجعل وجوهاً كثيرة تحمر خجلاً .

لقد قارن البعض أزمة الخليج الراهنة بمجموعة الأحداث المرتبطة بتأميم قناة السويس في عام ١٩٥٦ . غير أن هذا التشبيه في رأئي باطل كل البطلان . بل أن مجرد التفكير فيه إنما هو مظهر من مظاهر محنتنا العقلية العميقة الجذور . و أحسب أن المقارنة الصحيحة مع أحداث يونيو ١٩٦٧ ، و لست أود أن أستطرد في سرد التشابهات التي ربما فرضت نفسها علي الذهن ، كغرور القوة المصحوب بسوء التقدير و الخطأ الفادح في الحسابات ، و استدراج الأعداء لصناع القرار الى مواقف تورطهم و تورط معهم أمة بأسرها ، و انقياد صناع القرار هؤلاء الى الفخ المنصوب و كأنهم مسلوبو الارادة و الفكر ، و الوقوع في هوة نظل نعاني آثارها و خسائرها و نرهق مستقبلنا من أجلها عشرات السنين .

هذه كلها تشابهات قد تغري المرء بتتبع خيوطها ، غير أنني لن أستسلم الآن لهذا الاغراء ، و سأقتصر على واحد من هذه التشابهات يفرض نفسه على ذهني بإلحاح و هو ذلك الحساب العسير الذي لابد أن نمارسه على عقولنا بعد أن تنتهي الأزمة الراهنة ، مثلما مارسناه من قبل في أعقاب هزيمة ١٩٦٧.

لقد وصفنا عملية التأمل الداخلي و النقد الذاتي التي مارسناها على عقولنا وحضارتنا و على اسلوب حياتنا، في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، بأنها عملية تعذيب للنفس

وجلد للذات . و أعجبنا هذا الوصف فاتخذنا منه وسيلة لتبرئة الذات و التستر على نواقصها و التكتم على البؤر السوداء في عقولنا ، مع أن أعظم قدر من تعذيب الذات لم يكن يكفي لكي نرى حقيقتنا الشائهة أمام أية مرآة صادقة بعد تلك الهزيمة الحضارية التي قررت في ست ساعات مصير أمة كاملة طوال نصف القرن التالي لها على الأقل .

و اليوم ، و نحن لم نعرف بعد طريقنا الى الخروج من النكسة الثانية ، تظهر الأمور واضحة وضوح الشمس . فها هو العالم بأسرة يحكم على ما اقترفه ذلك الحاكم الذي ينتسب الينا بأنه جريمة و غزو وحشي و انتهاك فظ لحقوق الأمم و الأفراد ،

و ها هو ذا الغرب و الشرق و الشمال و الجنوب ، و العالم الأول و الثاني و الثالث ، والدول المتقدمة و المتخلفة - ها هم جميعا يعبرون بأوضح العبارات عن استنكارهم واشمئزازهم من ذلك العدوان الهمجي الذي أطفأ - في نظر هذا العالم - شمعة وليدة لا يتجاوز عمرها العام الواحد ، شمعة الوفاق و المصالحة و التفاهم بين أشد المعسكرات تنافراً .. تلك الشمعة التي أنارت للبشرية طريقاً جديداً تحل فيه مشكلاتها باسلوب حضاري عقلاني ، و تكسر فيه رماحها لتحيلها الى مناجل تغرس بذراً و تحصد ثماراً ...

و لكن العرب وحدهم الذين ينقسمون في حكمهم على ما حدث ، و هم وحدهم الذين تظهر بينهم جموع حاشدة تصفق و تهلل لعودة حاكم عربي الى إتباع أبشع أساليب العصور الوسطى في فض خلافاته مع جيرانه الأصغر و الأضعف .

في بلادنا العربية وحدها علت الأصوات ، لا من الجماهير غير الواعية فحسب ، بل من أعلى شرائح المجتمع فكراً و ثقافة ، مؤكدة أن هولاكو الجديد لم يبتلع فريسته وإنما (حررها) ، و أعادها الى مكانها الطبيعي في بطن الوطن الأم . من قلب منطقتنا العربية ، دون سائر بقاع الدنيا ، تدمي الأكف تصفيقا لأكبر انشقاق عربي في العصر الحديث ، و تنشق الحناجر هتافاً لمن صنع النكبة الكبرى بتلقائية باردة لا تكترث بماضٍ أو حاضر أو مستقبل . و لا يجد المرء مفراً أمام هذه الظاهرة الفريدة من أن يطرح على نفسه السؤال الحائر : هل نصفنا المؤيد للعدوان هو وحده الذي يرى من الأمور ما لا يراه العالم كله ، و يفهم ما يعجز عن فهمه الجميع (و هو عين ما يؤمن به المجنون حين يؤكد أنه ، من بين سائر البشر ، هو وحده العاقل) أم أن فينا خللاً أساسياً يجعلنا نستمتع بالسقوط في تلك الهوة التي استطاعت شعوب الأرض ، منذ اللحظة الأولى ، أن تتفاداها وتنأى عنها ؟

في بلادنا العربية وحدها نجد انساناً أسبغنا عليه أعظم الأوصاف : الصحفي الأكبر و المحلل الأعظم ، الخ ، يضع البلد الغاصب في صف المظلومين ، و يجعل من الزعيم الذي دفع وطناً عظيم الثراء الى الافلاس نصيراً للفقراء ، و يؤكد أن أفعال النظام الذي انتهك حقوق الانسان بأكثر مما فعل أي نظام معاصر غيره ، هي التي ستمهد لنظام عربي تحترم فيه الحقوق و القيم الانسانية - يفعل هذا كله و هو مطمئن البال ،راض عن نفسه أعظم الرضا ، و يجد من يرحبون بفجاجته هذه و كأنها طوق النجاة الذي سينقذ هذه

الأمة من الفرق . و في بلادناوحدها يساند السواد الأعظم ممن يلبسون عباءة الدين أبشع عمليات الاغتصاب و الظلم و الكذب و كأنها العدل العميم الذي يوزعه المهدي المنتظر على عالم مُلئ جوراً .
ما أطول قائمة التفكير المعوج التي كانت متوارية عن الأعين قبل أن تسلط عليها النكبة الأخيرة ضوءاً ساطعاً ! و كم سيكون الحساب عسيراً على أصحاب المواقف المتشنجة التي تخلع على العدوان الهمجي أنبل السمات القومية و الانسانية ، و توظف فكرها وثقافتها من أجل إضفاء صورة براقة على أقبح أنماط الحكم و أبشع ضروب الممارسات .

إن المسألة ، في رأيي ،ليست ناجمة عن سوء النية بقدر ما هي ناجمة عن سوء الحكم و التقدير ، و عن قصور مؤسف في الوعي ، يرجع أساساً الى انعدام الممارسة الديمقراطية على مستوى التفكير و التعبير . فمن المؤكد أن الحجر الطويل الأمد على العقل العربي، و صفوف الأسلاك الشائكة التى وضعت في طريقه ، مسئولة الى حد بعيد عن ذلك الوضع المأساوي الذي يتحول فيه المستبد – عل أيدي نفر من قادة الرأي في أمتنا – الى بطل ، و الطاغية الى أمل ، و الذي تبدو فيه سلاسل السجان في عيون البعض طوق نجاة ، و يغدو فيه مصاص الدماء مسيحاً مستشهداً .
دعونا نناقش صورة ذلك الزعيم الذي أثار هذه العاصفة كلها ، في أعين المثقفين العرب ، و نتأمل كيف تغيرت هذه الصورة بعد الثاني من أغسطس لدي هؤلاء المثقفين أنفسهم ، حت تتاح لنا فرص لاستخلاص أعراض المرض بصورة أشد وضوحاً . و لنحدد أبعاد هذه الصورة المتعددة الأوجه في ضوء التضاد بين البطولة و الطغيان . عندئذ سنجد أمامنا أربع صور ممكنة ، تبعاً لنظرة المثقف الى الزعيم قبل الغزو و بعده .

فهناك أولاً صورة الطاغية / البطل (أعني الزعيم الذي كان في نظر المثقف طاغية ثم أصبح بعد الغزو بطلاً)
و هناك ثانياً صورة البطل / الطاغية .
و هناك ثالثاً صورة البطل / البطل .
و هناك رابعاً صورة الطاغية / الطاغية .

هذه الصور الأربع توزعت بالفعل على أذهان المثقفين العرب في رؤيتهم للزعيم العراقي . و كما نرى في تقييم الزعيم قد تغير في الأولى من السلب الى الايجاب ، وفي الثانية من الايجاب الى السلب ، و في الثالثة ظل ثابتاً على ايجابيته ، و في الرابعة ظل ثابتاً على سلبيته . و في رأيي أن الصورة الأخيرة هي وحدها التي تتمشى مع المعايير الجديرة بالمثقف ، بينما تنطوي الصور الثلاث الأخرى على قدر لا يستهان به من تشوه الرؤية و زيف الوعي .

لنبدأ بالصورة الأولى : **صورة الطاغية / البطل .**

هذه هي الصورة التي تسود لدى الغالبية العظمى من مؤيدي العدوان الصدامي في أقطار عديدة تمتد على طول العالم العربي و عرضه ، و هي بوجه خاص الصورة التي تؤمن بها نسبة كبيرة من مثقفي الأرض المحتلة و من قادة انتفاضتها، كما أنها هي التي تسود بين الجماعات الاسلامية المتعاطفة مع النظام العراقي في مغامرته الأخيرة . و وفقاً لهذه الصورة كان الزعيم العراقي من قبل طاغية : إذ أن الكثيرين من أصحاب هذا الموقف كانوا من الاستنارة بحيث أدركوا الى أن مدى ممارسة الزعيم تجاه معارضيه و تجاه المنشقين من أعضاء حزبه و أبناء شعبه الساعين الى تأكيد هويتهم (كالأكراد و كثير من الشيعة) خارجة عن كل معيار انساني ، و كانت تعلم حق العلم أن العراق في ظل الزعيم كان نموذجا للدولة الخاضعة لحكم فردي قمعي تُلغى فيه ارادة الجميع ، و عقول الجميع ، و شخصية الجميع ، باستثناء رجل واحد ، و تكرس فيه موارد المجتمع من أجل تلبية طموحات هذا الرجل و تحقيق أحلامه و إرضاء غروره . كما أن فئة أخرى من أصحاب هذا الموقف كانت ترى في علمانية النظام العراقي ، وخوضه معركة طاحنة كان هو البادئ بها ضد تجربة وليدة لتطبيق الشريعة في الحكم ، سبباً كافيا لاتخاذ موقف العداء الشديد منه ، و التنديد به بوصفه طاغية مارقاً .

و لكن هذا الطاغية تحول فجأة ، في نظر أصحاب هذا الموقف بجميع فئاته ، الى بطل بعد غزو الكويت و ضمها الى أرضه و استباح لنفسه كل ما ينتمي فيها الى عالم الأحياء و الجمادات . و بمجرد أن رفع الزعيم شعار الوحدة ، لم يحاول أحد أن يترجمه الى معناه الحقيقي ،و هو الضم القسري الذي لا يدانيه إلا الاستعمار في أحلك صوره . وبمجرد أن رفع شعار إعادة توزيع الثروة بين أغنياء العرب و فقرائهم ، تبدّى لهم الطاغية القديم ثائراً تقدمياً يرد العدل المفقود الى جماهير الأمة المظلومة ، و لم يسأله أحد عما إذا كان قد أقام العدل - بأي شكل من أشكاله - في وطنه و ألزم نفسه به قبل أن يفرضه على الآخرين ، و لم يحاسبه أحد على ما بدد من ثروات بلده الذي كان لولاه خليقاً بان يقف في الصف الأول بين أغنياء العرب . و بمجرد أن نادى بالجهاد المقدس (و هو شعار استعاره من أعدائه الذين خاض ضدهم حربه السابقة) و نسب نفسه الى سلالة الرسل ، حتى انشقت نفس الحناجر التي كانت تتهمه بالعلمانية و الفجور ، تهليلاً له وتكبيراً .

× ×

هذه صورة ، تليها الصورة المضادة : **البطل / الطاغية .**

تلك هي الصورة السائدة لدى الضحايا ، و لدى المخدوعين ،و لدى الانتهازيين . أما الضحايا و هم في المحل الأول دول الخليج ، و على رأسهم الكويت بالطبع

فقد كان الزعيم في نظرهم بطلاً عربياً قومياً حين كان يخوض حربه الايرانية ، و كان تمجيد هذا الزعيم في نظر مثقفي هذه الدول - و مواطنيها العاديين على حد سواء - أمراً لا يقبل المناقشة . و كانت أية إشارة الى اسلوبه القمعي في الحكم ، أوالى نوع التحالفات و القوى التي تسانده و تسلحه في حربه العبثية ، تعد ضرباً من الخيانة . كان الاندفاع نحو تأييده اندفاعاً لا عقلياً تحركه روح قبلية تنصر القريب على الغريب ، ظالماً كان أم مظلوماً ، دون أن تتوقف لحظة واحدة لتتساءل عن وسائل هذا القريب أو غاياته . ولكن ، ما أن ما أن وقع عليهم العدوان ، حتى تحول البطل في أعينهم الى طاغية (و السؤال الذي يغري المرء طرحه في هذا الصدد هو : ترى لو كان البطل هاجم بلداً آخر ، أكان سيتحول في نظر الضحايا الحاليين الى طاغية بالمثل ؟) و كان انقلاب صورة الزعيم مباغتاً ، شديد القسوة ، مستعصياً على التصديق .

أما المخدوعين ، و ما أكثرهم ، فلا يختلف أمرهم كثيراً عن الضحايا . إنهم يضمون شرائح واسعة من المثقفين الذين أسلموا عقولهم لجهاز الدعاية الجبار لدي الزعيم (البطل) ، و احتجبت أمامهم حقيقته الوحشية بعد أن نجح في تغطيتها بستار براق تتلألأ فيه أضواء الأمجاد العسكرية . و لم يكن هؤلاء ينتمون الى البلدان الضحية ذاتها ، و انما كانت منهم نسبة كبيرة من مثقفي الدول التي تتعاطف الآن مع الضحايا ، ومن أهمها مصر . هنا أيضاً كانت المفاجأة قاسية ، و إن لم تكن بالطبع في قسوة نظيرتها لدى الضحايا المباشرين . و بقدر ما كان هؤلاء المثقفون أول الأمر مخدوعين ، حاولوا بعد العدوان أن يكفروا عن غفلتهم بالتطرف في مهاجمة (البطل) الذي خيب ظنهم ، وانقلبت صورتهم أمام أنفسهم أمام الناس بقدر ما انقلبت صورة معبودهم القديم ، وكان الموقف في كلتا الحالتين مأساة عقلية .

و أما الانتهازيون فان مشكلتهم أفدح . و لو شئنا أن نقارنهم بالفئة السابقة (أي المخدوعين) لقلنا إن الفارق بينهما هو ذلك الذي يتحدث عنه بيت الشعر المشهور :

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة   و إن كنت تدري فالمصيبة أعظم

فاذا كان المخدوعون لا يدرون ، فإن الانتهازيين كانوا قطعاً من العارفين ، و من المحال أن يكون جميع الذين ظلوا في كل عام يحجون الى مهرجانات العراق ، جاهلين بطبيعة النظام الدموي الذي ينظمها ، أو غير واعين بما يقدمه حضورهم (حتى بغير اسهام ايجابي) من تأييد ضمني لذلك النظام - ناهيك عن قصائد المدح التي كانت تسيل من ألسنة الكثيرين .

إن المشكلة الكبرى لهذه الفئة من المثقفين هي أن الكثير من أفرادها لم ينقدوا أنفسهم بعد أن أرغمتهم الأحداث على تغيير صورة الزعيم من بطل الى طاغية . فنحن أمة تتشدق طوال الوقت بمبدأ النقد الذاتي ، و لكنها نادراً ما تمارسه بصدق ، بل يبدو أن أكبر العقول عندنا ترى فيه نوعاً من العار ، و تخجل من الجهر به . و هكذا تظل هذه العقول تكابر ، و تبدد نصف حياتها الثاني في تبرير الأخطاء التي انغمست

فيها بوعي خلال نصفها الأول .

و المثل النموذجي لهذه الفئة هو يوسف ادريس . فلن يقتنع مخلوق بأن ذهناً على مستوى ذهن هذا المثقف الكبير لم يكن واعياً بطبيعة النظام السائد في العراق ، أو لم يسمع عن تلك المواقف المبدئية الصارمة التي كان يتخذها مثقفو أوروبا من الأنظمة الفاشية في الثلاثينات و الأربعينات ، و التي يتخذها مثقفو أمريكا اللاتينية من الدكتاتوريات العسكرية في أيامنا هذه . و مع ذلك فان الأديب الكبير حين تنصل من مواقفه السابقة تجاه هذا النظام – بعد أن أصبحت فضائحه مدوية – و حين تغيرت لديه صورة الزعيم الذي طالما سانده ، من بطل الى طاغية ، تقدم بتفسير لهذا كله يثبت بحق أن المسافة بين المستوى العقلي و المستوى الأخلاقي يمكن أن تكون شاسعة حتى عند أعظم الكتاب . و هو يلخص موقفه في عبارات يقول فيها :

(صدام حسين كان في حالة دفاع شرعي عن أرضه و أرض العرب ضد الاجتياح الخوميني ، و كنا كلنا معه .. بل كانت الخيانة الحقيقية أن يأخذ أي كاتب أو مثقف موقفا ضد صدام حسين و ضد بغداد في ذلك الوقت .. أما أن يخون هذا الحاكم قضيتنا كلنا .. فهذه جريمة لا نحاسب نحن عليها .. لقد خاننا صدام حسين ، و العمل الخياني مشكلته أنه لا يمكن التنبؤ به .. إن أحداً على وجه البسيطة ، حتى المنجمون و ضاربو الودع ، لم يكن يتصور أن يفعل صدام حسين هذا . / يوسف ادريس – الأهرام . ٨/ ١٠ / ٩٠)

هكذا تمضي عملية التبرير ، و يستبيح العقل الكبير لنفسه أن يقدم حججاً مثل : كان في حربه الايرانية يدافع عن أرضه و أرض العرب و أن الزعيم كان في حالة دفاع شرعي " و كان محاربة الجيران هو وسيلة الدفاع عن العروبة . إن مثل هذه الحجة قد تقبل من انسان عادي ، و لكن المثقف الكبير يعلم أن إرساء دعائم الديمقراطية و العدل القانوني الاجتماعي أقوى أثراً في الدفاع عن أي شعب من ألف حرب . و هو يقول باستحالة التنبؤ بمسلك الزعيم ، مع أن من أوليات الوعي أن هذا النوع من الأنظمة لا يستطيع الاستمرار إلا بالقفز من مغامرة إلى مغامرة . و يفصح الكاتب الكبير عن الكثير حين يؤكد أن الزعيم قد (خاننا) ، أي أننا كنا نعقد عليه أعرض الآمال ، و لكنه خيب ظننا . ويلخص المفكر الضخم موقفه بأنه لم يكن يعرف ، و هي نفس الحجة التي تذرع بها كل أعوان هتلر في محاكمات نورمبرج .. كل ذلك كيلا ينطق بالكلمة البسيطة : لقد أخطأت .. تلك الكلمة التي كان جمهوره الكبير يتمنى سماعها ، لا لكي يبرئ قائلها فحسب ، بل لكي يتخذ منه قدوة و نموذجاً .

×

و تظل بعد ذلك الصورتان الأخيرتان اللتان يتماثل عنصراهما ، و أولاهما صورة البطل / البطل . تلك هي صورة الغفلة الكاملة ، التي كان أصحابها يؤمنون ببطولة الزعيم حتى و هو يسفك دماء الألوف من بني وطنه بلا محاكمة ، و يتصرف في مقدرات

بلاده و كأنه ورثها عن الأجداد الكرام . هؤلاء هم الذين ظلوا يؤمنون به و هو يخوض حرباً لا مثيل لضراوتها و لا لخسائرها و لا لعقم النتائج التي انتهت اليها . من هؤلاء ضحايا غسيل كامل للمخ لا يترك للانسان فجوة صغيرة ينفذ منها تفكير يتجاوز نطاق ما تقدمه الأجهزة الرسمية من مسموع و مرئي و مقروء . و منهم عروبيون أوقوميون متشنجون ممن تكفي لتحريكهم شعارات الوحدة ، و الثورة على الثروة ، و التصدي لعدوان الامبريالية، و محو الحدود الجغرافية المصطنعة ، دون أن تكون عقولهم مهيأة للتساؤل عن المضمون الحقيقي لهذه الشعارات ، و الاسلوب الفعلي
الذي تترجم به على أرض الواقع .

و أخيراً ، تأتي الصورة الوحيدة الصحيحة ، صورة الطاغية / الطاغية .
أصحاب هذه الصورة لا تقبل عقولهم تجزأة الشخصية الواحدة الى مكونات متناقضة بحيث يكون ملاكاً في آن و شيطاناً في آن آخر ، أو العكس ، لأن الانسان في نظرهم وحدة لا تتجزأ ، فالذي بدأ طاغية يستحيل أن يتحول فجأة الى بطل . و الذي كشف سلوكه عن طغيان وحشي يستحيل أن يوصف بأنه كان بطلاً من قبل . و هم لم يكونوا في حاجة الى الانتظار حتى تقع كارثة اجتياح الكويت لكي يكتشفوا " فجأة " أن الزعيم مستبد و أن نظامه يقوم على القمع الدموي و على استخدام القوة الفجة بأبشع صورها . فقد كانوا يعلمون منذ البدء أن هذا نظام يمكن أن يرتكب أي نوع من الجرائم الفردية والجماعية ، و أن سلوكه في اتجاه الشر متوقع دائماً ، و لا ينبغي أن يكون مفاجئا لأحد

هؤلاء هم الذين وقفوا بصلابة ، منذ اللحظة الأولى ، ضد مبدأ الحكم الفردي المطلق لأنه البذرة الممسوخة التي تتولد عنها الكوارث كلها . و هم الذين رفضوا ، من حيث المبدأ ، أي تعامل مع ذلك النظام ، حتى لو اتخذ شكل حضور مهرجان ثقافي ، لأنهم يعلمون أن المثقف إذا تهاون مع هذه الأنظمة بأدنى صورة فأنه بذلك يدعمها و يشجعها على التمادي في جرائمها .

هؤلاء هم الذين لا يجدون أنفسهم اليوم بحاجة الى أن يتصنعوا الدهشة و البراءة أمام العالم ، شاكين من أن الزعيم قد خدعهم بعد أن صفقوا له و تقبلوا عطاياه . و هم الذين لا تحمر وجوههم خجلاً معتذرين بحجة لا تليق بأي مثقف : كيف كان في وسعنا أن نعرف ؟ ذلك لأن الأمور كانت واضحة منذ اللحظة الأولى . و إذا كان رجل الشارع قد ارتبك و أحس بالحيرة ، فلا عذر للمثقف الذي ينبغي ، بحكم جوهر ثقافته ، أن يكون عارفاً و ينبغي أن تزداد معرفته و يسمو ضميره الأخلاقي بقدر ما يرتفع مستوى ثقافته

هؤلاء هم الذين أبصروا الحقيقة منذ لحظة بزوغها ، و هم - للأسف - قلة ضئيلة في عالمنا العربي المنكوب بغياب الضمير و العقل بقدر ما هو منكوب بغياب الحق والعدل .

الكويت .. أفقا للثقافة

د . ابراهيم عبدالله غلوم

لاشك أن الغزو العراقي على دولة الكويت ، و ما أعقب ذلك من تفاعلات اقليمية و عربية و دولية ، وضعت العالم على حافة حرب مدمرة .. هذا كله يعتبر كارثة حقيقية أمام الثقافة العربية ، و العقل العربي بوجه خاص . بل أنه كارثة حقيقية للنظام الاقليمي العربي الذي طالما تمثل لنا بكل زهو في صيغة (مجلس التعاون لدول الخليج العربية) ، و للنظام العربي ممثلاً في رمزه الثقافي المؤسسي (الجامعة العربية) .. و للنظام الدولي ممثلاً في قوانينه و اتفاقياته و تحالفاته و استراتيجياته البعيدة . و أن يتسم فعل الغزو بكل هذه التاثيرات المقوّضة يعني الكثير من الاحتمالات .. حتمية أو ضرورية ، في الحرب أو في السلم ، في الانقسام أو في المزيد من الانقسام ،و في النكوص الثقافي الشامل أو في المزيد منه أو في ضده أيضاً ، رغم أن التجارب الكثيرة في تاريخ العراق ، صاحبة فعل الغزو أو في تاريخ غيرها كمصر و الهند و روما ، تدل على أن نكوصاً داخلياً يتكرر حين يتدفق برابرة غزاة أو حين تحل كوارث طبيعية مدمرة أو انهزامات عسكرية و سياسية ساحقة أو نحو ذلك .

و لا نريد هنا أن نذهب بعيداً في تحليل فعل الغزو أو تحليل تفاعلاته المختلفة ، و إنما سنذهب نحو زاوية محددة من بين زوايا التأثير الحادة الناجمة من تأثير الغزو، فالغزو ، في عملياته و أسبابه و تفاعلاته المباشرة الراهنة و المستقبلية ، حدث معقد ربما صبت في ردود فعل السياسات الخاطئة في البلاد العربية ، و سياسات الدول الكبرى ، وربما كان شكلاً من أشكال التفاعل للكثير من القضايا المعلقة حول الديمقراطية في الوطن العربي ، و حول القضية الفلسطينية ، و مجمل قضايا الصراع العربي / العربي . و ربما ، و ربما .. كل هذه تفاعلات مركبة نعجز عن أن نحيط بها ، بل يعجز عنها محللون متخصصون لمايتسم به فعل الغزو من تعقيد أولاً ، و ما يتسم به من راهنية مفتوحة على كل الاحتمالات التي يمكن أن تذهب اليه مخيلة المخيلات .

و اذا كانت الكثير من الكتابات الاعلامية العربية و الغربية قد فصّلت القول في الأسباب ، كما تناولت بعض التفاعلات السياسية المحتملة على الصعيد العربي و الدولي لما يمثله احتلال الكويت من تهديد مباشر للمصالح الغربية بشكل خاص . فإن قلة قليلة من الكتابات تحدثت عن أبعاد الغزو على حركة الثقافة العربية ، وعلى حركة التنمية الثقافية العربية ، التي تكاد دولة الكويت أن تمسك بزمام قيادة الكثير من مشاريعها ومبادراتها . فاذا كانت كل التفاعلات الراهنة تضع فعل الغزو العراقي في مصاف الكوارث التي حلت بالامة العربية في عصرها الحديث منذ عام النكبة مروراً بهزيمة حزيران و الغزو الاسرائيلي للبنان و كامب ديفيد و الحرب العراقية / الايرانية و بغير ذلك من الأحداث الجسيمة .. التي تكاد تجعل عمر كل جيل يتحرر ميلاده أو موته بواحدة من تلك الكوارث او الأحداث .. إذا كان الغزو العراقي ينضاف في عقد هذه السلسلة ، فإن نكوصاً ثقافياً محتملاً سيجعل الكثير من الأوراق تتساقط ، و الكثير من الانجاز يتوقف ليبدأ من جديد ، أو ليتوقف نهائياً ، و الكثير من المواقف تتردد لتسقط في حيرة قاتلة ، أو لتنكفئ في ذعر مما حدث أو سيحدث ، أو لتكفر بكل ما أمنت به من قيم الحرية و الوحدة و مبادئ القومية و العروبة .. وقد بدأنا حقاً نتابع ردود فعل شبيهة بذلك منذ الأيام الأولى للغزو ، و هي ردود فعل جسدها مثقفون و ساسة كبار دفعت أحد المفكرين الى توصيفها و تحليلها في سياق تخلف العقل العربي ، كما جاء ذلك في أول مقالة علمية رصينة تكتب بعد الغزو ، في محاولة لمواجهة أشكال التخلف ، و احتمالات النكوص . (انظر مقال د . فؤاد زكريا ، جريدة الأيام) .

المسألة الثقافية إذن ، هي زاويتنا الحادة لا نتخذها بحكم الانتماء الى قاعدتها تنظيراً و ممارسة ، بل نتخيرها لما يحيط بها من تهميش و عزل ، فكلنا يعرف أن الثقافة كلمة تصيب كثيرين بالذعر و تجعلهم يتصببون عرقاً ، و طالما وضع المخططون الرسميون هذه الثقافة في نهاية قائمة الأولويات إن لم يشطبوها نهائياً ، و راحوا من ثم يتعاملون مع الانسان لا بوصفه كائناً ثقافياً بل بوصفه معزولاً عن حاجاته الأساسية للثقافة . هكذا كانت حجة ابعاد المثقف عن جميع أشكال المشاركة في القرار . و هكذا كانت حجة تفريغ حركة التنمية من أبعادها الثقافية المباشرة . و هكذا كانت نظرة الحكومات العربية دوما الى الثقافة معزولة تماماً عن مجمل التفاعلات المؤدية الى فعل الحدث أو المتناسلة منه . و نحن اليوم أمام نموذج واضح يشير الى هذه المشكلة . فالغزو العراقي قطع إمدادات النفط من كل من العراق و الكويت ، و دفع بآلاف من النازحين الكويتيين والمقيمين الى مصير مجهول ، و أدى الى سلسلة من أعمال التدمير داخل الكويت ... هذا ما تتحدث عنه وسائل الاعلام بشكل يومي . أما النكوص الثقافي الشامل الذي ننتظره من وراء فعل الغزو فلا يزال أمراً هامشياً لا يثير اهتمام أصحاب القرار كما لا يثير اهتمام الكثيرين من المثقفين في الوطن العربي .

و لعل القارئ العادي يعرف ببساطة متناهية أن فعلاً كالغزو العراقي للكويت لابد

أن تتفاعل معه مجموعة من العوامل المؤدية الى التغيير .. خاصة أنه حادثة غير مسبوقة في التاريخ المعاصر . أنه - مثله مثل غيره من المتغيرات الضخمة - علامة لبدء حقبة جديدة . فماذا أعددنا لهذه الحقبة ثقافياً من أجل بناء تنموي شامل يحول دون سقوط مجتمعاتنا في لحظات انتهائهاكما تنتهي أية لعبة ورقية في يد فظة قاسية ؟

و القارئ العادي يعرف أيضاً من ناحية أخرى أن تجارب كثيرة لغزاة و برابرة قد عاثت فساداً و تخريباً بمدن كبيرة لكنها لم تستطع محوها من التاريخ ، و لم تستطع بكل ما أوتيت من أفعال غاشمة أن تنسى الناس في جميع العصور ما أنجزته تلك المدن في التاريخ الثقافي من فنون و علوم و آداب . كما يحاول الغزو العراقي أن يفعل ذلك مع الكويت ، فكيف ننظر الى الانجاز الثقافي في الكويت في الوقت الراهن ، وهي لا تزال تحت وطأة الاحتلال ؟

إننا أمام أسئلة كثيرة تضع الفعل الثقافي المعزول بالغزو الراهن بين وقتين ينفتحان على كافة الاحتمالات . و تبدو هذه الأسئلة بعد الغزو و قبل الحقبة الجديدة باهتة لا قيمة لها . لأن جذر الأزمة و عصبها الأساس هو النفط . فكل الدول المتحالفة اليوم ، والمحتشدة بعسكرها أنما تشعر أن طاقتها الخلاقة في الاقتصاد مهددة بالانهيار طالما المنطقة على شفا تقسيم جديد و حرب مدمرة . و هذا لا يؤكد سوى حقيقة ثابتة ظللنا نرفع الصوت بها جهاراً . و هي أن النفط رمز أساس في نسيج الثقافة العربية في هذه المنطقة . فكل ما هو ثقافي يتفاعل مع هذا الرمز ليس باعتباره مادة خام بل باعتباره محركاً لتطور النظام الاجتماعي و السياسي . و لسنا في حاجة الآن لاثبات أن النظام العربي الراهن يرتهن بهذا الرمز على نحو مباشر ، فالنفط هو القوة المحركة لسلسلة التغييرات السكانية والحضرية و التعليمية و هو المحرك لنشاط القوى العاملة و لحركة التحديث و النمو في شكلها العام، و هو الباعث لقوى الاستهلاك في المنطقة العربية .. أنه ذلك الساحر الذي جعل كل شيئ ، حتى الحديث عن الحريات و الثقافة ، يبدو من أجل الاستخدام الاستهلاكي . بل أنه ذلك الساحر الذي جعلنا نعيش الوهم الأكبر بأننا في عصر الاستقلال و الديمقراطية ، و العدالة و الرفاهية و الازدهار و غير ذلك من الشعارات التي ظللنا " نستهلكها " و " نستعرضها " طوال العقدين الماضيين دون أن يكون لمعناها ذلك الوجود الحقيقي أو المباشر في حياتنا .

لقدتحول النفط في بلادنا العربية الى قوة مضادة للديمقراطية ، لأن التخطيط الثقافي في هذه البلاد لم يكن سوى قشرة خارجية تصاحب حركة " الاستعراض " و" الاستهلاك " .فبدلا من أن يطلق هذا النفط جميع امكانياتنا الثقافية و الانتاجية ،و يوظف مكاسبنا الوطنية و القومية ، نجده يطلق امكانيات العالم الخارجي ضدنا ، و يوظف جميع أشكال التخطيط الرسمي و غير الرسمي لضبط سلسلة الرقابات و إحكام حلقاتها منتهية الى ترسيخ مفهوم له رواسبه الثقافية في التاريخ العربي . و هو أن الفرد جزء من الدولة تماماً كما كان الفرد جزءاً متلاشياً في نظام القبيلة . و هكذا فان النفط لم يكن طوال

السنوات الماضية إلا عاملاً من عوامل التخطيط لخلق المزيد من الضغوط أمام الديمقراطية باعتبارها أساس التحرك نحو تنمية ثقافية شاملة . و أعني بالضغوط ما تبلور عنه النفط من تبعية و استهلاكية و تجزئة ، و سياسة تنتهج الانكفاء الاقليمي والاستعراض التنموي و الرقابة الشديدة على الحرية الفردية التي نرى فيها الباعث للامكانيات الخلاقة في الفن و المجتمع و الاقتصاد ، طالما كانت محتمية بمظلة المشروع الحضاري الواضح الأهداف .

إن تخطيطاً بهذه المثابة كفيل بأن يحرمنا حتى من النفط و يجعلنا نتمتع به تمتعاً شكلياً عبر الحاجة المحمومة للاستهلاك .. فنحن نبيع النفط ثم نشتريه بأسعار مضاعفة في صورة مشاريع و صناعات أجنبية تتحول هي الأخرى الى ضغوط مضادة لامكانياتنا الداخلية . و النتيجة الآن . !! إننا لا نرث من النفط شيئا ، أننا لم نرث منه حتى الوسائل الكفيلة بأن تجعلنا قادرين على الدفاع عن أنفسنا أمام كارثة الغزو العراقي . بل أن أقصى ما ورثناه من النفط هو التجزئة و الخلافات الاقليمية المتوترة أبداً . هذه هي محصلتنا من حقبة العقدين الماضيين لمواجهة الحقبة القادمة بعد احتلال العراق للكويت .

و لأننا في الوقت الراهن-لا نرث ضمن امكانياتنا الذاتية شيئا من النفط فإن صورة الأيام القادمة تبدو مظلمة جداً لأننا و باختصار شديد سندفع ثمناً للتبعية الاقتصادية و الثقافية أغلى كثيراً مما كنا ندفع في السنوات الماضية . و لذا كان القول بأننا أمام نشوء نظام عربي جديد صحيحاً ، سواء كانت نهاية الاحتلال عسكرية أم سلمية .

وتتوالى بعد ذلك النتائج في بعدها الثقافي المباشر و غير المباشر أبسطها ازدياد الهوة بين الثقافي و السياسي ، و زيادة تهميش الاختيار الفردي (الحريات) و محو الفكر القومي من الوجود بعد صدمة الغزو ، أو النظر اليه بدونية ، رغم أنه السلاح الثقافي الوحيد الذي لم نتعلمه من النفط و انما تعلمناه من حركة القوى الاجتماعية في تاريخنا العربي القديم و الحديث . أما أكثر النتائج مباشرة فهي أننا سنبتعد فراسخ عن الديمقراطية ، و ستبدو هذه الكلمة في موقف خانق جداً ، لأن جميع آليات النظام العربي القادم ستكون ضداً لها من عنف و من تشريعات . و لا أذهب بعيدا حين أرى أن نظام الحكم الشرعي في الكويت لن يكون قادرا على اقامة توازن بين العودة الى الدستور والاستجابة للتبعية للنظام الجديد . ذلك أن ضغوط هذه الاستجابة أبعد و أخطر و أكثر دفعا للمزيد من التبعية بحكم كونها نتيجة مباشرة لارادة غير شعبية مدفوعة بأهداف التحالف الأجنبي الذي يدافع عن طاقته هو : " النفط " .

كل ذلك يشكل صورة سلبية قاتمة للتفاعل الثقافي الذي سيصاحب الحقبة القادمة ، فغزو العراق الغاشم و سقوط الكويت السريع ردُ لفعل واحد و هو النفط ، باعتباره قوة مضادة لامكانياتنا الداخلية الخلاقة . و لذا كانت الأيام القادمةحبلى بالتخطيط

لابقاء تلك الامانيات مغلولة ، و منتشية بنزعات استهلاكية أكثر فظاظة و تدميراً لامكانياتنا الذاتية .

و اذا كان سؤالنا الأول قد جرّ الى محاولة أشبه بمحاولات جلد الذات التي تصاحب أو تعقب حلول كارثة ما . فان السؤال الثاني يدفع إلى أن نوقف هذه المحاولة قليلاً و نتأمل صورة الانجاز ، أو النموذج ، لأنه يجعلنا نتساءل ثانية : لماذا يختار نظام دكتاتوري ضحية كالكويت؟

تداعت أجوبة كثيرة منذ الأيام الأولي للغزو لكن شيئا منها لم يقترب من البعد الثقافي لفعل الغزو باعتباره عملاً من أعمال حكم الفرد . فقد تحدث كثيرون عن الأسباب الاقتصادية و السياسية بل و القومية أيضاً .. و مرة أخرى يبدو التمثّل الثقافي لصورة الغزو بعيداً لأن أحداً من الغربيين أو من أغلب المثقفين العرب لم تمتثل أمامهم صورة واضحة لدور الكويت في حركة التنمية الثقافية العربية . أو صورتها كوسط ثقافي نموذجي قياساً بالوسط الثقافي المحيط بها في بقية دول الخليج . لقد تراءت الكويت بعد الغزو نفطاً و لا شيئ غيره ، و غابت صورة شعبها العربي المعروف بمواقفه الوطنية و القومية منذ الربع الأخير من هذا القرن ، و غابت صورة التأسيس المبكر الرائد للحركة الديمقراطية في الخليج و الجزيرة العربية . و بقيت صورة النفط والاستهلاك . و هذه صورة شوهاء ، فيكفي أن تقول النفط حتى تتداعى لك الكثير من المشكلات و الضغوط و الأوهام التي أجّلت الكثير من المشاريع الثقافية الجادة.

منذ بدايات هذا القرن و الكويت تقوم بدور تأسيسسي في حركة التنمية الثقافية ، و خاصة في المجال الثقافي المؤسسي الذي سيمهد لنشوء حركة ديمقراطية مبكرة في الثلاثينات من هذا القرن (١٩٣٨) . ففي هذه البلاد تنشأ أول مدرسة نظامية ، و أول ناد أدبي وأول جمعية خيرية ثقافية ، و أول صحيفة (مجلة الكويت) . كما يتم وضع أول دستور وأول مجلس تشريعي . . كل ذلك وغيره يتم في سياق التأسيس الرائد للثقافة الديمقراطية في منطقة الخليج العربي .

لقد صقل مثل هذا التأسيس بيئة الكويت اجتماعياً و سياسياً و ثقافياً ، و ربطها بمد الثقافة العربية ، و أهم من كل ذلك أوجد البيئة الطبيعية للمؤسسة الثقافية من مدارس و أندية و جمعيات و صحف ، و قد تواصل هذا التأسيس بعد عام ١٩٦٢ الذي شهد بداية ازدهار ثقافي دفع بحقلين إثنين دفعات متطورة و هما حقل المسرح والصحافة.

إن ازدهار هذين الحقلين مؤشر حقيقي على نمو " المؤسسة الثقافية " فقد أمكن للمسرح أن يطرح حواراً حاداً مع أعنف المشاكل الاجتماعية و الاقتصادية و الحضارية حتى ما اتصل منها بتقسيم الثروة بين الحاكم و المحكوم ، أو بين مختلف الطبقات الاجتماعية . و منبع قوة الصحافة في الكويت هو نفسه منبع قوة التجربة المسرحية : وهو الديمقراطية . وبغض النظر عن فترات المد و الجزر التي مرت بها هذه الصحافة

فانها تظل مخلصة لمنبعها الطبيعي . فكلما تلقت الحريات ضربة موجعة انعكس ذلك في حركة الصحافة و العكس صحيح . في بداية الستينات كانت الصحافة بمثابة تظاهرة سياسية مستمرة ضد التواجد البريطاني و معاهدة الحماية ، ثم كانت منبراً للأقلام العربية التي مارست حرية العقل ثقافياً دون صخب أو ضجيج ، ثم كانت صوتاً شعبياً يحاور أجهزة السلطة و ينتقدها و يعارضها أيضاً . و بين هذه الأمثلة تقع فترات خمول للفعل الثقافي / الديمقراطي ينعكس أول ما ينعكس على الصحافة من خلال تطبيق قانون المطبوعات و النشر و ما لف لفه من قوانين السلطة الرقابية السائدة .

تمكنت الحركتان الصحافية و المسرحية في الكويت - إذن - من المجاهرة بصوت الفعل الثقافي على الرغم من ضيق مساحة هذا الفعل ، بحيث أصبح هذا الصوت موصولاً بامتداده العربي ، و قد مورس هذا الامتداد عملياً من خلال المشاركة الكبيرة التي ساهمت بها الكويت في لجنة اعداد الخطة الشاملة للثقافية العربية و ذلك باهتمام رئيسها (عبدالعزيز حسين) و احتضان اجتماعاتها و التحضير لعدد كبير من ندواتها في أجواء تتسم بالحرية و القبول لجميع الآراء المتعارضة ، و تحضرني أسماء عدة ندوات متميزة ، حتى اذا ما قيست بأهم الندوات العربية منها ندوة التخلف الفكري ، و ندوة المسرح و التراث ، و الندوتان الفكريتان حول العمل الثقافي المشترك في دول الخليج العربي . هذه و غيرها ندوات لم تكن الصحافة في الخليج تجرؤ حتى على نقل وقائعها لما اتسمت به من جرأة في الحوار مع القضايا الساخنة في الثقافة العربية . لقد أصبحت الكويت أكبر كثيراً من حجمها بواسطة الفعل الثقافي و الديمقراطي ، و بات جهد مؤسساتها الثقافية يصب مباشرة في مشروع التنمية الثقافية العربية من خلال مجلات كالعربي و عالم الفكر و البيان و سلاسل و اصدارات كعالم المعرفة و المسرح العالمي .

و في كل ما سبق ، و غيره مما لا يتسع المجال لحصره الآن ، مؤشرات جلية على مدى ارتهان الفعل الثقافي بالفعل الديمقراطي في مجتمع الكويت ابتداء من منتصف هذا القرن . إنه ارتهان جعل منه منظومة نموذجية طالما تمثل بها المثقفون في دول الخليج العربي ووجدوا فيها متنفساً لما هم عليه من ضيق و اختناق . و طالما أصبحت الكويت تمثيلاً لمنظومة على هذا النحو فانها حقيقة بأن تثير الاستفزاز في مرأى أي نظام دكتاتوري . الأمر الذي يعني أن الغزو العراقي كان يستهدف تقويض الفعل الديمقراطي ، الذي تمثل المعطيات الثقافية أبرز تجلياته .

إن الفعل الديمقراطي في الكويت هو التجربة الثقافية الوحيدة التي يبلورها النفط في منطقة الخليج و الجزيرة العربية .. إنه فعل لم ينضج بعد بمافيه الكفاية ، يتخمر ، و يتذبذب بين النشاط و التوقف. و لكنه ينذر كل الأطراف المجاورة و يجعل فرائصها ترتعد خوفا. و أعتقد جازماً أنه لو أتيح لهذا الفعل في الكويت الاستمرار منذ عام ١٩٦٢ دون انقطاع أو توقف لأمكن له أن يحدث تغييراً جذرياً متدرجاً في

النظام الاجتماعي و السياسي في المنطقة بأسرها .

و المخاوف التي نضعها أمام الفعل الثقافي / الديمقراطي في الكويت لا تأتي من الغزو العراقي ، رغم كل احتمالاته المفتوحة ، فتدمير الدولة بآلة المؤسسة العسكرية لن ينسينا ذلك الفعل باعتباره النموذج المحرك لكثير من التطبيقات العملية في دول المنطقة ، ابتداء من تجربة مجلس الأمة التي انعكست تأثيراتها البعيدة في تجربة المجلس الوطني في البحرين و مرورا بتجربة الصحافة و المسرح و الجمعيات الثقافية والمهنية و تجربة المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب التي لا تزال ثير الكثير من حماس المثقفين لها كنموذج مؤسسي للثقافة .

من أين تأتي مخاوفنا على فعل الثقافة في الكويت إذن ؟

انها تأتي من عدم استجابتنا لفعل الغزو باعتباره أهم و أخطر المتغيرات التي تمر به مجتمعاتنا في العصر الحديث . ذلك أن مجرد التفكير بأن عودة الكويت سيعيد الأوضاع السابقة و يرتب لنا مفاصل الواقع الراهن يعتبر مؤشرا واضحا لما وصفناه في البداية بالنكوص الثقافي الداخلي . فما بالك اذا كنا نعتقد أن ترتيب الواقع بعد عودة الكويت لن يحتاج منا الى إعادة النظر في سياساتنا الراهنة . إن اعتقادا مثل ذلك كفيل بأن يهيؤنا لكارثة جديدة .

و الذي نراه هو ضرورة مواجهة الحقبة الجديدة باستجابة تعتمد التخطيط العقلاني للتغيير القادم بعد الغزو ، طالما هو تغيير حتمي . و من المهم أن يرتكز هذا التخطيط على أسس شاملة تملأ فراغات الهوة الثقافية التي تحدثنا عن بعض سماتها هنا . و نعتقد ان من بين أهم هذه الأسس :

– إدماج النفط ، باعتباره محركاً للنظام الاجتماعي و السياسي ، في عمليات إعادة هيكلة مجتمعات المنطقة ضمن خطط و برامج ثقافية شاملة تهيئ المناخ المعقول للفعل الديمقراطي إننا الآن أمام ضرورة تمثّل النفط في النمو الشامل للمجتمع ، و هي ضرورة لا تقوم لها قائمة دون ذلك الفعل ، خاصة و أن أحد أعمدتها الأساسية تحقيق التوازن في الانفاق بين المادي و الثقافي .

– استثمار مكاسب الفعل الديمقراطي في الكويت ، و دراسة مواقع التقدم والاخفاق في مساره خلال ربع قرن . ذلك أن هذا الفعل مكوّ ن أساسي لثقافتنا المعاصرة في المنطقة . و هو لن يكف عن أن يكون نموذجا في تخطيطاتنا القادمة . و قد أثبت لنا هذا الفعل حقا أن احتلال الكويت يمكن أن يسقط الأبنية ، و يخرب كيان الدولة ، لكنه لا يمكن أن يسقط الهوية القومية والوطنية .، تماما مثلما أسقط الغزو شعارات الاستقلال والتنمية و الازدهار دون أن يسقط حقيقة النزوع الديمقراطي و القومي .

الى تلميذي علي ... في الكويت

د . جابر عصفور

في صباح اليوم الذي سمعنا فيه عن أنباء غزو العراق الكويت ، كنت في مبنى جريدة الأهرام ، في طريقي للقاء أحد الأصدقاء من كتاب الجريدة البارزين ، و كنت في انتظار المصعد . فجأة . بادرني رجل لا أعرفه ينتظر المصعد مثلي . و كان واضحاً أنه سوداني الجنسية . و، قال لي و الحزن في وجهه ، و الحيرة في عينيه : هل يرضيك ما حدث ؟ و لم أكن أعرف الرجل ، فقلت مندهشاً و متعجباً : و ما الذي حدث ؟ قال : لقد دخلت القوات العراقية الكويت ، و أسقطت الحكومة ، و احتلت كل شيئ. و أخذني الذهول . و لم أجد ما أجيب به الرجل . و لم يطالبني هو بأي إجابة ، سرعان ما تركني . و كأنه عدل عن رأيه في أخذ المصعد الذي جاء . و وصلت الى مكتب صديقي الكاتب حائراً . و هناك تتابعت الأخبار . كل ما نقلته وكالات الأنباء .

لا أذكر أن أحداً من الحاضرين كان قادراً على التحليل العقلي الهادئ . لفنا الذهول جميعاً . و غرقنا في صمت ثقيل . من يدري ؟ لعل كل واحد منا كان يفكر في أصدقائه من المثقفين الشرفاء في العراق و الكويت على السواء ، و كلهم حبيب الى النفس ، و كلهم أمل هذه الأمة الحزينة في المستقبل . و لعل كل واحد منا كان يهمس لنفسه أن الكوارث التي نصنعها لأنفسنا لا تقل فضاعة – إن لم تزد – عن الكوارث التي يبتلينا بها أعداؤنا . ها نحن نواجه لعنة الأخوة الأعداء مرة أخرى . فجأة ، قال واحد من الحضور : ماذا تنتظرون من أنظمة حكم لا تتمتع بذرة واحدة من الديمقراطية . و قال آخر : نكبة أخرى لا تقل عن نكبة فلسطين ، بل لعلها أفظع ، فنكبة فلسطين جمعت العرب حول قضية وهدف ، و تلك نكبة ، فضلاً عن أنها تقوم بتشريد أعداد أكبر – لابد أن تمزق العرب و تزيد من انكسارهم . و قال ثالث : غداً تنفتح أبواب التدخل الأجنبي ، ونستدعي نحن الذين حاربنا الاستعمار طويلاً هذا الاستعمار مرة أخرى بحجة مساعدتنا على أنفسنا . و قال رابع : و ماذا تظنون ؟ هذا عصر ملوك الطوائف الذي لم يتجاوزه العرب بعد . و قال خامس : ترى هل يمكن أن يقوم العرب هذه المرة بدور، أي دور ، من

خلال الجامعة العربية ، أو مجلس التعاون العربي ؟ و قال سادس : قبل أن تسأل هذا السؤال إسأل عن عبدالناصر . أين هو الآن ليفعل ما فعله من قبل ، في أيلول الأسود ، أو في إيام أن أراد عبدالكريم قاسم ابتلاع الكويت ؟ و لم يكن عند أحد إجابة حاسمة على أحد . إنتهى زمن الاجابات الحاسمة ، القاطعة ، و دخلنا زمن الالتباس ، و الغموض ، و الشك و الجنون ؟ و افترقنا . كلنا معلق حول أجهزة الراديو . نرقب الأخبار . و نستمع الى تعليقات الخبراء . و تحول بعضنا الى خبراء . عادت أيام يونيو الحزين من العام السابع و الستين ، و أيام القلق الممض من أيام أكتوبر .

و مضت أيام . و تثاقلت القدرات العربية . و انتهت تمثيلية الحكومة الكويتية المزعومة. و أظهرت المعارضة الكويتية وطنية معدنها و أكدت التزامها بمبادئها القومية الديمقراطية ، و فر جرذان كل العصور . و انقسم العرب شيعاً و أحزاباً ، و أصبحت الكويت الدولة الشقيقة محافظة في دولة شقيقة . و الكل عاجز . و أقدام الأجنبي تعود مرة أخرى الى الأرض العربية . و من المسؤول ؟ الذي أشعل النار أم الذي يحاول اطفاءها ؟ الجلاد أم الضحية ؟ أنظمة الحكم أم الشعوب البائسة ؟ و أين العدل في هذا المشهد الجنوني كله ؟ ها هو قد أصبح ملكاً لمن جلسوا فوق عرش الجماجم بالطيلسان الكفن . وتحققت نبوءة الشاعر الذي قال :

أصبح العدل موتاً و ميزانه البندقية
أبناؤه صلبوا في الميادين
أو شنقوا في زوايا المدن .

و كنت أناقش الأصدقاء ، و أشاركهم موقف إدانة الغزو العراقي للكويت. و إدانة الوجود الأجنبي ، و إدانة الحكم الديكتاتوري الذي انتهى بالأمة العربية الى كل هذه الكوارث ، و الاشارة بموقف المعارضة الكويتية التي كانت مواقفها فخراً لها . ولكننا - جميعاً - كنا نؤكد أنه ما ظلت الديمقراطية غائبة عن الأوطان العربية فلا مفر من تكرار الكوارث ، و أنه ما ظلت جماهير الأمة العربية معزولة - قسراً ، و كرهاً ، وقهراً - عن المشاركة في صنع القرار فالتبعية للأجنبي الذي ينهب ثروات الأمة العربية هي القدر المقدور .

و كنا نتساءل في لهفة عن أخبار أصدقائنا من مثقفي الكويت الشرفاء ، و عن فرسان المعارضة الذين أثبتوا أن اخلاصهم لوطنهم يفوق اخلاص كل الذين يوشون ياقات قمصانهم بالسكوت . القطامي ، أحمد الخطيب ، أحمد الربعي ، خلدون النقيب ، المنيس و غيرهم و غيرهم من أمل الكويت الحزينة من المثقفين الشرفاء : خليفة الوقيان و سليمان العسكري و خالد سعود الزيد و عبدالمالك التميمي و عبدالله المهنا و غيرهم و غيرهم . ماذا حدث لهم ؟ كنا نتابع الأخبار في لهفة الخاص و العام . هذا في داخل الكويت . هذا كان يعالج في لندن . هذا بخير . هذا وصل القاهرة . و ما أكثر الشائعات

المظلمة . و ما أكثر الأخبار اللامعقولة . كأننا غرقنا في دوامة الجنون و العبث واللامعنى و كأن العقل قد سقط في دورة النفي حتى يجن ، بعد أن تحققت نبوءة نفس الشاعر الذي قال :

أصبح العقل مغتربا ٍ يتسول
يقذفه صبية بالحجارة
يوقفه الجند عند الحدود
و تسحب منه الحكومات جنسية الوطن

و كانت الذكريات - و لا زالت - تحملني دائما الى السنوات التي عشتها في الكويت ، استاذاً زائراً ، أو معاراً (بلغة البيروقراطية الجامعية) و الى ما قبل هذه السنوات . أذكر أنه في سبتمبر ١٩٨١ أزاحني من جامعة القاهرة القرار التاريخي المشهور للسادات (رحمه الله) الذي طردني مع أكثر من ستين استاذاً من الجامعات في أحداث الفتنة الطائفية المصرية . و كانت تهمتنا المعلنة الكاذبة بالطبع أننا نسهم في إحداث الفتنة الطائفية ، بينما كانت التهمة الحقيقية أننا كنا ضد معاهدة كامب ديفيد و الصلح مع اسرائيل .

و اضطررت للعمل استاذاً زائراً لمدة عام في جامعة استكهولم ، بواسطة صديق كريم هو عطية عامر ، الذي هاجر من الوطن العربي فراراً من ديكتاتورية أنظمته . وفي السويد ، حمل اليّ البريد دعوة كريمة من مثقفين كويتيين شرفاء كي أعمل في جامعة الكويت . و بعد أن عدت الى جامعة القاهرة ، بعد انتهاء عهد السادات ، ظلت دعوة أصدقاء في الكويت قائمة فزرتها ، و عملت في جامعة الكويت سنوات حافلة . عرفت فيها الأخيار و الأشرار . المنافقين الساعين وراء الثروة ، و الصادقين الباحثين عن الغد . شعراء المديح السلطاني الذين يزخرفون الأعياد بالنظم المدفوع الأجر و شعراء التمرد الذي يحلقون بأجنحة العاصفة بحثاً عن مدائن المستقبل . شرفاء المعارضة الذين كان يجذبني اليهم دفاعهم عن نفس ما طردت من أجله من جامعة القاهرة ، و منافقي السلطة الذين كان ينفرني منهم و جودهم الذي يعكر على الشرفاء حياتهم . و كان أصدقائي دائماً من الطلاب الكادحين الذين يبحثون عن المعرفة و الأساتذة الذين يحلمون بجامعة حقيقية . و بقدر ما اختلطت بالجميع ، طوال سنوات اقامتي بالكويت ، شاركت الشرفاء أحلامهم ، و عشت قلقهم ، و تعرضت مثلهم لخسيس السهام .

و لكن يبقى في قلبي مكانة خاصة لطلابي في قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة الكويت . أذكرهم كلما رأيت طلابي في قسم اللغة العربية بآداب القاهرة . تلك البذور الواعدة التي لاتعرف التلون و التي تسعى الى المعرفة في حب و اخلاص ونهم . ولا أكف عن تذكر المبدعين منهم : سعدية التي تكتب شعراً بالعامية الكويتية متمردة على كل ما يعرقل أحلام المرأة الحديثة . أحمد الذي كان يمارس أول خطواته في

النقد الأدبي . ليلى التي كانت تتحسس طريقها في كتابة القصة . ناجبة التي كانت ترى في الفن وسيلة للإنعتاق . عباس المهوس بالفنون الشعبية . نوال التي كانت ترى في الجامعة مستقبلاً لها و لبلدها . ها أنذا أشعر بالخوف عليهم . و أتلهف على سماع أخبارهم . ماذا جرى لهم .

غير أن من بين تلامذتي تبرز دائما صورة واحد منهم على وجه التحديد ، هو رمز لهم جميعاً ، و هو أقربهم الى قلبي ، لأنه أكثرهم وعداً ، و أكثرهم حلماً بالمستقبل، و أكثرهم عشقاً للشعر . أسمه علي (و لا داعي لذكر بقية اسمه) في العشرينات من عمره . يتوقد حماسة لوطنه الكويت . ما أكثر ما كان ياتي إلي ساخطاً ، شاكياً ، حالماً بأن يكون وطنه واحة حقيقية للديمقراطية ، واجهة فعلية للتقدم ، منارة للتسامح العقائدي و الحرية الفكرية . و كنت أقول له : يا بني إن أحلامك و أحلام أقرانك هي زبدة المستقبل الواعد فاصبر على ما تعاني ، و حارب من أجل ما تؤمن .

آخر أخباره تلقيتها من أدونيس الشاعر . زار أدونيس الكويت في العام الماضي . فاجاه علي بالزيارة . قال له : لقد علمنا جابر شعرك ، و جعلنا ندرسه لأول مرة في جامعة الكويت . أصبحنا مثلك نقول : بدأوا من هناك إبتدئ من هنا . أضاف شعرك إلى معنى التمرد في داخلنا ، و جعلنا ندرك معنى أن يكون الشعر صنعة للخلق و التهديم ، وعداً بلغة جديدة ، و تقاليد جديدة ، و مستقبل جديد. أحاط علي و أقرانه أدونيس بحب الطلاب البسطاء ، و أغرقوه بأسئلة من يريد أن يعرف كل شيئ مرة واحدة . هكذا حدثني أدونيس . و كم شعرت بالفرح و الفخر ، فرحة الأب و فخر الاستاذ .

ترى ماذا يفعل علي الآن ؟ أنا واثق أنه ضمن المقاومة . إنه لم يغادر الكويت . و لكن هل تراه لا يزال بخير ؟ هل مازال ينشر أبيات صلاح عبدالصبور التي كنت أعلمها لهم ، حين كنت أقول لهم إن الطلاب كتيبة المستقبل التي تتقدم في أفق الليل المربدّ :

هاديها نجمان مضيئان بعيدان
الحرية و العدل
ينصب شعاعهما في أعيننا ، فيثير جنوناً كجنون العشاق
يتحول ما يتكسر من نورهما موجاً تنحدر عليه الأشواق
نحو المستقبل
المستقبل
الزمن الآتي بالنجمين الوضائين على كفيه
الحرية والعدل
الزمن الكاسر للذلة و الظلم كما تنكسر زجاجة سم
تتفرق شظيات لا يلتم لها شمل
الزمن المطلق للأنسام لتحمل حبات الخصب السحرية

و تفرقها في أرحام حدائقنا الجرداء المختومة بالعقم.

و كان علي أكثر طلابي أسئلة عن معنى الحرية و العدل ، و عن الزمن القادم الكاسر للذلة و الظلم ، المطلق لقدرات الأفق لكي تتألق كالوشم الناري على ساعد هذا الوطن الممتد من المحيط الى الخليج . كان علي كثير السؤال . يريد أن يعرف . و يريد أن يترجم المعرفة الى فعل . و كان مشاكساً لكل الأساتذة . معادياً لمن يرى فيهم مختلفة بين القول و الفعل . و بقدر ما كان يريد أن يحقق وجوده فانه كان يتعلم أن حرية المواطن هي الشرط الأول لحرية الوطن ، و أن العدل أساس الملك ، و أن الكلمة مسؤولية ، و العلم التزام ، و الجامعة منارة للتقدم .

ماذا يفعل علي الآن ؟

أذكر أنه كان حلقة الوصل بيني و العزيز أحمد مشاري العدواني ، هذا الشاعر الأصيل ، و الانسان النادر ، و المتمرد الفريد . كان علي يحب شعر العدواني و كنت أشاركه إعجابه . و قد علمته كيف يترجم هذا الاعجاب الى درس نقدي . و كم كان يغلبه الحماس عندما ينشدني من قصائد العدواني في ديوانه (أجنحة العاصفة) . و بقدر ما كان العدواني يرى في الشعر طاقة خلاقة ، تسهم في صنع أحلام المستقبل ، و تأسيس معنى الحرية و العدل ، كان علي يختزن هذه الطاقة و يترجمها حماساً و التزاماً ، خاصة بعد أن تعلم من شعر العدواني أن :

أول خطوة الى مراجل
الألم
أنك تحيا
و تعشق الأحلام و الرؤيا
و تكتب التاريخ للقمم

أين العدواني الآن ؟

لقد مات قبل الغزو . لم أعرف خبر موته إلا من نورية الرومي التي كانت تعرف حبي له . و ما كدت أحاول أن أرثيه حتى حدثت الواقعة ، و هبت عاصفة أخرى غير تلك التي كان يحلم بها العدواني على الكويت . و من يدري لعله آثر أن يرتحل قبل أن يرى وطنه منتهكاً من الأصدقاء الأعزاء . و تذكرته وهو يحدثني عن أحلامه الثقافية التي لم تفارق أحلامه القومية . و سيظل الجميع يذكرون جهده في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، و ثماره التي تركها في عالم الفكر و عالم المعرفة و غيرهم. لقد ارتحل العدواني كأنه آثر أن لا يشهد الكارثة . و لكن هل تراه كان يومئ الى هذه الكارثة

عندما قال في قصيدته " الى سيدنا نوح " :

يا نوح أدركنا
من قبل أن يأتمر الطوفان بالسفينة
و تفقد الأرض مظلة الضياء
في عالم ألقى المقاليد الى عساكر الظلام
فشرعت له قوانين الحلال و الحرام
و طمرته في أحافير الزمان .

ترى ماذا يمكن أن يقول العدواني الآن ، بعد أن فقدت أرضه مظلة الضياء ، وألقى الواقع مقاليده الى عساكر الظلام ؟ ترى ماذا يقول الآن ؟ و ماذا يقول علي تلميذي الذي كان يحبه العدواني كأنه ابنه الوحيد ؟ هل يصيب أعصابه الخبل مثل ابن نوح فيكون من المغرقين في الطوفان كما تصفه قصيدة العدواني ؟ أم أن علياً سوف يتقمص صورة إبن نوح في قصيدة أمل دنقل التي علمته إياها . لقد كان علي يحب شعر أمل دنقل مثلما يحب شعر العدواني ، و كنت أفاجئه ، أحياناً ، يردد قول أمل :

يصفعني وجهي المتخفي تحت قناع النفط

فقد كان يعرف أن وراء المظهر الخادع ، البراق ، يكمن جوهر حقيقي ، و أن الكويت ليست نفطاً أو ثروة فحسب بل مشروع مستقبل بالنسبه لمثقفيه الشرفاء . كانت الكويت عند علي ، و لا زالت ، المثقفين و المفكرين ، المبدعين و الشعراء ، صناع الثقافة الذين يبنون من أحلامهم مستقبل الأمة . و كانت تعجب علي قصيدة أمل دنقل " مقابلة خاصة مع إبن نوح " . و كنت ألفت انتباهه الى التقابل بين ابن نوح الذي يتحدث عنه العدواني في قصيدته و ابن نوح الذي يتحدث عنه أمل دنقل . كان ابن نوح في قصيدة العدواني يبرز من خلال هذا المقطع :

يا نوح أدركنا
من قبل أن نغادر الحياة غرقى
مثل ابنك المسكين
أفزعه الطوفان فاستولى على أعصابه الخبل
فكان بين المغرقين

و كان ابن نوح – في هذا المقطع – مرتعباً ، مذعوراً . و لكن سميه في قصيدة أمل دنقل كان مقاتلاً شرساً . لقد آثر أن لا يهجر الوطن ، أن يبقى مع شباب المدينة

الذين يلجمون جواد المياه الجموح ، و يستبقون الزمن ، و يبتنون سدود الحجارة ، لعلهم ينقذون مهاد الصبا ، ينقذون الوطن . رفض ابن نوح - في قصيدة أمل دنقل - أن يفارق وطنه ، و صاح - في وجه كل من طالبه بالرحيل عن هذا الوطن - قائلاً :

طوبى لمن طعموا خبزه في الزمان الحسن
و أداروا له الظهر يوم المحن
و لنا المجد - نحن الذين وقفنا
و قد طمس الله أسماءنا
نتحدى الدمار
و نأوي الى جبلٍ لا يموت
يسمونه الشعب
نأبى الفرار
و نأبى النزوح .

و هذا ما فعله علي . يأبى الفرار و يأبى النزوح . و يأوي الى روح الشعب و أحلام أقرانه . و هو يعلم أن حلمه لا يختلف عن حلم أقرانه في العراق و الكويت على السواء . فكل أمثال علي لا يديرون الظهر لأحلام الأمة ، و ينطوون على مقاومة الطغيان، ويعرفون معنى الوطن ، و معنى استقلال الارادة .

أنا أعرف - يا علي - أنك باق في الكويت . تدافع عنه . لأنه ملك لك و لكل شباب المدينة الذين يبتنون سدود الحجارة لينقذوا مهاد الصبا . و أعرف - يا علي - أن قلبك الذي يتفجر بين جنبيك سيظل قلقاً ، متمرداً ، مقاتلاً ، بعد أن قال (لا) لأعداء حلمه ، وقال (نعم) لكل من يحبون الوطن . و ثق أن وطنك سوف ينهض من الطوفان ، أبهى ، وأكمل ، بعد أن يدافع عنه أمثالك وحدك الذين يقولون (لا) لكل ما يناقض الحلم القومي بمعناه الذي ينطوي على نجمتي الحرية و العدل .

الأسـئـلـة

فوزية أبوخالد

[أ]

باستثناء بعض الكتابات العربية القليلة ، التي قد لا تعد على أصابع اليدين ، لا يستطيع المواطن العربي أن يجد كتابة تقاسمه جنون الأسئلة، أو تعترف بمشروعية التساؤل أو تقبل باثارة الأسئلة حول حقيقة ما يجري أمامه منذ صباح الخميس ٢ - ٨ - ٩٠ . معظم الكتابات لا تشير بالتصريح و لا بالتلميح الى الصدمة العصبية أمام انهيار المسلمات . معظم الكتابات تزعم أنه تسترعب المصاب (الجلل) و أن القصور هو قصور اللغة التى لا تستوعب التعبير عما حدث .

معظم الكتابات لا تعترف و لا تسأل عن سبب قصور وعينا في استيعاب ما حدث ، قصور قوانا في مواجهة ما حدث ، كساح واقعنا الذي أنتج الحدث . معظم الكتابات تعرف أو تدعي المعرفة ، تفتح جعبتها و تخرج السوءات التي كان مسكوت عنها . يرتفع مد الحبر (المستورد) عاليا صاخبا ، و المواطن العربي عليه أن يقف وحده لا يسأل و لا يُسأل ، يتحرق منفردا ، مصلوبا كمؤشر الراديو الذي يحمله بيده ، يلاحقه التشويش على المحطات الاذاعية المختلفة ، و عليه أن يدفع من جيبه أو من جرحه ، الفارق في الارتفاع المفاجئ في ثمن هذا الجهاز .. الذي يكاد يكون البوصلة الوحيدة في العاصفة الغامضة .

أظن ، و الله أعلم ، أن المواطن العربي يقلب المجلات و الصحف و الاصدارات المتلاحقة السريعة و يكاد يذهب بما بقي من عقله ، من جنون الصدمة و وسواس الأسئلة ، استعراضية جوقة الكتابات و تلون فرسانها أو كمبارسها و مقدرة بعضهم الفذة على تحويل الخطب - بفتح الخاء - و المصاب الى خطبة عصماء يحفظونها عن ظهر قلب . جوقة هذه الكتابات ، لا تشمل بالضرورة كتابات من رأى في ما حدث (مولد) و لا يريد أن يخرج منه دون أن (يهبش) قليلا أو كثيرا من الحمص ، و هي لا تشمل كتابات من

يمتلكون المؤهلات لتحويل الموقف الى سلعة و الكلمة الى مطاط ، فأولئك شأن آخر ، وكما أن هناك ما يعرف بأثرياء و تجار الحرب فهناك أدباء و كتاب و مرتزقة الحرب . إنما المقصود هنا هي الكتابات التي شكلت جوقة خطابية للحدث ليس بهدف التكسب ، لكنها أتت على هذه الصورة بحكم الموروث القبلي و المسبق في الفكر الذي يكابر في تقبل المراجعة و النقض و اعادة النظر ، و يعتبر الأسئلة ظاهرة صبيانية لا تليق بخطاب الكبار ، حى لو كان هذا الخطاب يواجه مصيرا و مستقبلا و ليس مجرد محصل سياسي بسيط في حسبة الحاضر .

لقد بدأنا نقرأ و نسمع عن عناوين و طروحات لما بعد أزمة الخليج ، و اذا كانت الدراسات المستقبلية أمرا مشروعا و مطلوبا ، و اسلوبا علميا يطمح الى امتلاك مهجه و أدواته ، فان من الأولويات في هذه اللحظة الحاسمة أن نعرف حقيقة أزمة الخليج – كما سميت – ولا نرضى في طرحها بأقل من الأسئلة .

[٣]

إن من واجب كل كاتب وطني صادق ، و كل مواطن عربي شريف أن يدين الغزو والاحتلال العراقي للكويت . و يدين ما صاحبه و ما نتج عنه من مآسي وطنية وانسانية و من سلوكيات همجية في حق الشعب العربي الكويتي أولا ، و في حق الجاليات العربية و الأجنبية ، و خاصة الفئات العمالية من دول العالم الثالث ، و في حق مستقبل الوطن العربي كله .

غير أن من حق كل كاتب و مواطن أن يسأل عن جذور ما حدث ، دوافعه الحقيقية والمناخ الذي فرخ بيضة الثعبان . كما أن من الحق أن نتصارح بأبعاد ما حدث و ما سيحدث ، و نفكر بصوت مسموع مشترك في كيفية المواجهة القصيرة و المتوسطة والبعيدة .

إن ٢ اغسطس ٩٠ ، ليس تاريخاً ككل التواريخ ، و لا يمكن أن نعالج تشوهاته العميقة بالنسيان و عمليات الدمل أو بعفي الله عما سلف أو بالمسلمات التي كانت قبله . انه تاريخ يترتب عليه اليوم أن نكون أمة عربية بالمعنى البشري و الجغرافي والحضاري لهذه الكلمة أو لا نكون ، و لذلك يجب أن لا نجد غضاضة أن نعطي أنفسنا فرصة الأسئلة و الأسئلة الصعبة . مثلا ، ما الذي جرّ النظام العراقي على القيام بهذه الفعلة النكراء في حق ماضي و حاضر و مستقبل الوطن العربي . و هي فعلة نكراء بكل المقاييس التقليدية و العصرية . و خاصة مقياس النضال العربي منذ مطلع القرن الذي قام على مبدأ مقاومة الاحتلال و حق السيادة و الاستقلال الوطني و تقرير المصير . ماالذي زين للنظام العراقي أن يتزيا بالوحدة العربية و ما فعله بالحديد و النار والغدر يناقض التطلع و الحلم العربي في الوحدة العربية و الاحترام المتبادل و التفاعل

المتكافئ . هل هي فعلا المديونية العراقية للكويت و الأراضي المتنازع عليها .. هل هو الزعم بالحق التاريخي . هل هي الاستجابة لنجدة حركة انقلابية داخلية وهمية ؟ أم أن كل هذه مجرد ذرائع مكشوفة ساذجة ؟ هل يكفي أن نكتفي باعتبار الحدث مجرد سلوك هتلري تجسد في شخص صدام و نكيل له النعوت الانشائية أو الصور الكاريكتورية المدرسية ؟ أم أن انبعاث هتلر في صدام يبعث الأسئلة في نوع المناخ القطري والاقليمي العربي الذي يمكن أن يجدد الهتلرية في نهاية القرن العشرين ، و في لحظة انهيار الطغاة في الطرف الآخر من العالم . ؟

إن سرد السيرة الشخصية لصدام و تعداد سلوكه الاجرامي ، كما فعلت بعض الصحف، و كما تلقفها بعض الكتاب كمادة اجترار أو (فش الخلق) و محاولة اشفاء الغليل ، قد لا يعني أكثر من الاثارة الصحافية و التنفيس بالسباب اذا هي عزلت عن الظرف التاريخي و الاجتماعي الذي أتاح و يتيح لهذه الشخصية المريضة و لأمثالها فرصة الظهور و التأثير و التحكم في رقاب عباد و بلاد دون حسيب أو رقيب على مرأى ومسمع من الجميع ، أو في غفلة العيون و غيبة الضمائر .

[٣]

إن الاحتلال العراقي للكويت و ما نتج عنه ، و كل ما ترتب عليه و ما سيترتب عليه في المدين المرئي و البعيد ، يعتبر أكبر و أقسى ضربة وجهت للوطن العربي من الداخل في التاريخ الحديث منذ مطلعه في القرن التاسع عشر حتى تواريخه الجارحة الساخنة القريبة . إن هذه الضربة ، بما لها و ما عليها ، تفوق نكسة ٦٧ و معاهدة الصلح المنفرد في السبعينات و الاجتياح الاسرائيلي للبنان ٨٢ و ما بينهم و ما لحقهم من تراكمات الانسحاق و الملاحقة و المذابح الجماعية التي تعرض لها الوطن العربي .

و هذا ليس لأن تلك الضربات لم تكن قاسية و وحشية و بشعة الى أقصى درجات البشاعة على الوطن العربي كله ، و على المتضررين مباشرة بوجه خاص ، ولكن لأن تلك الضربات الوحشية كانت تأتي في سياق صراع حتمي في حركة التاريخ الاجتماعي و السياسي للمنطقة العربية نحو مستقبل مستقل عادل و حر . و لقد كان المواطن العربي يخرج من تلك الضربات مثخناً بالجراح و الفجيعة ، لكنه أكثر إيمانا واصراراً على حقه التاريخي و المستقبلي في الحياة الحرة الكريمة ، و أكثر وضوحا في تمييز معسكر الأعداء من معسكر الأصدقاء و ما يقع بينهما .. و أكثر تبلورا كطرف عنيد ومحق في صراع محدد لاتحكمه موازين القوى وحدها ، و انما تحكمه عدالة القضية وشرعية النضال و نبل الهدف ، مهما تعرض في سبيله من ضربات ، قد تأخذ شكل المرحلة ، و لكنها ليست نهاية المطاف أو الجولة الأخيرة . أما هذه الضربة فهي ، عدا عن

أنها تتزامن مع ظروف دولية جديدة كل الجدة عما كان عليه الأمر حتى ما بعد منتصف الثمانينات ، فانها تأتي نشازاً في زمن جديد يوسع المد لمطلب الديمقراطية و مشاركة الشعوب ، ويحايد الاصطدامات العسكرية في مابين قواه العظمى ، و يعيد تشكيل الحدود بالتكتل و يراجع الحسابات في ضوء تبادل المصالح ، فهي – الى ذلك كله – ضربة تأتي لتجهض عقودا من النضال العربي ، و تعيد الوطن العربي الى زمن ماقبل مرحلة التحرر الوطني. إن هذه الضربة لا تقضي فقط على أحلام أجيال و أجيال ، و لكنها، أيضا ، تشطر الأرضية التي ولدت هذه الأحلام في رحمها .

إن خطورة هذه الضربة ليست فقط في نتيجتها الجنونية المباشرة في تشريد شعب كامل و الاعتداء على سيادة وطن و مصادرة منفذ آخر من مصادر الهواء القليل لرئة الثقافة العربية ، و ليست فقط في الاحتمالات الجنونية التي فتحتها هذه الضربة لتغيير جغرافيا المنطقة العربية كلها ، و لكن أيضا في ما يترتب على ذلك من اعتداء على تاريخ و حاضر و مستقبل الوطن العربي كله لأجيال ستأتي .. خاصة اذا لم يتم التراجع عنها سلميا .

إن هذه الضربة ليست كضربات سابقة تأتي بيد أجنبية ، فتقوي من شوكة المنطقة في وجه المعتدي الغريب ، و لكنها تأتي من نظام عربي فتقلب الطاولة و تخلط الأوراق و تتبادل الأقنعة حتى لا يعود واضحاً العدو من الصديق أو المغرم من الغريم . وهي بذلك تعتدي على أساسيات المشترك العربي تاريخيا و حاضرا و مستقبلاً . إنها تهين المواطن العربي و تسحقه في أشرف ما ذبح من أجله ، و شرد من أجله و استشهد من أجله و ناضل له طيلة قرن كامل بل قرون ، من حرب المليون شهيد في الجزائر مرورا بالعراق وعدن و عمان و ليبيا و مصر و غيرهم الى الانتفاضة الفلسطينية المجيدة . نضال الانسان العربي من أجل التحرر و الاستقلال و نضاله من أجل بناء مجتمع ديمقراطي عادل و نضاله من أجل الوحدة العربية . التحرر و الاستقلال بمفهوم السيادة الوطنية على الأرض و حق تقرير المصير. و الديمقراطية بمفهوم القرارات الحرة التي تستند على المشاركة الشعبية العريضة ، و الوحدة بمفهوم التكافؤ و التكامل الطبيعيين في اطار الارث الحضاري الواحد و المشترك المستقبلي .

و في ضوء ما تقدم يكون السؤال : هل ما نراه من انقسام عبر الاذاعات والوكالات و التصريحات في الموقف العربي من (أزمة الخليج) يعبر عن موقف المواطن العربي ، أم أنه انقسام تمليه الفردية الأحادية التي لا تريد من المغامرة إلا الغنيمة .؟

أشك ، مهما بلغت مبالغة المشككين في الوعي السياسي العام لدي المواطن العربي ، أن من الممكن أن تزين للمواطن العربي فجيعته في كبده المعاشي اليومي و في نضاله الوطني التاريخي من جراء الاحتلال العراقي للكويت . هل – حقا – يجهل المواطن العربي بحسه العفوي المعاشي أن مقولة صدام عن الكفاية و العدل في توزيع الثروة البترولية لا تعني في اطار النظام العراقي أكثر من حصة أكبر لزيادة تعميم القمع

وتحديث أجهزته . هل حقا أن المواطن العربي الذي جرب شعبه لعنة الاحتلال و ناضل في وجهه و فيه من لا تزال تجربته تقطر دماً و حجارة كالشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة لا يعرف بالوجدان و التجربة ، إن لم يكن بالوعي السياسي ، معنى الاحتلال العسكري للكويت ، ومعنى صور المهجرين المفزعة على شاشات التلفزيون في الرويشد . هل يستطيع المواطن العربي أن يأمن لحلم الوحدة على يد مثل هذا النظام العسكري الفاشي وهو يرى الحلم يتحول الى كابوس ينفذ بالحديد و النار و المجنزرات على أرض الكويت . صحيح أن المواطن العربي لا يسأل ، و قد لا يجرؤ أن يجاهر بالأسئلة أو بالفجيعة والتمزق ، و لكن في ظني أن مفهوم الرعية و الرعاع لم يعد مفهوما دقيقا لتوصيف الشعوب على أبواب القرن الواحد و العشرين ، حتى و إن سكتت هذه الشعوب بقوة الحديد و النار ، أو تحت طائلة التهديد بالاسلحة الكيماوية وغيرها .

[٤]

إن المسألة في وجود القوات الأجنبية ليست مسألة من مع وجودها أو من ضده ، فهذه المسألة لا تحسمها المواقف النظرية وحدها و الأماني المتأخرة ، كما أنها مسألة لا تتصدى لها شعارات الدنيا كلها لو اجتمعت أو الحماس الخطابي أو تسيس الخطاب الديني . إن السؤال هو هل الوقوف مع النظام الصدامي العسكري في تخبطه السياسي و العسكري ومهادنته في احتلال الكويت يشكل موقفا ضدياً حقيقيا ضد وجود القوات الأجنبية في المنطقة . هل إمرة صدام لأقوى جيش عربي في المنطقة تسمح لهذا الجيش بأي فعالية مستقلة . هذا الجيش الذي ألغى صدام حرب سنوات الثمانية بشهدائها و جراحها وخسائرها الفادحة في أول مفرق على طريق التهلكة الذي اختاره .

علينا أن نعي أن الشارع العربي المهمش ، الذي نحاول أن نشطره بمزاد الشعارات ، هو وحده الكفيل بتبديد صقيع الفجيعة و الوحشة في هذه اللحظة . وبلحمته وحدها يمكن أن نخلق جسرا بشرياً يصد أي غارة غاشمة أي كانت هويتها أومسوحها . و اذا لم نتعلم الدرس حتى من هذه الضربة و نغير ما بأنفسنا قيادةوشعبا فانها ستكون الضربة القاضية التي لن تبقي منا حياً ليترحم علينا .

في رأيي الاجتهادي أنه في ضوء الأسئلة و الأسئلة الصعبة المدروسة وحدها لتعرية جذور الأزمة .. ما الذي غذاها و من الذي دفع بها الى السطح ، ما هي القوى التي أشعلتها ، و ما هي القوى التي لن يطالها منها إلا الحريق ، خاصة في ما لو استعرت نارها .. الخ ؟ يمكننا أن نتوصل الى منطق عقلاني يناسب حجم المسؤولية التاريخية و المستقبلية التي تواجهنا في هذه اللحظة ، منطق نعيد في ضوئه ترتيب أولياتنا في مواجهة الأزمة . مواجهتها بيد واحدة و صوت مشترك . ×

كلمة عند المنزلة بين المنزلتين

د. سليمان العطار

لكنت أتمنى ألا أكتب هذه الكلمات و أن الذي حدث في الثاني من أغسطس على خشبة المسرح العربي ألا يكون قد حدث ، و لكن لا بأس فجراح هذه الأمة أعظم من أن نستسلم له و أمراضها أفدح من أن نجلس و نبكي مقدما احتضارها اللائح في الأفق . لابد أن نواجه تلك الجراح و هذه الأمراض لأنها جراح كل واحد منا ، و أمراض كل ذي أنف فوق هذه الأرض ما زال يتنفس في بسالة هواءها المثخن بالتلوث و الفساد . و لعل الكلمة أنجع وسائل المواجهة سواء أكانت نابعة من اعتصار عواطف مبدع أو من معاناة أزمة تجريد مفكر لعقله من كل عاطفة ، أو من حيرة الرجال الذين وقعوا في حبائل المنزلة بين المنزلتين ، أؤلئك الرجال الذين انتمي اليهم و قد شطرتني الأحداث في مقتل محور أرجوحة العاطفة و العقل . و من ثم ، فليستقبل القارئ كلمتي هذه مختاراً أي طرف من الأرجوحة شاء .

و كلمتي سؤال ملتاع : لماذا دون خلق الله – المتحضرين (و ظنننتنا كثيراً أننا ننتمي إلى درجة عليا من التحضر) تتحول حياتنا الى سلسلة من الآمال المقطوعة باحباطات : آمال كبرى ، و احباطات أكبر ؟ كابوس يمتد بامتداد ليل طويل ليس له آخر ! منذ أوائل هذا القرن بدأت حركة التحرر الوطني و وصلت إلى ذروتها في الستينات ، و لكن صاحبها أيضاً ، و هي توشك أن تحقق أهدافها ، مجموعة من الكوارث لا حصر لها كان ذروتها زراعة دولة غريبة استيطانية ذات كيان استعماري في المركز من الوطن العربي ، فانشطر نصفين تفصلهما جغرافيا و استراتيجيا اسرائيل ، هذا الكائن المزروع بنجاح في قلب تلك الأمة ، و كان مؤشر هذا النجاح نكسة حزيران ٦٧ و كانت هذه النكسة قاطعة لآمال أيقظها عبدالناصر قطع السكين لرقبة كبش ١٩٤٨ من جزء رقبة آمال التحرر الوطني و كفاح امتداد على مدى هذا القرن حتى منتصفه أو يزيد .

و في عام ١٩٧٣ نبتت آمال مقبورة في امبراطورية مقابر نكسة حزيران ١٩٦٧

لقطعتها دون رحمة قطيعة العرب لمصر ، و تركها وحيدة تفاوض اسرائيل من مركز ضعف ، مسح بريق نصر اكتوبر ١٩٧٣ ، و كانت كامب ديفيد و الحرب الأهلية في لبنان والسودان ، و تقبر من جديد الآمال ، و يتوزع رفاتها في أنحاء تجاوزت لبنان والسودان إلى بقاع كثيرة .

و في السنوات الثلاث الماضية ، أو منذ أكثر من ذلك بقليل لاح في الأفق أملين كبيرين ، أحدهما كان في الفاو - و كان نجاحاً عربياً قومياً بسبب اشتراك مصر والخليج في صنعه - و هو نجاح تقني أكثر منه (استراتيجي) فهو قد حسم حرباً بلهاء والثاني الآخر في القدس حيث هبت الانتفاضة ، و سريعاً ينطفئ الأملان في ٢أغسطس هذا العام ١٩٩٠ .

و اذا قمنا بعملية احصائية لعمر الآمال المغتبطة في شبابها بكوارث ، نجد أن عمرها يتناقص كارثة بعد كارثة . فآمال التحرير الوطني دامت نصف قرن ، وعبدالناصر الأمل سقط بعد خمسة عشر عاماً ، و نصر اكتوبر سقط بعد ست سنوات ، وبريق الفاو و نشوة الانتفاضة تلاشيا بعد ثلاث سنوات ،و هكذا ارتفعت سرعة عجلة السقوط من ٣٣٪ إلى ٥٠ ٪ ، و هذا له معنى خطير للغاية ، حيث لنا أن نتوقع آمالاً قصيرة العمر جداً و كوارث سريعة التلاحق .

إما إذا قمنا بقياس كيفي لقيمة الكوارث ، نجد أن الكوارث السابقة كانت (و لو من جهة بنيتها الظاهرية) ، كوارث (عربية - أجنبية) و كارثة اليوم (عربية - عربية) ، و قد تجاوز حجمها حجم ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ ، و كارثتي لبنان و السودان المصاحبتين لظاهرة كامب ديفيد ، كما تجاوز وزنها تجاوزاً فلكياً كل ما سبقها من كوارث في العصر الحديث . و لا شك أن كامب ديفيد قد تجاوز ١٩٦٧ ، كما زادت هذه في الحجم عن كارثة ١٩٤٨ ، و معنى ذلك أن سرعة عجلة الكوارث تتزايد و وزن هذه الكوارث يعلو فوق أكتافنا - مطرداً - علواً كبيراً .

و الكارثة الأخيرة - بتجاوزها هذا في الوزن لكل ما سبقها - تملأ النفس بالخوف الأقصى لما بلغ هذا التجاوز من تفوق غير مسبوق لدرجة تعلو على المعقول للاعتبارات الآتية :

١ - أن الصراع العربي - الأجنبي صار صراعاً (عربياً - عربياً) ذا صبغة عالمية غير مشكوك فيها ، فقد أثبت عدم مسؤولية العرب ، و تهديدهم الصارخ لمصالح العالم ، مما يدفع هذا الأخير للتدخل لحماية المصالح العالمية من طيشنا و حماقتنا ، و تكاد تفلت كل أمور حياتنا من أيدينا إلى أيدٍ أجنبية ، أكاد أظن ، في عتمة ما يحدث ، أنها أمينة على هذه الأمور أكثر منا . و يا لهول هذا الظن لو صدق ، و أكاد أرى أية صدقه .

٢ - أن ما حدث صرف أنظار العالم بل - و هذا تراجيدي أبعد من رؤية شكسبير التراجيدية - أنظارنا نحن عما تصنعه اسرائيل ، و هكذا نقيم خيمة أمن فوق اسرائيل لتصنع ما تشاء ، و أكاد أرى تحت هذه الخيمة هيكل سليمان مكان الأقصى و خريطة

جديدة لبلادنا .

٣ - أن ادعاء العراق حقوقاً تاريخية في الكويت يعني تكريس القطرية ، فهذا الادعاء فصل العراق تماماً عن الانتماء العربي و جعله قومية مستقلة ، و وطناً راسخ التميز و الانفصال ، و له حقوق تاريخية مسلوبة على طول حدوده ، و يكذب المفهوم المضلل لحربه مع ايران على أنها قادسية جديدة و دفاع عن البوابة الشرقية للعرب ، فلم تكن من ثم سوى مظهر من مظاهر ايقاظ قومية عراقية غير عربية ، و قطرية مشؤومة تولد تحت قعقعة السلاح ، لتتحول البوابة الشرقية لما تبقى من العرب عند حدود الكويت مع العراق . و هذا الادعاء الأخرق أيقظ لدى بعض الحكام العرب غريزة الاندفاع وراء العراق ، و ادعاء حقوق تاريخية داخل بلاد عربية أخري ، فاندفعوا ينفخون بوق القطرية و القوميات الشعوبية .

٤ - أن النافخون في هذا البوق نجحوا في أكبر عملية تضليل اعلامية وشعائرية في دفع بؤر التطرف و سوق الجماهير ، فتحول غزو الكويت الطائش الى بذرة شيطانية - و هذا تعبير زراعي - سريعة الانتشار لبث الكراهية بين الشعوب العربية ، و هذا أمر فظيع لا يزول إلا بعد أجيال ، فكأن هذا الحدث الشنيع قد حملنا إلى آخر العصر العباسي ، حيث كنا جثثاً تنتظر أقدام المغول و التتار .

٥ - أن الكارثة ستكلف العرب في شهور قليلة مواردهم لسنين طويلة مقبلة .

٦ - أن الكارثة أيقظت الأمل في حلها عربياً ، و سقط الأمل مقطوع الرقبة بعد أيام ، ثم أيقظت الأمل بحلها سلمياً تحت مظلة دولية ، و انهار الأمل ، أو يكاد ، بعد شهور ثلاثة . أملان كبيران يسقطان في أسرع من البرق ، و هاتان كارثتان من جديد ، تولدان كارثة الحرب ، و هذه تولد أملاً بائساً في أن التكنلوجياقد تنهيها في دقائق ، وسيسقط هذا الأمل بمجرد اطلاق الرصاصة الأولى ، فالحرب لا يضمن أحد مسارها ، وفي كل الأحوال خسارتنا فيها ستكون مرعبة ، و هكذا ترى أن عمر آمالنا يزداد قصراً ، وعجلة السقوط و الكوارث تزداد سرعة مع ازدياد ثقل تلك الكوارث و سرعة تقلب معدنها ، واستحالته الى كثافات نوعية تتجاوز كثافة الرصاص المشع و الماس للاشعاع .

و أعود الى طرح السؤال من جديد ، ذلك السؤال الملتاع :

لماذا دون كل خلق الله تموت آمالنا الكبرى باحباطات أكبر ؟

هل لديكم اجابة ؟ لا أظن أنني أيضاً أملك الاجابة ، و لكنني أكاد أراها انحبست داخل العقل العربي الذي تحجر و تكلس و أوشك أن يتوقف عن العمل و الحساب ، فعجز عن أن يبدع ، فضلاً عن أن يستوعب العصر و ما يدور حوله ، بل أن هذا العقل عاجز عن أن يستوعب ما يصنع من سلوك آلي . و عندما يتحجر عقل الشعوب و يقف عن العمل ، يساق كالأغنام وراء راعٍ يدرك أن مصير كل قطيع الذبح ، فيقوده الى أقرب مذبح .

هكذا قاد أحدهم يوم الثاني من أغسطس شعب العراق الى مذبحة في الكويت وقطع العراق من جسم الأمة العربية ، و حرض بعض أمثاله على نفس الصنيع ، فوقفوا وراءه ، و هو يملي على العراقيين المذبوحين على يديه ذبح شعب عربي آخر .

فهل نفهم ما حدث ، و نسرع بمعول الى هذا العقل نزيل منه التحجر حتى لا تتكرر الظاهرة ، و هي تكاد ، فكل حكم عربي وقف مع العراق لديه حلم الاستيلاء على أرض غيره من العرب ، و لا أبرئه من التآمر مع العراق ؟

و هل نفهم ما حدث - و هو يزلزل العقول - فنسرع إلى دراسة واقعنا و اختراق الحوصلة التي تشرنق فيها العقل العربي لكي يعود للعمل ، فيفهم أن البطولة الفردية في هذا العصر دمار ما بعدها دمار ، و أنها سلوك اجرامي و ليس بطولياً ؟

و هل يحسب الحكم العراقي دقيقة واحدة معنى سلوكه في الكويت ، فيدرك أنه يمزق هويته العربية كما أنه يمزق بطاقتنا لدخول القرن الواحد و العشرين ، الذي لن يسمح لأحد بدخوله و هو لا يحمل رأسه فوق كتفيه ؟

و أخيراً ، هل يدرك العرب جميعاً ، أن كل فرد منهم ساهم بنصيب في صنع كل كوارثنا ، و أنها ليست من صنع القضاء و القدر ؟ إننا ننهمك في اخلاص شديد يتسم بقصر النظر في صنع تلك الكوارث ، حتى امتلكنا الخبرة و الدربة في ذلك فازدادت سرعة أيدي الصنّاع و ازدادت جودة انتاجها الكوارثي ، فهل نوقف تلك الآلية بأن يسأل كل واحد منا كيف أسهم فيما يحدث من شرٍ مستطير ليوقظ وعيه بما يفعل ، حتى نتوقف عن هذا العبث ، و ننقذ أرضنا من النباتات الطفيلية البرية (الشيطانية) التي تهلك ما نزرع من محاصيل نقتات منها ، و تجتاح آمالنا كما اجتاح أحدهم الكويت ، وأهلك على أرضه محصولاً رائعاً من التمدن و الثقافة و البناء الحضاري ، كما أهلك في نفس كل عربي شيئاً نبيلاً ، و أنبت في نفس كل اسرائيلي نزعة شريرة و ايماناً يزداد باسطورة اسرائيل الكبرى ، فهاهو عربي يتحدث عن حقوق تاريخية ، فلم لا يتحدثون عن حقوق توراتية فسرتها أحلام الاستيطان التلمودية .؟

إني أسأل الغزاة : كيف نواجه العالم بصنيعكم ؟ هل نتبرأ منكم ، كما فعلتم ، أم نكتفي بالشعور بالعار باعلان انتمائكم لنا ؟ هل نعود للقانون الجاهلي فنخلعكم صعاليك للعرب عند أعتاب القرن الواحد و العشرين ، أم نتحمل وزركم أمام العالمين ؟ ها نحن في منزلة بين المنزلتين ، نجتر عجزنا أمام قبح فعلتكم ، و نسأل السؤال الملتاع : لماذا نحن دون العالمين ؟

لا زلت بين المنزلتين ، أضرب في تكلس العقل بمعول الفهم ، و أجرجر جروحي وأتطلع عم يتساءلون عن النبأ العظيم في بغداد ، ذلك النبأ الذي يعيد لكم الهوية ، ويعيد لنا بطاقة القرن الواحد و العشرين : عقولنا !. ×

مــدار الفاجعــة

عبدالقادر عقيل

إن زمــن المـفـاجـأة ، و زمــن الـثـورات الـتـي تـنـفـذهـا أقـلـيـات واعـيـة على رأس الجماهير غير الواعية ، قد مضى و انقضى . فـعـنـدمـا تكون القضية تحويلاً شاملاً لتنظيم المجتمع فانه لابد من اسهام الجماهير نفسها في ذلك، و يبقى أن تفهم هي نفسها محتوى التغيير و لكي تدرك الجماهير ما الذي ينبغي أن تفعله فلا بد من عمل طويل دائب .

انجـلـز

- ا -

بعد الثاني من أغسطس ، وجدت نفسي مصنفاً في خانة الرجعيين و العملاء ، و المؤيدين للقوى الأطلسية الأمبريالية ، التي جاءت لاستعمار المنطقة من جديد .

هكذا ، لأنني أخترت أن أقف ، دون تردد ، ضد الفاشية ، و ضد الاحتلال . و رفضت ، بكل جوارحي ، أن تستباح الكويت ، و تهان كرامة شعبها ، و تداس حقوقها الانسانية . كنت أسمع من حولي الكثير من اللغط ، و الأباطيل و الأراجيف (بمعزل عن المواقف الرسمية) و كلها صادرة ، بايمان ، من أفواه مثقفين و مفكرين و سياسيين عرب كنا نكن لهم كل الاحترام

أصوات تمجّد الطاغية ، تهلل له ، تبرره ، و تجد للظلم أعذاراً و مسوغات ، و تكافئ العدوان و الاحتلال ، و تجد بأن غزو الكويت (خطوة وحدوية مهمة على طريق الوحدة الشاملة) .
أصوات تعلن ، دون قلق ، أن الطاغية - الذي بدد أموال شعبه في مغامراته الخاسرة - سيوزع ، بالقسطاط ، ثروات عرب الصحراء الجهلة على عرب الماء الفقراء . و ان احتلال الكويت ، و انتهاك سيادتها ، و خراب ممتلكاتها ، و تشريد شعبها ، و تدمير كل أشكال الحياة فيها ، و نزوح آلاف الفقراء والكادحين من أبناء الشعوب الأخرى ، و ضياع قوتهم و مدخراتهم و أحلامهم ، و تكديسهم في الصحراء بامتهان لا يليق بالتمدن والحضارة .
كل هذا (تفصيل يجب عدم الوقوف عنده) و (مسألة غير ذات أهمية) و (مسألة لم تعد تهم إلا المؤرخين) لأن المعركة الحقيقية هي مع الامبريالية و الصليبية و الرجعية .
أصوات تطالب - بصراحة السكين - بتكديس عرب الصحراء ، حفاة الأقدام ، الذين أثْروا بالصدفة ، في دولة واحدة ، و تحت علم واحد ، و بقيادة مستبد واحد .
أصوات تزأر بأن استرجاع الثروة من الذين لا يستحقونها هو الدرب أمام الوحدة العربية الشاملة ، و أنه سيدعم القضية الفلسطينية ، و أن (العراق أحق بثروة الكويت من أجل استخدامها للمعركة القومية) . هكذا أصبح عرب الصحراء ، و ثرواتهم ، العقبة الأساس أمام تحرير فلسطين .

كيف يتجاسر العقل العربي أن يخترع كل هذه الترهات ؟
إي جرأة في أن يتفوه عاقل بهذه الكلمات ؟
أي تصدع أصاب العقل العربي ، و أي اختلال ؟
كيف بوسع المرء أن يخلد للنوم ، و هو يلغي - من عقله و وجدانه - حق شعب مسالم في الحياة ؟

كيف يهنأ بالعيش ، و هو يرى مكابدة أكثر من ١٥٠ ألف كويتي ، و نصف مليون مواطن عربي يفرون بجلودهم من همجية الفاشست ؟
كيف ينهض كل صباح و هو يرى شعباً عربياً آخر مشتتاً في بقاع الدنيا يبحث عن مأوى ؟

ألا يكفينا ما اجترحنا من انهدامات و من انهزامات ؟
كيف أصبح المظلوم يسوّغ الظلم ، و يجمّله ، و يدشنه عصراً للانعتاق و التحرر ؟

- ٢ -

ارتكب الفاشي حماقته المريعة ثم تقمّص دور الحاوي ، و راح يسلي الناس و يلهيهم بألعابه :

- نجدة الثورة المزعومة
- حكومة حرة مؤقتة
- وحدة فورية خارقة
- ضم الفرع الى الأصل
- الجهاد المقدس ..

كان الحاوي يثير الشفقة ، لأن ألاعيبه لم تكن تعجب أحداً ، فكيف صادف أن أعجبتم أنتم بها ؟
لو أنكم اتخذتم غير الدجال نبياً ، و حبيباً ، و منقذا ، و مخلّصاً ، لوجدنا لكم الأعذار .
لو أنكم كنتم في غفلة من أفعاله ، و جرائمه ، مع شعبه ، ومع الشعوب الأخرى ،لقلنا أنكم مخدوعون به.
لكن ، لماذا رضيتم - و أنتم ضمير الأمة - أن تجروا عربة الفاشي ؟ و إلى أين أنتم ماضون ؟

هل هو اليأس الضارب في الأعماق ؟
هل هو الكفر بكل الأحلام ؟
هل هو نكوص و ارتداد ؟

أنتم ، وراء الطاغية . ! لماذا ؟
هل تناسيتم أن للتغير شروطاً معينة ، و أن مسألة التغيير تقررها الجماهير الشعبية التي لها الدور الأكبر في بناء حركة التغيير ؟ هل كفرتم بدور الجماهير ، ذلك الدور الذي أمضيتم السنوات في الكلام عنه ؟ هل تناسيتم سريعاً كيف داس (بطل العرب) على كرامة العراقيين ، و صادر حرياتهم ، و إرادتهم ، و نكّل بالوطنيين والديمقراطيين ، و طمس صوت الحق بالنار و الحديد ؟ هل تنكرون أن هامش الديمقراطية الذي كان متوفراً في الكويت لم يكن يحلم به أي عراقي ؟ هل تغافلتم عن مآسي الدجيل ، و حلبجة ، و هلدن ، و كاني تو ، و سركلو ، و شيخ وسانان ؟ هل نسيتم عذابات مليون منفي عراقي بعيدين عن وطنهم ، يحملون الخوف بداخلهم من سادية الطاغية؟
هل غفرتم له ازهاق أرواح الأبرياء من الأكراد والمصريين و الأيرانيين ؟
هل سامحتموه على أعماله العدوانية ضد الشعبين اللبناني و الفلسطيني

ومساندته لقوى الظلام والانعزال في لبنان ؟ كيف ، إذن ، أصبح الفاشي مؤهلاً لتحقيق الديمقراطية و الوحدة و إحداث ثورة عربية شاملة ؟

هل نسيتم أن الذي يسلب شعبه حق الحياة لن يكون جديراً بالدفاع عن أية قضية قومية أو وطنية ؟

- ٣ -

تسطع في ذاكرتي الآن لقطات من حماسنا المفرط في زمن البراءة ، و نحن نهتف بحياة الجزائر ، و فلسطين ، و وحدة مصر و سوريا . و كيف بُحت حناجرنا ، و التهبت ظهورنا ، و نحن نطالب بوعد الوحدة من البحر الى البحر . لم نكن نطالب بمكافأة من أحد ، فقد كنا أبرياء ، سذج ، نردد بعاطفة جياشة ، ماتعتمل به صدورنا من مشاعر إنتمائية صادقة . مثلما كنا نلصق ، حتى على جدران أحلامنا ، صور عبدالناصر ، ونهتف بحياته ، كلما نطق بحرف .

تذكرت كيف كانت الخيبة المريرة في حزيران ، و كيف خرجنا ، ملتاعين ، نطالب الرئيس بأن لا يتنحى ، و كيف بكينا بمرارة لا تقاس ، على موت الزعيم .

لم نكن نطالب ، مقابل إلتصاقنا الجنيني بفكرة الوحدة العربية ، أن تمسحنا الدبابات من الخريطة ، و أن يلغى تاريخنا ، و أن تُهان كرامتنا ، و أن نوصف بأننا بدو ، غير متحضرين ، و جهلة ، و حفاة الأقدام ، و نوصم باللصوصية ، و بأننا سبب انتكاسات عرب الماء . لم نكن نطالب ، بالمقابل ، حركة توحيدية قسرية تحت سطو مسلح ، و حدة تشردنا ، و تقتلع بيوتنا ، و تزرع الرعب في عيون أطفالنا .

- ٤ -

من قال لكم أننا – عرب الصحراء – متخمون كلنا و مترفون ، من قال أننا لم نذق الفقر والمرض و الجوع ؟ من قال أننا لم نكن أسوأ حالاً منكم ، يا عرب الماء ؟ لقد رزحنا دهراً نتوق لماءٍ بارد في شهور الصيف الطويلة المحرقة ، و وقعنا ضحايا سهلة للطاعون ، والجدري ، و التراخوما ، و شهدنا أهوال البحر ، و أحزان اليابسة .

قدرنا كان أن نولد في صحراء حبلى بالنفط ، و كان علينا أن نمارس الصبر الطويل كي نلحق بالعالم ، و نلبس النعل ، و نشرب الماء البارد ، و ننقش على قلوبنا عاشت الأمة العربية ، و عاش الحلم العربي .

لو أنكم سألتم صحارينا ، و سألتم بحارنا ، لو أنكم قرأتم تاريخ شعبنا الموغل في الأسى و المرض و الجوع و الخوف ، لعرفتم أن الخليج ليس براميل نفط و أننا لسنا همجاً ولعرفتم أن لنا حقاً في أن نكون ، وأن نحدد مصيرنا بأنفسنا ، و أن نختار طريقنا ،

حتى و أن طال بنا الزمان . لقد علمتنا الصحراء ، كيف نصطبر ، و لا ينقطع بنا النفس ..... و لا يلحق بنا اليأس .

- ٥ -

نرى الى الوحدة الخلاقة على أنها تحرر الجماهير العربية أولاً ، و نفهم أنه في غياب الديمقراطية لن تكون هنالك وحدة حقيقية ، و لا نفهم أن تكون الوحدة العربية قهراً ، واحتلالاً ، و تشريداً ، و انتقالاً فجائياً من مرحلة الى أخرى .

- ٦ -

لسنا مع الوجود الأجنبي ، و لسنا مع الحرب ، لأننا نعرف أنه لا عاصم لأحد من النار إذا اشتعلت . لكن يحق لنا أن نسأل ، من تسبب في دعوة هذه الآلات الرهيبة الى صحارينا و بحارنا ؟

من أوجد الأعذار للخراب و الدمار ؟

من سيودي بشعوب المنطقة الى التهلكة ؟

من سوى الطاغية ، و فاشيته و جشعه ، و جنونه ؟

إن فاجعتنا الحقيقية هي في الوقوف المتلون مع المستبد ، و القبول بمحونا من الوجود ، والسكوت على الغاء بلداننا ، و أسماءنا ، و أشكالنا ، و لهجتنا ، و اسلوب حياتنا

- ٧ -

نعرف نهاية الطاغية ، لأننا نعرف مصير الفاشية ، نعرف أن شعب الكويت سيعود الى أرضه ، و سيفصل برأيه في أمور حياته ، و نعرف أن صوت الحق لابد و أن يعلو في العراق ، لاشك في ذلك عندنا و لا ريبة .

لكن ماذا عنكم أنتم ؟

هل ننسى ؟

هل نتصالح ؟

أو نشحذ الرؤوس حتى تنفجر ؟

ماذا سأقول لطفلي اذا سألني في الغد عمّن كان حليفاً ، أو ظلاً ، للطاغية ؟

ماذا ينبغي أن أقول ؟

أنوار الكهف

عبداللطيف اللعبي

سأمسك بيدك و نبارح الكهف . أتخيلك عديمة اللون . لا أعرف إن كنت رجلا أو امرأة . لكن جمرة الاندهاش و الشهوة في عينيك . لم نتكلم منذ اكتشفنا نفسينا جنبا الى جنب في هذه العتمة التي لا تنتسب الى الليل . كانت تلفنا بحجبها الغامضة و الحامية . كنا نجسّ حريرها حتى نغفو . و حينما كنا نستيقظ ، كان فمانا يتحلبان لمجرد لمسها . لقد عشنا هنا حقا طوال ذلك الزمن دونما حاجة سوى حاجتنا لئلا نفقد بعضنا . تلك كانت صلاتنا . طعامنا و شرابنا . قصيدتنا الصامتة .

هل كان ثمة نهر في الجهة الأخرى للجدار ؟ نهر حقيقي ذو منبع و مصب ، وبه قوافل عائمة ، و نداءات من الضفة الى الأخرى ، و ضحكات طفولية ، و صيادون يرومون التأمل أكثر مما يهمهم مغنم غير مضمون . هل كان نهراً أم أنه مجر ى الزمن لا غير ؟ لكن أين كنا في ذلك المكان الذي لم نعد به حالما قررنا مبارحته ؟

سأمسك بيدك . و عندما تتلامس أصابعنا ، ستتطاير شرارات الحجر الى أن تبلغ القبة . و سينبثق من هذا المدى بصيص النور الذي سيهدينا الى المخرج . سيكون ذلك هو سمسمنا . الاشارة المعطاة لكي يتسلك نفاذ صبرنا الزمام . و بعد عهد الهجران نزور نفسينا من جديد . سندفع الصخرة و نكتشف عرينا .

سيكون العالم المشرع أمامنا غريبا و أليفا في آن . سنراه كما لو غادرناه منذ ألفي عام ، منذ قرنين أو ربما منذ يومين .

سيستوقفنا هذا اللغز . سنلتمس الفهم . و سيكون الاقتلاع الذي حمينا نفسينا منه . لأننا لم نرد النمو بعيدا عن عمرنا . لأننا لم نرد ان نتخلي عما ينبغي تسميته " براءتنا ".

ينبدأ من النهاية .

و ماذا لو تعلق الأمر بيومين فقط ؟ السؤال لاذع . أية محنة لقلبينا المصابين

بجنون المعذبين ! يومان فقط أو بالأحرى ليلة في أعقاب الثانية ، حتى تدركها قبل أطياف الفجر ، فتنتزع منها هلالها و هضبة نجومها المكتسبة بالرأفة .
عينان معصوبتان . ظلمات مشتبكة باختها الظلمات . إن مهارة أشباهنا البعيدين لا حد لها عندما يتعلق الأمر بعزف سيمفونية العذاب .
يدانا مغلولتان خلف ظهرينا . تمدد هكذا أيها الشجاع الوضع مريح كما لو كنت في بطن أمك . الولادة تستحق العناء . لا يدخل المرء الى العالم كما لو كان طاحونة .
طاحونة ، طاحونة ، هي هي ، ها ها . دون كيشوت . مؤخرتي ْ .
حولنا المتاهة التي رسمها سيد الغياب الكبير . سيقتادوننا اليها كما لو كنا أوديبين أخيرين ليلقنونا المعرفة . دليلنا أعمى بصير . لا يتكلف بالمهام القذرة . حتى اننا سيسمح لنا في الطريق بالذهاب الى المرحاض . سيفك قيدينا و يبقي على عصابتينا . سيساعدنا على الجلوس فوق الثقب ، و تصويب دفقة بولنا . و سيكون له أن يتباهى في قرارة نفسه بأنه ممرض تلك الأمكنة .
سواء توقفنا للتبول أم لا ، فالمصير محتوم . سيجعلوننا نلف و ندور ، و نهبط أدراجاً ، و نرتقي أخرى ، و سيدفعون باباً و يدفعوننا . الحلبة ليست جرداء . ثمة مصاطب ومعدات : دستٌ ، مجثم ببغاء ،حبال ، قناني فارغة ، اطارات مطاطية مستعملة ، أشياء تمت مشاهدتها في الحلم أو في الواقع ، لكننا نحزرها ، و نحس بها عبر اشعاعها . حرارة نتنة ، و لزوجة باردة . مثل احساس المرء حينما يدخل رأسه في مثانة خروف ذبح لتوّه . الجزارون الآليون هنا . يقفون أمامنا في صف شرفي . نمر تحت وابل من الصفعات و اللكمات . لكننا نلفي هذا أقل رهبة من الأسئلة التي لن يتأخروا في طرحها علينا . الأسئلة التي لن يتركوا لنا في الوهلة الأولى وقت التفكير فيها أو الاجابة عنها . سيتكفلون بالتعليق نيابة عنا . ((كلما أمعنا في سحق حبات الكمون ، زادت رائحتها تضوعا)) . و دون ابطاء ، يشرعون في تطبيق حكمة المثل . يذرون كمون كينونتنا في مدقٍ . و الجزارون الآليون يسحقونه . رحى صخرية ، طاحونة مائية ، طاحونة كهربائية الى أن تضيع معالم صراخنا . صراخنا ، صراخ الدابة الانسانية ، اللايحتمل واللاينتهي .
ألم آخر ذاك الذي سيوقظنا . ألم الجسد الذي لم يعد يعاني في نظر الآخر ، و لكن لأجل ذاته . لقد أعادونا اذن الى بداية المتاهة ، و رمونا مثل كيس من البطاطس الرخوة . ماذا قلنا أثناء هذايننا ؟ و متى موعد الفسحة المقبلة ؟ هذيان من أجل الهذيان ، ونحن نحاول أن نتعقل ، و نفهم ، و نرتقب ، نحاول أن نلقي بأنفسنا الى ما وراء هذا الماوراء . الشجرة الأولى التي سنلاقيها كصديقة قديمة . يد الحبيب المفتوحة لكي نملأ بها يدنا ، والانقلاب الكبير الذي ستتهاوى خلاله قلاع جديدة بمعجزة الطيبوبة الانسانية وحدها . قوس قزح الأخوة الذي سيرتفع من الأفق الى الأفق مثل حزام فاطمة (....) .

آه ، أيتها الحرية . يالسكرتك ، أيتها المتملقة القاسية .

يومان كافيان لهذه الأبدية .

كلا ، ليس الأمر على هذا النحو . لابد أن ذاكرتنا خدعتنا . كيف يمكننا الانخراط في هذه الديمومة التي تتوقف عند الشهادة ؟ الشهادة البئيسة التي لم يعد أحد يرغب فيها ، لأن ثمة الكثير من القضايا في أرجاء العالم ، مجاعات ، فيضانات ، زلازل ، مذابح الأطفال . لا يمكن تتبع كل شيئ . توزيع العطايا في كل مكان . و أنا ، أنا هل يعطونني شيئا ؟

سأمسك بيدك . في هذه الحركة الطقوسية ، سنوائم خطوط حياتنا ، و مزاجنا ، وحظنا . سنزيد عدد أطفالنا . و بمعول الحب هذا ، سنحفر الصخر . سنلاقي الصلب والهش . الجاف و الرطب سنزحف داخل النفق المفتوح على ليل حدوسنا المشبع بالهواء . سيحدث في عروقنا ما يشبه الربيع . سيعود الهتاف الى حلقنا المسدود بأعلى أنواع الصمت . و حالما يصافح أول شعاع حداقتنا ، سنعاود الكلام . أجل ، سنعود كائنين متكلمين كما كنا قبل قرنين عندما انقلب العالم القديم . أتذكرين ؟ كنا وسط هذا الشعب الذي كان يتكون ، و الذي جعل من التكوين عملاً إنسانياً . كانت بضع أفكار نورانية كافية لكي يتحول الحشد – المنبثق من العشيرة – الى شعب – هذه الكلمة المبعدة في أيامنا هذه . كيف وجدنا نفسينا هناك ، في الساعة الموعودة ، وسط ذلك الشعب الذي كنا نفهم بالكاد لغته ؟ هذا ما يعسر عليّ تفسيره الى اليوم . ينبغي التسليم بأننا كنا قد صرنا متنقلين كليّي الحضور أو سندبادين جنحت سفينتهما الى ساحل مجهول و قررا المضي بعيداً في استكشاف بلد لاح لهما في الوهلة الأولى مليئا بالغموض . لكن ربما تكون ذاكرتنا تخدعنا مرة أخرى داخل هذا الكهف المحمول فوق بساط طائر ، متحرراً من عراقيل الأرض و تاريخها . هناك حيث تكتفي هتافات الأمس بالعبور ، و تمر الظلال دون انقطاع ، و حيث التف ثانية ، بفعل السحر ، خيط أريان الماهرة حتى يمتد بحثنا حسب هواه و يغدو بدوره تدشينياً .

باريس متمردة ! قصيدة على الشفاة . قصيدة عنف و حب . مسقية بالنسغ والدم . شجرة مرتجّة بسلالة من العبيد الرائعين . سبارطاكوس . قرامطة الفرات والبحرين . كوكبة نجوم متمردة تلمع و تخبو على امتداد القرون . قصيدة سرية . ذلك أنّه

لا توجد كلمات لقول
العين الثالثة المفتوحة
من الأحشاء الكونية للأرض
زمجرة القبور
عند احتراق الأكفان
نساء ذكوريات الصراخ

رجال موشومون
أبناء سفاح طالعون من الغبش القديم
واقفون
عند ملتقى الأمواج
المهوسة بالآمال
لقد انتبثوا فأس الحب
و قطعوا عراقيب
الأفراس الطاغية
و في باقات جمعوا
ورود الدم التي تتعذر تسميتها
هاهم يسوقون
بين أحداق الذئاب
قطيع الأحلام المجهضة الهش
و جلاجلهم ، جلاجل كاتدرائيات خربة
تدق ناقوس تكوينٍ آخر
هكذا
سيكون الخلق حرا
في فم الآلهة التي لا ضغينة لها
و من باستيل ، الى باستيل
يذيبون قضبان العالم القديم
و الأيام السيئة
يحفرون أخاديد الأفق
ليزرعوها بنفثات
البذور المتمردة
ثم يلتفتون
و ينظرون الى عمل حمقهم الشافي
و يقولون ((هذا جيد))
كلا ، لا توجد كلمات
للتعبير
عن فخر كينونة الانسان

محمّلين بهذه الرسالة ، كان لابد أن نغادر باريس . لنستأنف طوافنا . عبرنا

خلاله تخوما عديدة قبل أن نعود ثانية الى نقطة انطلاقنا . لم تلح لنا الأرض أبداً صغيرة الى ذلك الحد بحيث يمكن احتواؤها في القصيدة المعاشة وحدها . لكن أليست هذه الأخيرة هي التي كانت بالأحرى أكبر منها بكثير ؟ لذلك ، حالما نزلنا لفّنا ليل غريب بظلال مخدِرة ، ثم استيقظنا حيث نحن ، هرمين بعد أن كنا قد استعدنا شبابنا . تلاشى الهتاف ليحل محله تدفق عنيد كما لو كان صادراً من شلال يوحي لنا هديره السحيق بأنه نازل ليس من أعلى جرفٍ ما بل من أقاصي السماء .

صحونا من غشيتنا فالتبس معنى ذلك الصعود الليلي . كيف يمكننا أن نميز في هذا الأمر برمته نصيب الحلم من نصيب الواقع ؟ و اذا تنعلق الأمر بقصيدة ما ، أليست مثل كل القصائد ؟

هشة و عابرة . يتغير معناها بتغير الأيدي ، وتصطبغ بلون و رائحة كل أرض ، كل حقبة تجنح اليها مثل قنينة مرمية في البحر . في الواقع ، و كما لاحظت ، هذا النقاش قديم جداً . بدأناه منذ سقوطنا قبل ألفي عام ، ربما بوقت أكثر أو أقل ، و في كل الأحوال منذ اللحظة التي توقفنا فيها عن الحساب . أجل ، ها نحن نلمس البدايات .

سأمسك بيدك . و سيمر تيار التعرف قويا بيننا . ستلوح نجمة موسومة . على جبينك أم جبيني ؟ سينهمر شعرانا الطويلان على كتفينا . و ستكون الصحراء هي أول مكان تطرقه خطانا . سنسير داخل متاهة الكثبان الرملية ، و الحصى المحفور بالريح والمخرّم بالشمس . سينسينا الحجر المشدود حول البطن الجوع ، لكنه لن ينسينا العطش . سنطوف بالواحات و القوافل . نبتعد عن الناس لكي نلتحق بهم على نحو أفضل . ستكون المغارات (في هذا الأوان !) ملاذنا الوحيد . هكذا سنهيم على وجهينا الى حين انكشاف الكلمة . سيأزف أوانها مسبوقا بعلامات متوقعة و غير متوقعة . ستلمع نجمة جديدة في السماء التي ستمزق و تمطر وابلاً من النيازك . ستنطق الحيوانات . وتتحرك الجبال . و ستسحب غابة بأكملها جذورها من الأرض و تمضي للرزق في عرض البحر . و سيتعاقب الأنبياء . رسل الكل الأعظم أو تجسداته . ذوو معجزات أو شافون بالكلام ، احترابيون أو شهداء . وديعون أو متوعدون باللعنات . و ستخضع الشعوب واحداً تلو الآخر ، بقلب مفتوح مطهر من دمه الأسود ، و ملتئم بملامسة واحدة بعدما تلقي بذرة اللغز التي لا تفنى .

سنخضع مثل الجميع ، بعد أن تغلبنا على شكوكنا . سنبارح الصحراء أخيراً سنقتطع عصا الحجاج و نمضي لإشاعة النبأ السعيد . سنلاقي الجحود . و نتحمل السخرية و المهانة . سيرموننا بالحجارة . و يلقون القاذورات على رأسينا . لكننا سنقاوم و نغزو بعض القلوب تدريجياً . بدأ بقلوب النساء ، و الأطفال ، و المظلومين . سيتردد صدى الرسالة في العالم قاطبة . بضع كلمات ، بضعة أفعال ، دون سلاح أو عدة ، سنساهم في الهدايا الشاسعة . سينبت الحب حتى في الحصى ، و على ذرى الأمواج ، و في حمم

حمم البراكين الكبريتية . لن يعود الموت ، موتنا ، عذاباً . بالعكس ، سنهرع لملاقاته كما لو كان موعدا غراميا هادئاً و دون حمى . سنغمض أعيننا فيخرج الرمق الأخير

لكن ما الذي حدث حتى صار هذا الحلم بدوره قاتما ، مجهضا ؟ هل كان الصدع فينا أم في الرسالة ؟ ما مصدر الأذى ؟ الأذى الذي كان لابد من الاقرار به و الاعتراف بوجوده فينا بعدما اعتقدنا طويلا أنه منحصر في الآخرين . كيف غدى الانسان عدوا للانسان ؟ من زرع الكراهية في حقل الخرائب هذا الذي يغطي الآن الأرض من أقصاها الى أقصاها؟ من اقترفت يداه هذا الليل المتوحش ؟ و كم زمناً نيمومته حقاً ؟

سنمسك بيدك و نبارح الكهف . الآن وقد انتعشت ذاكرتنا عدنا جديدن مثلما ولدتنا أمنا .
تغلبنا على النسيان و الخوف من الذكرى . و اذا كنا نجهل وجهتنا ، فنحن نعرف على الأقل المكان الذي جئنا منه . كما نعرف الثمن الذي دفعناه لكي نكون ، بعد خروجنا من المتاهة ، في ملتقى الاختبارات الانسانية .

، أمسكي بيدي ، أرجوك ، و بوحي لي أخيرا بإسمك . و لتكوني نديمتي في هذا الاحتفال الصافي بالحياة .

ترجمة محمد الشركي

إعلان سياحي عن (حاج عمران)

سعدي يوسف

مقدونيون في منعطف النسيم
أو خيّالة روس ٌ يجرّون بغالاً
أو رعاة الماعز الماكر يمضون برشاشاتهم و الجبنة البيضاء

هل أشعلها عبدالسلام البارازاني كما يشعل عودَ التبغ ؟
ا تترك راوندوز إلا حسرة مدبوغة بالجوز في الكفين
أي الشجرات استنطقت للنقشبنديين نجم القطب
يأتي المقدونيون
تأتي قامة الاسكندر المثلى
و يأتي الروس
يأتي البارازانيون
يأتي الانجليز
وتأتي طبقات الأرض
يأتي الشاه
يأتي مدفعيون و ضباط صواريخٍ
و يأتي جنرالٌ من وراء البحر
تأتي امرأة تبحث عن أبنائها ..

(في هذه الزاوية - التيه ِ من العالم صارت سفن العالم أحجاراً ، و في الزاوية - التيه أقام المجلس القومي للأحقاد بستاناً من الأحجار و البارود

برقٌ من وراء النهر . ورد من بخارى . سبحة من (قم) . وجهٌ أرمني
هدأتْ أمواجُ (فانَ) . ارتجف الناقوس في الهدأة . سريانٌ . يزيديون
عنفٌ تركمانيٌ . و فلاحون من آشور . ما أحلى نبيذ القرية . الأنصارُ
في كهفٍ . و بوب دينار في الميراج ٢٠٠٠)

يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
بلاداً لم تكد تعلن عن خارطة للضوء حتى انطفأت مئذنة القادم من سومر
أو سور(الرها) ... أية هللينيةٍ بيضاءَ - سمراءَ أقامت مشغلاً للخمر
و الفخّار ؟ من أول حاج عمران حتى أول البحر أقامت مدناً ..
(حين مات الاسكندر كانت ثلاثمائة بلدة و مدينة في بلاد ما بين النهرين
تحمل أسمه) .

يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
بلاداً مُرةً ، تافهةَ الحكّام ..
(كان المقتدر
كلما شاغبه العامةُ
أعطى جنده الأموالَ
حتى أكلوه) ...

ـ في سنة ٣٢٠ هـ قتل المقتدر ، إذ اشتدت ثورة العامة في بغداد . ففي محرم انتهبوا دار الوزير و اصطبله . وفي جمادى الأول اجتمع أهل الثغور و الجبال إلى دار السلطان واستنفروا الناس ببغداد ، و ذكروا ما ينالهم من الديلم و الروم ، و أن الخراج انما يؤخذ منهم و من غيرهم ليُصان به عامة الناس و يدفع عدوهم عنهم ، فثار الناس معهم ، وساروا الى الجامع بمدينة المنصور ، و كسروا درابزين المقصورة و أعواد المنبر ، ومنعوا الخطبة و ضربوا الخطيب لأنه يدعو لرجلٍ لا ينظر في أمور المسلمين قد اشتغل بالغناء و الزنا عن النظر في أمور الحرمين و الثغور . و في جمادى الآخرة سود الهاشميون وجوههم ، و انتشروا في الطرق يطالبون بأرزاقهم ، و صاحوا : الجوع الجوع و اشتد تهيج العامة ، و حملوا أصناف الحديد ـــ

يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين

ارتعى أعشابَكِ الفجةَ أطفالُ (نصيبينَ) . و نامت وردةُ الكلدان في قدّاسها المنسيِّ .. هل تحملها النسوةُ في أحشائهنَّ ؟ انتبهي يا وردةُ مسقيةُ بالنهر و البحر . أردنا مرةً أن نصبحَ التاريخ . لكنا انتظرنا
... ثم مر الصبحُ و التاريخ . مر الرومُ والديلم . بيزنطةُ أو مكةُ .
و الحلاج و الحجاج . من يوقظ في هذي السباخ الوردةَ الأولى ؟
و هل نقدر أن نزْرقَ في آجرِّ عشتار نبيذاً كان في أحداق جلجامش ؟
آه
يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
بلاداً كلما استنفرتِ الأسلاف دقت طبلةُ الأجلاف ...
قوميون لم يستنطقوا التاريخ إلا في قطار الموت .
بعثيون في بحبوحة التعذيب يقتاتون بالمليون ممن قَتلوا
(كان الشيوعيون معصوبين مشدودين كالموتى ، و اذ تصحو مع الفجر المريض مفارز الاعدام تشتد الأغاني .
يا دماً في بابلٍ : ما الفرق بين مفارز الاعوام و الاعدام ؟
لو كانت يدي كالجذر لاستوقفت ثيراني مجنحةً ، لأوقفت الغزاةَ
مسمرين بسحر آلهتي و أبنائي على أسوار أوروك) ..
و لكن ،
يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
بلاداً بين حاجْ عمرانَ و البصرةِ
بين القتل و الثورة
كانت ساعة التوقيت أمضى منك ... أمضى من رضا ساعاتِكِ المائية .
استسلمتِ للبدو الألى جاؤوا من الأطراف ، من تلك القرى الملقاة بالحرف الكبير على خرائط عسكريي العالم القاسي . العواصمُ عبر بحر الروم كانت تحكم الساعات . و الأجلافُ يندفعون من تلك القرى المتوحشات اليك . أنت البنت في تلك الجرار السومرية . أنت ، أنت ، النبتةُ الخزفُ الجميلةُ في الجداريات . أنت الماء و الأسماء .. لكن العواصم أحكمت توقيتها .. وأتى البداةُ
و أنت منهكةُ
مدمّاةُ
بلادُ بين نهرين
بلادُ بين سيفين

لماذا :
حانةُ البحّار . خيلُ الموصل . ديانا . و حفريات آشور . ملوك " الحضر "
السريان . شقلاوة . باب الشيخ . شلالات بيخال . سماء المنتهى .
الزقّورة . البرديّ في الأهوار ..(....) . و العشائر . و اللينينيون .
و الطيار في الميغ . و أهل الكوفة . المنفيّ في "السلمان" . و الجندي
في مقهى بسامراء . و العمال في الميناء . أمسوا كلهم في غابةٍ للوحش ؟
ماذا يفعل الأطفال في (أوروك) ؟ ماذا يرتجي الكاهنُ ؟
و العرافُ ؟ و الأسرى الذين استسلموا لله بالآلافِ ؟
و القتلى ؟
أيأتون بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين ؟
اقتنت أحجارُ كردستان ميكانزم تدمير الربيئةِ
لم تكن فيتنام بالجغرافيا . في (سواره توكه) كانت العربات و هي
تحمل هاونات الفرقة العشرين تجهش كالبغال .
يقول جنديّ احتياطٍ : لستُ أدري كيف لا يتمرد العرفاء ؟
امس استسلمت إحدى السرايا تحت جنح الليل .
اخرسْ أيها الجندي . و اخرس أيها النخل الممزق بين خرمشهر
والأهواز . صوتي عمةٌ فقدت بنيها . طفلةٌ
تختضّ في المنفى . و كردستان تنأى في مضائقها ،
و تسألنا ديانا عن ديانا ...
يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين

اشترت بغداد قفازاتها من دار أزياء بباريس
ترى هل كان جاك شيراك 01 % monsieur ؟
و هذا الاشتراكي الذي يمسح بالشمبانيا صاروخ أكزوسيت ؟
أي العرب الأعراب في (بواتييه) كانوا السلفَ الصالحَ ؟
أي العرب الأغراب في تلك القرى ـ النسيان كانوا الاشتراكيين ؟
(إني أنصح السيد فرانسوا متران رئيس الجمهورية الفرنسية بأن
يقرأ قراءة متأنية – و لا بأس بأن يساعده ريجيس دوبريه ـ المؤلفات
الكاملة للحاج خير الله طلفاح ، المنظّر المعتمد في بغداد)

يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
أعادت هذه الأرض التي كانت لنا بيتاً و لو يوماً، ممراً للغزاة ؟
فريسةً أخرى ؟ أكان عليكِ أن تجدي لكِ الرجلَ المريض و لو بأفدح
ما وهبتِ ؟
عليك يا أرضي السلام
عليك ، يا أرضُ ، السلام ...

xx

(لا أبطال لنا و لا حروب / لنا ، فقط ، ضحايا حالة مقرفة / يموتون بالقروح / التي تتفتح تحت أمطار الحقد القاسية / لا معارك لنا و لا أيام / كي يسجلها التاريخ في ملحوظة بائخة / لنا ، فقط ، أسرى يقتلون في ليال عمياء / و حوادث موت في الظلام /و لكن حين تقترب الساعة / و ننادي أولئك الذين ماتوا في سبيل أرضنا / فإن هؤلاء الذين هم بلا أسماء / و لا أسلحة / سيقفون مع المقاتلين الذين يحققون الظفر الأخير)

دنيس بروتوس
شاعر من جنوب أفريقيا

xx

مندلي
بعقوبةُ
بغداد ..
في ترتيب هللينية العالمِ
كان الطالب الاسكندرُ المترعُ من كأس أرسطو
يمسح البلدان بالخيل و بالخمر
و يبني مدناً يهدمها من بعده الرهبانُ و الضباط و البدوُ
و كانت مندلي الدربَ ...
و (أنا باز) زينوفون : كانت مندلي الدربَ ...
و خيالة بوديوني : و كانت مندلي الدرب ..

قرة قوينلو آق قوينلو	عبدالكريم قاسم عبدالسلام عارف	الأيس الليس
الأمين المأمون	(.........) المعتزلي	الاستخبارات الفرنسية الاستخبارات البريطانية

فرسٌ و أتراكٌ ، و أتراك و أتراك . مماليك و أجناد بويهيون .
أعرابٌ لهذا أو لهذا . سُنّـةٌ . صابئةٌ . شيعة آل البيت .
عيارون . كلدان . نساطرةٌ . ملاحدة . بهائيون . عُبّادُ شموسٍ .
و حروريون ..
و الاسكندر المترع من كأس أرسطو جاءنا من مندلي يوماً
و خيالة بوديوني
و (أنا باز) زينوفون .

xx

هولاكو أتى أيضاً ...

xx

مندلي
بعقوبةُ
بغداد ...
قد يعترض الضباطُ في الأركان . فالطائرة السمتية ، الروسيةُ الآن ،
تغطي حاج عمران ، و بشت آشانْ .. تغطي مندلي . تبلغ مهرانَ .
وهذي الحرب ليست كحروب الزمنِ الغابرِ
فالحرب هنا منسيةٌ
منسيةُ الأعوام و القتلى

فمن يتذكر القتلى ؟
و من يتذكر الأعوام ؟

تذكرها بعض البيانات
التي تصدر في الخارج .

و الضباط في الأركان : نحن هنا نحترب في بلادٍ لم تكن يوماً لنا .
بيرمام أم تكريت ؟
فليحترقْ شجر الأخامص
و ليحترقْ ماءُ المسيلْ
تكريت باقيةٌ
و بغدادُ السبيلْ .

xx

مندلي
بعقوبةٌ
بغداد ...
و الأوراقُ تدخل في مهازلها
و بغداد القتيلُ هي القتيلْ

xx

حرس سويسري لماري انطوانيت الذكية
(............... ....
....
....
....)
حرس يهودي لبيروت التي استعصت على التفصيلْ

حرس على بيتي
حرس على صوتي
حرس على الخلجان
حرس علي التيجان من (............)
حرس على رمل الجزيرة
حرس على كل المدارات التي تصل الجزيرة بالجزيرة
حرس على كل المطارات القريبة و البعيدة
حرس على حبر الجريدة
حرس على سجني
حرس على السجّان
حرس على الزهرة
حرس على تهويمة الخمرة حرس على الغصن
حرس على وطني
حرس إلهي لعبدالله ، من شرق الفرات الى بلاد النيل

xx

ماذا تبقّى ؟
ربما في (حاج عمران) سألنا بعضَناعن كأسنا ، هذي التي نحن انتقيناه و هيأنا موائدها الصبيغةَ بالدم الوطني . كم كان اليساريون مبتدئين ! كم كان المغني خافتاً ! يتطاول البردي .. و الرشاش منكفئ ، وتلتزّ الصخور و لا بنادقَ . نحن سلمنا لحاننا "مجد أشور الى من ليس يعرف كيف ينتفها . و علمناه . علمناه كيف يكون سيافاً . وقلنا للصديق الكذبةَ السوداء َ . نحن الآن ننتظر انتهاء حماقة الكأس العجيبة . ربما في (حاج عمران) عرفنا أن هذي الكأس باقية . سيختلف السقاةُ ، وربما اقتتلوا . سيمضي واحد و يجيء آخر ،ثم آخر ، غير أن الكأس باقية . ومن يدري ؟ لعل قيامة أخرى ستعتقنا من التسآل .
من يدري ؟ لعل تعادلاً (من دوننا) يقضي بايقاف الوباء ..
و نحن ؟ متّـقدون بالأسلاف نحن ، مهيأون لوردة في الروح .
كشّافون مكشوفون ، جوابوا معابرَ ..

غير أن الأرض أفدحُ

أن عبء النيزكِ المنقضّ أفدحُ ،

أن كل رصاصنا في هذه الأيام أضال من رصاصة بندقيتنا القديمة .

فلنرتفع في الروح
عن يومنا المذبوح
و لنعترف مَـرَّةْ
بالدورة الـمُرة
و لتبدأ الرحلة
من عتمة الليلة

xxx ١٩٨٣

إشارة :

عن كتاب " خذ وردة الثلج خذ القيروانة " ، بإذن خاص من الشاعر .

وميض الكفن

فوزية السندي

ليست الكويت
و لكنها حرية الروح
ما يومض في ظلام الجسد
كيف ينهض الغدر من حولها
و لا ترى غير هذا الكفن .

عندما تقتحم القوافل ذات ليل لا يرى هدأة بيتك
و تفسد ، بشهية الفتح ، مساءات تحتضن دفء قلبك
لتحتل غرور الغزاة سهرة حلم كانت
لك أن تقسو
و أنت ترى :
وطناً آخر يغادر المدى و يدين مدية الأصدقاء
جثثاً تموج بها الطرق
زنازن تؤجل بهجة الأجنحة
قادة بواسل يذرعون الأرحام بحثا عن رضيع خائن

لنهار رهائن
غدراً و قتلاً لا يموت

صعب أن تغادر جسدك
صعب أن ترى غبار دمك
صعب أن تحتدم وحدك
هل أنت وحدك ؟

كأن حجر فلسطين أول العتبات لتاريخ الطعنات
كأن بيت بيروت أول الوقت لمحنة الطوائف
و لك الغوائل التي ترتوي من حدود الجسد المثخن بموكب النهب

و لم نزل نرقب الأفق
ربما يرسل الغزاة لنا أمجاداً أخرى لفتوحات مصقولة بدم
الرايات وغصة السبايا
مُفعمة بتخمة الهوادج .
كل الجباة هنا
أما من نهبٍ تأخر عن حلبة النصر ؟
تقدم أيها الفارس المهاب
و ترجل عن صهوة الحديد
لترى أي مجدٍ وحدويّ عانقته حشود القذائف
أي رعب تخندق في رئات البيوت
و ما انهال في البحر من معدن للدمار
قوات متعددة النوايا
جند مدججون بالفزع وحلم الاحتلال
قاذفة هنا
و حاملة هناك
حتى انحنت على دهشة الأرض سنابك السماء
تقدم و قل لنا ما نرى
هل بعثٌ ما يحدث ؟
أم عبثٌ يجتث الروح من الأجساد
هل من بين أشلاء و أخرى ينهض الحلم العربي
ها جسد آخر يُحتل
ليس غريباً
فهذا الوطن الممتد من القلب الى القلب يدمن دفن الأعضاء
لتبدو الخريطة حفلاً مهيئاً لمتعة السفك
لنرى الدم نهراً يلهو بنبض الضفاف
دم يحاصر خلجة النيل
يعلن موت الفرات .
لنصرخ وحدنا
آه من وقت لا يمضي بدوننا .

لاجنون و لاجنون
هكذا نتجول كل شتاء برفقة ما تبقى من أحفاد و حدود
نحو رأفة المنفى
و ملاذ الريح
حتى تكتسي الأرض بنشيج الخيام و عواء العظام
و كل ما تهدم من أملٍ و كبرياء
عندما تتشظى حرية الروح
ليس مهماً أن يكون القاتل عدواً أو صديقاً
ليس مهماً أن تكون الطلقة في الظهر أو القلب
كي نحسن الموت
و نكسر الهوية .
إنه الذبح
ليل الرماد العربي
فيا أيها العقل إرفق بنا
يا أيها الأمل الصعب إرفق بنا
أما آن لنا ، ككل السلالات
أن نرى غير هذا الجنون .

هل يأسٌ يغرر بالرأس المائل
أم بأسٌ يراوغ الكتف
لا مفر من ثكنة المكائد
لا طريق
غير هذه الطرق

هكذا تشهر ارتعاشة القلب
لترى الناس :
شعوباً تؤثث المنافي
أشرعة تحتمي برعدة المرافئ
ندوباً لا تنسى
قبضة لا ترتخي
هياكل بلا قبور تهندس فتوى الحدود
جماجم تصوغ بطولات الهزائم

لتمضي
خلف ماضٍ ينتظر نهضة المستقبل
على أرض لن تغادر البحر
ما دمت تحلم أن ترى
هدأة القلب
و أن تشتعل مساء القلب
بسهرة الحلم .

• ——— •

قـصــائـد

علي الشـرقاوي

انـسان

أنا
واحدٌ
من هوامش هذا البلد
لستُ أتقنُ فنَّ الكلام
إنما
سوف أخبركم
عن شعوري الذي
لا يهم أحدْ :
إن غزو الكويت ..
بداية زحف الظلام .

استغاثة

احذفوا عني
الشعارات
و أطنان العبارات
دعوني أتنفس
فأنا ..

لا أستطيع القول بعد الاغتصاب
ما الذي يفعله الأعزل
في وجه المسدس ؟

حيرة

ما الذي أخبر ابني
عندما يسألني :
كيف يغزو عربي
يا أبي أرض العرب ؟!
ما الذي أخبره
غير أن أبكي
كما تبكي العصافير
اذا الكون اضطرب .

قلب الشعوب

ربما يخترق المدفع
أضلاع العمارات
و قد يضحك من رعب المباني
ربما يخترق الرشاش
أحلام العصافير
و يرميها على حزن الدروب
انما لا يقدر المدفع أن يهزم تاريخ الأغاني
من ترى يقدر أن يخلع شعباً ..
صار في قلب الشعوب ؟

آه

آه
من آهٍ و آه
ما الذي سوف نراه
بعد أن ضيع جيشٌ عربي
في دجى الثاني من آب خطاه ؟
ما الذي سوف نراه
بعد أن حاول أن يقتلع الأخ
من الحلم أخاه ؟

في الحدود

أعطني ماءً و لا تسأل لماذا ؟
كيف ؟
من أين ؟
ففي الموت نسى إسميَ
اسمي
و فمي ضاع من الوجه
و أعصابي
أراها الآن في الأرض تُراق
أعطني ماءً و لا تسأل
فقد ضيعتُ حلمي
كنت أرنو لثرى القدس
فجاءتني رصاصات العراق .

محال

أيها القادم
بالموت إلينا
ما علينا
نحن كررنا
و قلنا ما لدينا :
لن نرى طيراً تخلّى
عن جناحيه
لكي يأخذ من دبابة الغازي
ريشاً .. و يعيش.

لو تركنا

لا تسمي الغزو حلاً ..
للصراعات
ففي أوله قافلة الموت
و في آخره صحراء تيه
فلماذا ..
يهدم المدفع
ما كنا بنيناه
و يغتال الحكايات
و أحلام الشجر ؟
لو تركنا
كل من يمتلك القوة
أن يجتاح تاريخ أخيه
لانتهينا .. كبشر .

وجهات نظر

لا تقل لي
هي وجهات نظر
بين اثنين
يصوغان الأماني
و يعيدان الحوار
لخليجٍ قابل للانفجار
لا تقل لي
هي وجهات نظر
وطنٌ هذا
و في مسألة الأوطان
أبقى مثلما النخلة
أمتد الى الأرض
الى الأرض
الى الأرض
و لا أقبل ليلاً في النهار .

الصديق

لم تعد أنتَ صديقي
كما كنتَ
و ما عدتُ أغنيكَ
بلحن الرعد و البرق
و في ليل المرايا ..
أتبعكْ
لم تعد أنت صديقي
فصديق الروح
في أقصى منافيه اذا صحتَ

من الطعنة آهٍ ...
يسمعكْ
و صديق الحلم
مِـن ظل الى آخرة
المِشوار
في الجرح معكْ

أحلام

لم يعد قلبي
كما كان
ملاذاً للعصافير
و ميناء لأنهار الأغاني
لم تعد روحي غصوناً
تثمر اللؤلؤ و المرجان
في البحر الذي يقطر سكرْ
فأعيدوني الى عصفور قلبي
و الى لؤلؤ روحي

و اعذروني
حينما أكسر أعصابي
لكي أفتح للاعصار أبوابي
و أمشي
مِنْ مُنى الفعل الى فعل الأماني
كل شيئ
بعد هذا الغزو
لابد له ..
أن يتغير .

الصك المعلن

عبداللطيف الصمودي

[ا]

انتبهي ياعظمة الكاهن الأول الأسير
انتبهي
فالبقايا في رفوف أمي ، صرخات تعلو ، صور تتراجع
مطلقة ليست للقياد ، سائبة ولا حجم لها
قانية .. و ذات أظافر
فانتبهي .

١ -
لم نعد نملك الهدية ولا الأرض . لا العيد و لامنارات الأبوة . لا التمكن من الفجر ولا شهوة الأفق . كلام الحظيرة نصب على اللحد . حكمة في بئر مطوي .. لم تعد لنا معدة تحسن هضم الكوارث و لا الكبرياء . لم يعد لنا الحب و الوقت ، و حكاية الجبل و النهر . القلب يراوده الظمأ
و الجسد حزن يابس .
طفل هارب يبحث عن طفولته بارئا الى السماء .. عنها .
/ يا أنا .

٢ -

عصر لتالق الشظايا

حجر في الجبة يلتذ بالضوء . لون فسيح . يعتمر بالنور و في قلبه حوار زجاج ينشأ مثل أسماء لا تحصى . جبهته صرخة تنوء بالهجرة . ناهض مثل الشجاعة .. فأتبرج بدروعه ، وبمعدنه أختجل مثل ماء الليل ، تحت ملاءة حريته أستأنس لغة الغراب . أغزو بأطفالي ، وأصعد باللون الى الأعالي . علم يهب الوهم حلماً .. ضارياً و يعتذر للحب و الأطفال .. يعلمهم الكبوة و المقايضة ، يقتحم اللعب يتجاوز معهم الأفق ، يتقدم فيهم / بهم .

٣ -

الى حد الصوت . الى حد النصل من النهار . يترسب الانسان في الصلب ، في ميزان الروح ، في الأشياء و هي تحضن ما يبقى من الأسماء الحسنى . ها هو في الأسماء لم يقدر على الشكل ولم يطل التحول حيث الكائن يفقد ظله ليحتضن ما يبقى . لم يذهب الى الغربة و لم يبق . عودة تشد وثن الأماني في ضفائر

أصبح لا ..

زمن هناك ولا

.. مكان .. هنا .. ولا

إرث . و لا..

وطن .

وحدة حبل من رقائق المدن

و الشظايا .. ثغر مسلح من النوافذ و الثقوب

و المرايا تصلب وقت الدم

و هبوب المعادن في حواس الكائن

هواء رصاصي مثل طائر الألق و هو يحتسى ساعد الريح

شاهد في لعبة التقويم

صك معلن . مباح المأوى

و صدفة الصباح .. أحكمت الأغلال بفيل وحشي ..

تحاكمنا أطوار الثورة في قسر النوم

مثل اختبار السر بناقلات النفط و تبرج السلاح

بأقواس السوق و عضلات الأديرة بنعل الشعر و الفصائل و الأحزاب بأمتعة الكبرياء بكتاب الجوع و بهجة القلم و هو يفرغ الأصول من الزنج و الأرض و العرائس بلون الخبز والماء على عنق الصبّار بالشمس و هي تلقي ضوءها وخزا و جرحا وصراخا . غفلة من الزمن تتصاعد مثل أبخرة تنفجر بها حدود الفعل طوفانا من الحجر و بلاداً

لفجيعة الخرائط .
شهوة المد و الشكل و النوع لا حول لها
و فقراء لا شريك لهم .

٤ -

أحلام الغابة تنصب ذئابها ..
كتلة لا مفرمنها
حربة تغتصب الساحات مثل هجوم المدن .

[٢]

ألوان داهية ترجم الشكل بأنوثة للجميع للدوائر و شظايا الحال الوحيد سائس الشرق الذكوري . تداعيات تتعرى للمذكر السالم الوحيد نهمة تتقد للمستديرات من الموائد والقمم للصفة الغامضة للأسم للنهد بسعر المراهنات للحرب و هي تتلى وتعتلي القصيّ من الرأس و الطبيعة تملأ الجسد طيوراً ليلية للبحر تفترش القلب ساحة اغتصاب و قهر أين الغابة / لا / أين الغابة لا مفر في ليل الصيف أين الحلم السؤال يروي فبأي آلاء سلطتكم تكذبون عصف الدهر و الشخوص كفنتها الستائر ، مرج الراوي ذهب في انتحار المشهد بلا ضفاف العصافير قتلتها رياح الدم ديار لوثتها العيون والأفاعي وشيخ لا يستسلم للنوم وشم الذئاب كل شيىء يحدث بملء الوطن : القرار الهزيمة أين الصواب و هذا الطور و الانسان هذه المخادعة موعد الوصول حشد من الفجر يدوس منارات الأمس ثورة الصباح تعوي و تاكل أعضائها في المساء صدر التاريخ يضيق ذهب الرشد في التيه
أعناق الطير تسلك نحو المقابر
ذاكرة بلون الريح .

[٣]

محكمة الاسطرلاب :
تبدأ الارادة في نهاية المطاف اختيارا ما

حيث لا شريك في لعبة البداية
الهيكل الدولي سارق هارب
قتل / عبور

من الحدود الى سوق الشعر من البحار و السحب الى فراسة العقول و الأقمار الى نصل الفضاء يا نخلة الأصحاب ثمار يا حمرة الأرض و قذائف في الجذور يا خضرة الانكسارات و الحقل هي القبور باتت على جمعها نحن أصحاب الجياد و السباق قبلنا المصاهرة كالديكة للأسياد المرابين

و الغفلة مضاءة .

٢ -

فقراء نأكل القراءة بجوع و سجون
فقراء نكتب بالجدب خلف الحصون
فقراء داخل الخوف
فقراء نأتي على أجساد نسائنا بارتفاع الرايات
فقراء نفضح الخديعة بالحب و نخون
فقراء نقبل السلام
فقراء نعود
فقراء ، نحارب من اليتم .
نتطيب بألف شمس من التاريخ
بألف عرس و عيد كل عام
تدهشنا المحارة حتى الرعب و الموت
و فقراء أصبحنا لا شريك لنا
عند أول قذيفة في الجنوب
في الشمال لأول طفل
لأول ليل في القارة
فقراء ، عند أول عاصفة على الثالث المثيل النامي من الضلع المكسور
نصالح أول طوفان
فقراء ، بنخوة عذراء نبيع آدم لتختجل حواء فينا
و نطالع كل النجوم لنبيع النهار و الأسماء
فقراء ، نسجد في عتبة الدخول
فقراء في سفر الخروج
و عند أول الحلم يتصدرك سؤال .. هنا / هناك
يا أنا ؟

٣ -
الكل فاكهة ناضجة . تسقط عند أول حفلة للريح
تستند الأرض في جاذبية السبب و العلة
تستأثر بالموت لتبقى ملحاً من قدر
انتحارا ، و تمضي .

[٤]

دخل الوقت الآخر مدينته
زمناً من الصلب
تستوي المدينة خشباً للنار
قذيفة من لعنة الفضاء
صقيع يصفع الظل بالرماد و احتراق المزولة .

في بدء الرماية كان النمو ، في الرماية أصبح الانفجار لغة للبحر و الحريق ، صوتاً في جبل المتوسط لتضيع السبل في الانفجار عبوراً من رماد لينحل تاريخ الإرث والأشجار و الريح و زهرة العرس تتكيء على جبل أعمى تخلع ثوبها منتظرة فحل البحار ليبدأ الحواريون في يم من الأحفاد الى الوادي المقدس شعب بابل الى صخرة الراهب الى ماء نون و سحر سليمان و خندق يثرب الى الوعد في السماء سهم ينقض الأطوار و الغريزة هؤلاء المشردون يفوقون الأعضاء و الأمتعة يفوقون الغربة و ما يسع السفر و الخرائط سيرحلون قبل الوعي بعد العلم و القلم هم أسماء تمضي الى الغرف المكتنزة لا تجوب لا تدري الركن الساكن يقتات عصارة ما بقي من كتابة و لغة و صوت طاقة تكزّ على أسنانها تتسلق النحر المتورم الثقيل أبجدية الغثيان و التيه تتراشق و تذوي النحر البرّي يرتقي قانون اللون يرتدي خرقة الوعظ مقتحما خيمة الرئة الباقية و أخوه البعل على ملح الأرض بلا صوت ها هم يقرضهم العدو بآلة الذل حينا في الخوف و آخر في وحدة البائع المتجول القرد الجبلي يستعمل الوطن كجلدة السرج سادرا يغلق ثقوب الناي ثقباً بعد نور ليلاً بعد غناء يباباً بعد ماء يرقص في شرط الشهوة ها هم بلا أوان لانتصار الكارثة النقطة الفاصلة تأوي لكهفها المستقيم الحاوي يتسلل في هوية قاع لا يطال حيث الشكل خوف ينتصب تاريخ شاغر ونومنا شراع فى فضاء الغفوة الفتية لليل يقيم سرادق للحلم الباقى .

الريح مقصلة حيناً ورثاء حيناً آخر
و تارة ذاكرة من فحيح و اغتصاب

يتصدرك سؤال : هناك /هنا
قبل الأرض / بعد الانسان
من أكون
من حبل السرة حتى الآن
.. من أنــا . ×

أمشي على مهل في دمي

فريد رمضان

التقاويم

تنفلت منا القصائد
و تنفلت منهم الحروب
هؤلاء المتشابهون كالرغوة ، المبجلون بهول ضلال ، يمعنون النظر فيها صباحاً مساءً
أمام المرآة . المرآة التي لا تنطق إلا باية العظمة .

تنفلت منا القصائد
و تنفلت منهم الحروب
لعبتهم العظيمة التي تنالنا ، و تطال حريتنا ، نحن الذين لا نستطيع تحديد الاسم
والمعنى في ظلمة شوارعهم المضاءة بدمنا .
الحرف لغتنا الوحيدة في عالم يائس يسكنه المهووسون بتقاويم فقدت ملامحها منذ قرون

المعنى

الأرض جسدنا الأبدي ، و اللصوص يضطلعون بالخرائط ليعلنوا فتنتهم الزائلة ، فوق أرض تخرج من غرائزنا ، تحملها الصبية و تفتح مجراها لدمائنا ، بين انبجاسات الحجر و رمال الصحراء فنحتفي بالمعنى العربي بلا وجل ، لندرك بعدها أن أجسادنا الصغيرة قادرة ، في هذا الغياب الكاسح ، أن تتقمص الأرض و المعنى .. و غربة

المقايضة

مدينتنا الصغيرة
جئنا مأخوذين بها ، تتقمصنا الشطآن ، و ملوحة الأرض و شهوة النخيل .
نفترش عذاباتنا اليومية بعذوبة و لا نغفر لمقتصليها .

تأخذنا الأيام من القيد الى القبر
لكنها ، مدينتنا الصغيرة ، تظل وحدها في عتمة النهار تشعل العذاب فنحتفي
لا نحايد في العاصفة
لا نقايض على الدم
في هذه العتمة ، كيف ينسى البحر نشيد اللغة ، و الذين جاءوا موهومين باكتشاف الأرض ، أرض لا تنسى صغارها المقتولين ، تنظر اليها ، تمتد أسراب الريح نحو الرائحة العذبة في أمواج الوطن .

وحدها الأرض شهوة المنفى
وحدها اللغة
وحدها .. و أنا أمشي على مهل في دمي ، أمنح الوقت رقصته الأخيرة ، لاكتشاف الجسد
حبيبي الذي هناك
حبيبي ، وطن تلده السماء في انفجار الكتابة .

الروح

حين هدر الدم على الأرض
و تساقط المتشابهون من قواميسهم
حين شاعت الأدوار
و اختلطت الكواكب في غبار النهار ، حين حشد الهاتفون لأدوارهم المبعوثة
و جاء المحارب بكنائسه
قلنا للجهات الموروثة :
نبيح في هذه الهرطقة دمنا الوحيد
ليكون للأرض أسماءها و لخطوتنا السبيل .
نعيد للكائن أصواته الأزلية و ليكن له الفضاء الساطع
نفتتح الشهادة ، لتكون له طريق نحو رائحة النخيل و عناصر القلب .

آنذاك ..
ماذا يبقى من شهقة الروح
و أصفاد المعادن تحمل الرايات المضمخة بعطر أحلامنا و باشتعالات الحياة ، و تظلل سماءنا بالضيم .

الشهداء .
الذين هناك ..
أحبابنا الذين هناك
يشعلون الذاكرة ، و يطوفون الطبيعة بزهو .
طلوع يضيئ المدينة .
مدينتنا الصغيرة
التي هناك .

أغنية

(بالله يا بين
ارفع جانبك عني .) ×

× النهام الشعبي محمد العلاّن .

امرأة اللؤلؤ

عبدالله الصيخان

هدأ البحر سوى بضعة أطفال يسوون بيوت الرمل
وتدانى الأفق القاصي حتى شفَّ في عتم المكان
طفلة تنفض موج البحر عن غرتها
وعلى الموج تلاقى عاشقان
ثبج يسقط من مهرته البيضاء في اليم ..
فيبكي نورسان
رجل أعمى يجوس الوقت في الشاطئ ..
في يمناه فانوس بلا زيت
و في اليسرى عصاه .
بارجات سود يزرعن (صباح الشر) في الماء ..
و في الأفق طيور من حديد و دخان .

سقط السيف من الكف
و لم تسقط عن (الكوت) يدان

هل " أبو طاهر " ينوي الحجر الأسود كان ..
خارجاً من خلوة الأحباب ..
مزفوفاً على ظهر حصان

أيها الفارس في قتلي
و الفارس في نصلي

و الذاهب في غدر بليد و جبان
أيها القاتل و المقتول
كيف ؟!
سقط الفجر على الشاطئ مذبوحاً و مات العنفوان
كان يا ما كان في هذا الزمان
ذهب البحر الى السجن
و ما عاد
و لا عاد الى الجهراء زهر الأقحوان
قيل أن العسكر الباغين حين اعتقلوا
الأبراج فاض الماء ..
و ارتد عليك الرافدان
سقط الكف عن السيف
و لم تسقط عن (الكوت) يدان .

ستعودين لنا
يا امرأة اللؤلؤ
و الكحل الذي يرسم في العينين
عشرين نهار
ستعودين على مركبة الحق
فلا تبكِ
هنا أميَ انتظار مشرق
و على الدرب مناديل الصغار .

الرياض

حالـة الاحـتضار الطويــلة

قاسم حداد

نفتديك ببتولة عذراواتنا يامهندس الكوارث المسائية
نرخي لك أعناقنا خاشعين و أنت ترشد سنابك الفتك
لئلا تخطىء أحلامنا

صلينـــا لك
صلينـــاك

أوشكنا على التلاشي و نحن ننتظر قدومك ، فيما تهدهدنا بك حكايا أمهاتنا الحانيات لنغفو ، فلا تعرف عيوننا النوم و لا نهجع في مكان . نتوقع رنين أقدامك على جليد الليل ذات شتاء ، فقد قيل أن البرد أحلى المواسم اليك ، حيث درّاعتك التي تصاب بقشعريرة الماء كلما شاغبها المطر و طاردها الثلج . نتوزع على المنعطفات و أبراج الوديان لنرصد قدومك عن بعد ، و ندرك تاجج نار الأضاحي لحظة نلمحك تلوح بالبيارق في الأفق . ساررنا أصدقاءنا قطاع الطرق و بعثنا بهم كشافين يستطلعون أمامك السبل ليسبقوك بأخبار الغزو . لم يكن لنا شأن سوى انتظارك ، و كلما طال الوقت و تأخرت ، ازددنا يقينا بك ، و أوشكنا على هزيمة اليأس . لم نيأس منك ، أنت الذي ترسل الينا الدليل وراء الدليل يبشرنا بحتمك . لم نكن نعرف أو نسمع شيئا عن

وجودك ، مجرد وجودك الغائب يشكل لنا لغزاً . ها نحن ، على رغم توغلك في الخرافة ، لم نزل نتجرع يقين قدومك ، و نتمرن كل يوم على قرابيننا بين يديك أن حضورك . نتخيل الحدث كأنه الآن ، كأنه هنا . نتخيله و نؤدي الشعائر بالتفاصيل الصغيرة . ويوما بعد يوم يتحسن أداؤنا . نصبح أكثر خبرة و حماساً في تنفيذ استقبالك المنتظر . صار كل منا يعرف تماما ماذا سيفعل أن يراك . نتخيلك (نحن الذين لم نرك ....) مهيباً طاغياً ، تقبل من كل الجهات التي لا تنتمي الى هندسة الطبيعة . يتقدمك غيم كثيف يشفّ تدريجيا ، فيما تتقدم ، و يفسح لك مواقع خطواتك ، لتبدو في كوكبة من الملائك ، ترفل في جبّة وهبها لك الخجل ذات ليل . أما نحن فنكون في براثن الوجل . ترتعش أطرافنا لفرط الذهول . نتهيأ لذلك الاستقبال ، لكننا نصاب بالمباغتة . مخلوقاتنا الصغيرة الجميلة التي يسمونها الأطفال ، تهرع في أرجاء المدينة ، تتدفق بألوانها الباهرة في اتجاه موكبك لتبدو ، و هي في زينة البهجة ، كمن يسكب سلة كبيرة من الأزهار في الشوارع ، تصاحبها موسيقى تنبعث من المكامن الخفية مختلطة بضحكات تشبه أصوات الأجراس . مواكب الأطفال تتدافع ، لا ينتظمها سوى شغف اكتشاف القادم الغريب . و في الشرفات المندلقة من أردان المنازل مثل أثداء مثقلة بالنبيذ ، تقف نساؤنا الوقورات لابسات الفساتين البيضاء التي تحمل رائحة زفافهن ، يزين شعورهنّ بالورود الحمراء الفاضحة الدلالة ، و يرشقن المارة بنثار الياسمين ، تلك الزهور الثلجية الصغيرة . و يصطفّ رجالنا على أكتاف الطرقات يتبادلون متعة ارتعاشة العضلات الحميمة و هي تفلت من حالة الانتظار / الاحتضار الطويلة . فقد عانت الأجساد خشونة الوقت و ضراوة آلات العمل التي تنحت التغضنات يوما بعد الآخر .لم يبق موقع إلا و سطت عليه شظية من البركان الذي حرسته يقظة الطين ، فيما يصهر العناصر الغامضة لحياة المدينة . تصطف تلك الأجساد مترنحة بفعل الذروة . تتأرجح بين تصديق ما يحدث و بين الاستعداد لخلع آخر حالات الموت الدائم . فقد قيل لهم ، منذ الليل السابق ، أنك في ظاهر النخل ، تبدو بهالاتك السديمية . فنفَضَ كل منهم يده من طين الشغل ، و تنادوا لطقوس استقبالك . أما أكثر شبابنا فتوة و حماسة ، فسوف يخطف كل منهم صديقته المهتاجة مندفعاً بها الى الساحات الزاخرة بالصخب لتزداد صخباً ، برقص ٍ ينتخب موسيقاه من الأقدام و هي تعصف بالأرض النائمة لتصحو ... ثم لا تعرف النوم أبداً . ما عليك إلا أن ترى مدينة يتأجج فرحها . مدينة سرعان ما تخرج عن رزانتها لتصاعد الى شاهق الغيم ، مثل امرأة خارجة من سرير مشبوق . لن ترى مدينة مثل هذه أبداً .لقدرسمنا التفاصيل كلها ، حتى أن عدد المرات التي ستقرع بها الأجراس محسوبة مثل ساعة القلب ، تصحبها مآذن تعلن صلاة البهجة . و هي صلاة لا يجوز فيها حزن و لا كآبة و لا خشوع ، و لا يتعب عنها الجسد . فبعدها سوف ينسكب نهر من شهوة الشعير ، متجولا في شوارع المدينة وأزقتها ، متخللاً الأجساد الصاخبة ، نهر يفيض ليغرف منه الجميع بأقداح لا تكاد تترع حتى تفرغ .

والذي يتخلف عن انتخاب الماء الذهبي سوف يرشّه الآخرون لكي يغتسل و يتوهج . وما أن يتوسط موكبك ساحة المدينة حتى تكون النشوة قد دفعت الناس الى الترنّح . وساعتها لن نعرف ما الذي سيفعله هذا الاحتفال الفاتن . فمثل هذه الساعة الفوضوية لن تكون تحت السيطرة . آنذاك سيجد الجميع فرصتهم المواتية طلاق مكبوت العمر . آنذاك سينفجر الانتظار الضاري الذي صاغ في أذهان الجميع صوراً لك لم يحتملهاخيال البشر العاديين . و ربما جاز للحب ، آنذاك ، أن يفتك بالعشيق والعاشق . ليصير الحلم أجمل أشكال القول . و ما عليك ألا أن تتهيأ لاحتمالات لا تحصى . فقد غبت عنهم طويلاً . تأخرت ، عن المواعيد كلها ، تلك المواعيد التي كنت تزيّن بها رسلك وسعاتك ، الذين سرعان ما يتحولون الى جند مدججين ويمعنون في البطش . أما نحن – البشر العاديون – الذين صدقنا بشاراتهم و ترغيبهم ، وخضعنا لترهيبهم ، نحن البشر العاديون ، الخطاة الجناة ، المنذورون لتصديق ما لا يصدق و انتظار ما لا ينتظر ، فلا جناح علينا إذا أطلقنا ذخيرتنا عليك دفعة واحدة ، مثل انتفاضة الأعالي . نتمرغ في أجمل ذرواتنا نشوة بفضيحة حضورك ، لنبجّلك للمرة الأخيرة ، بفتكٍ يمحوك و يفدي بك مستقبل المدينة . مدينتنا المريضة بحبك . المدانة بوهم انتظارك ، المشغوفة بفكّ طلاسمك وقراءة زعفران محوك .

مدينتنا الفخورة بأنها ، من دون المدن ، التي ..

ستنــــالك

و تنــــال منـك .

إغمس يدك في ماء الغدير

ضد الحرب

× اذا غمس القوم أيديهم في الدم فاغمس يدك في ماء الغدير .
× عبادك في تعب ، إلامَ الأسنة على الرماح و الأعنة في أعناق الخيل ؟

المعري / الفصول و الغايات

تشريع الاستبداد

× خطب عبدالملك بن مروان في المدينة :
ألا و اني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم . و الله ا يامرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا و ضربت عنقه .

ابن الأثير

اختلاف المسلمين

× إن هذه الأمة لم تختلف في ربها و لا في نبيها و لا في كتابها ، و إنما اختلفت في الدينار و الدرهم .

عمر بن عبدالعزيز
سير السلف و البداية و النهاية

إرهاب

× خطب الوليد بن عبدالملك يوم استخلافه ، فقال :
أيها الناس ، من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه . و من سكت مات بدائه

الطبري

ذمر سياسي

×قال مسلم بن يزيد العدوي في عهد المنصور :

– حتى متى لا نرى عدلا نسر به و لا نرى لولاة الحق أعوانا
مستمسكين بحق قائمين به إذا تلون أهل الجور ألوانا
يا للرجال لداءٍ لا دواء له و قائد ذي عمى يقتاد عميانا.

المستطرف

انتهازي

× لا أقاتل في الفتنة ، و أصلي وراء من غلب ..

طبقات ابن سعد

صلة الانتاج بالطغيان

× تولى الحجاج العراق و خراجها مئة ألف ألف درهم . فلم يزل بهنته و سوء سياسته حتى صار خراجها خمسة و عشرين ألف ألف درهم .

التنبيه و الاشراف

تكافؤ الحقوق

× لا تلزموا أنفسكم حق من لم يلزم نفسه حقكم .

عمر بن الخطاب
أدب الوزير للماوردي

× من قضى حق من لا يقضي حقه فقد عبده .

علي ابن أبي طالب
نهج البلاغة

العرب في مواجهة الاستبداد

× عبدالرحمن بن أبي بكر يعلق على بيعة يزيد :

" إنما تريدون أن تجعلوها كسروية أو هرقلية كلما هلك كسرى أو هرق ملك كسرى أو هرقل "

الامامة و السياسة / الأغاني / الاستيعاب

الانهيار المبكر

× النبي في أواخر أيامه :

" أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتلو آخرها أولها "

تاريخ الطبري / الاستيعاب

من مساوئ الاعلام الرسمي

× إبو سليمان البستي في كتاب العزلة :

" إن الذي يحدث للسلاطين التيه في أنفسهم و الاعجاب بآرائهم كثرة ما يسمعونه من ثناء الناس عليهم . و لو أنهم أنصفوهم فصدقوهم عن أنفسهم ، لأبصروا الحق و لم يخف عليهم شيئ من أمورهم .

× أبو حيان التوحيدي في مثالب الوزيرين ، عن الصاحب بن عبّاد :

" هكذا يفسد من فقد المخطّئ له اذا أخطء ، و المقوّم له اذا اعوج و الموبخ له اذا أساء ، لا يسمع إلا صدق سيدنا و أصاب مولانا .

العدل بدلا من الشجاعة

× سأل الاسكندر حكماء بابل ، أو حكماء الهند ، أيما أبلغ عندكم العدل أم الشجاعة ؟

فقالوا: اذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة .

الحصن الحقيقي

× كتب عامل حمص الى عمربن عبد العزيز :

إن سور المدينة قد تهدم فإن أذن أمير المؤمنين في إصلاحه ..

فكتب اليه :

" حصّن مدينتك بالعدل و نقّ طرقها من الظلم فانه حصنها .. "

العقد الفريد – المستطرف

تاريخ الخلفاء – عيون الأخبار

فدائي

× خطب المنصور يوما فقال :
- منذ وليت عليكم رفع الله عنكم الطاعون .
فقام رجل في المجلس و قال :
- لأن الله أكرم من أن يجمع علينا المنصور و الطاعون .

حدود الحرية عندهم

× قال معاوية بن أبي سفيان :
- إني لا أحول بين الناس و ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا و بين السلطان .

الامامة و السياسة

تطرف العراقيين

× أمر الوليد بن عبدالملك حين قرر بناء مسجده بدمشق - الجامع الأموي
- أن يأتيه كل رجل بلبنة واحدة . ففعلوا الا عراقيا كان يأتيه بلبنتين .. فسأله : ممن أنت ؟ قال : من العراق .
قال الوليد : يا أهل العراق تفرطون في كل شيئ حتى في الطاعة .

الطبري

مقارنة

× قال عمر بن عبدالعزيز عن الحجاج
لو جاءت كل أمة بفرعونها و جئنا بالحجاج لغلبناهم .

ابن عساكر

استشراف

× قال عوف بن مالك في خلافة عمر :
- يا طاعون خذني !
فسئل لماذا ؟
فقال :
- أخاف ستاً : خلافة بني أمية ، و إمارة السفهاء من أحداثهم ، والرشوة في الحكم و سفك الدم الحرام ، و كثرة الشرطة ، ونشئاً ينشأون يتخذون القرآن مزامير .

شرح نهج البلاغة

مركب أخلاقي

× الوفاء لأهل الغدر غدر
و الغدر بأهل الغدر وفاء

ينسب لعلي

بطولة

× استجوب الحجاج خارجيا يدعى الحُطيط :
– ما تقول في عبدالملك ؟
– ما أقول في رجل أنت خطيئة من خطاياه .

أمالي المرتضى

قصر المستبد ، هيكل الخوف

- ١ -

العوام هم قوة المستبد و قوته ، بهم عليهم يصول و يجول ، يأسرهم ، فيتهللون لشوكته ، و يغصب أموالهم ، فيحمدون على إبقائه حياتهم ، و يهينهم فيثنون على رفعته ، ويغري بعضهم على بعض ، فيفتخرون بسياسته ، و اذا أسرف في أموالهم ، يقولون : كريما ، واذا قتل منهم و لم يمثل ، يعتبرونه رحيما ، و يسوقهم الى خطر الموت ، فيطيعونه حذر التوبيخ ، و إن نقم عليه منهم بعض الاباة قاتلهم كأنهم بغاة . إني أرى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عينه فالملك الجبار هو المعبود و أعوانه هم الكهنة ، و مكتبته هي المذبح المقدس ، و الأقلام هي السكاكين ، و عبارات التعظيم هي الصلوات ، و الناس هم الأسرى الذين يقدمون قرابين الخوف ، و هو أهم النواميس الطبيعية في الانسان ، والانسان يقرب من الكمال في نسبة ابتعاده عن الخوف ، و لا وسيلة لتخفيف الخوف أو نفيه غير العلم بحقيقة المخيف منه . لينكشف للانسان أن لا محل فيه للخوف منه ، وهكذا اذا زاد علم أفراد الرعية بأن المستبد أمروء عاجز مثلهم زال خوفهم منه و تقاضوه حقوقهم .

- ٢ -

و يقول أهل النظر : إن خير ما يستدل به على درجة استبداد الحكومات هو تغاليها في شنآن الملوك و فخامة القصور و عظمة الحفلات و مراسيم التشريفات و علائم الأبهة و نحو ذلك من التي يلجأ اليها المستبد كما يلجأ اليها قليل العز للتكبر ، و قليل العلم

للتصوف ، و قليل الصدق لليمين ، و قليل المال لزينة الملابس .

- ٣ -

و يقولون : أنه كذلك يستدل على عراقة الأمة في الاستعباد أو الحرية باستنطاق لغتها، هل هي قليلة ألفاظ التعظيم كالعربية مثلا ؟ أم هي غنية في عبارات الخضوع كالفارسية ؟ و كتلك اللغة التي ليس فيها بين المخاطبين : أنا و أنت .
بل سيدنا وعبدكم ؟

عن (طبائع الاستبداد)

سلطة الوحدة

جورج حنين

سلطة الأوحد . سلطة الوحدة . انها السلطة السوداء حقا التي وجه نظرها الى الداخل و غيضها الى الخارج. و مع هذا فان الديكتاتورية لم تتجل كاهانة للأخلاق السياسية إلا يوم أن فرضت اسطورة المساواة على الناس أن يعتقدوا بانهم مغبونين في كل مرة يتلقون فيها الأوامر ، بينما هم كانوا يتوقعون قوانين . إن قانون التقيد بالشريعة لهو بناء دقيق تشغف به القلوب المقتصدة ، و حيث كل مجازفة ستجد نفسها معوضة بضرب من التامين ، و كل كدّ ينشد ثوابه . مع الديكتاتورية ، القانون نفسه ينذعر ، كما أن ما من شيئ مضمون . حتى لو بدا متجمدا ، متصلدا و موضوعا تحت حراسة محكمة . إذ أن ما تعلنه هذه الحراسة ، في واقع الأمر ، هو أن زمن الأفعال التي لم تعاقب قد حان ، كما يجب التخلي عن التنبوء بالغد . و مهما كان نوع النظام الذي يسنه الحكم المطلق ، فانه لا يخطط له . إلا اذا اعتبرنا برج الديكتاتور الشخصي خطة .

في الماضي كانت القوة و القانون يتعاقبان دون حاجة الى طعن واحد باسم الآخر . : كلاهما كانا الفصلان المتعاقبان للمدينة . إن مواطني روما القديمة ، و هم أناس بلا عقد ، قد جعلوا من الديكتاتورية ضربا من القضاء الأعلى ، وظيفة كانت تشرف الذي يتقلدها أكثر مما تعرضه لتعيير العادلين وظيفة مؤقتة ، محدودة المدة ،كانت تبرر بضرورة اسناد ، الى رجل واحد ، مهمة التغلب على أخطار أكبر من فصاحة مجلس الشيوخ . فيما بعد جاء العقد . مع الخجل من المطلق و من تصغير الفرد ، قطعة من الحشد ينبغي أن تعود الى الحشد . لم يعد هناك ، اليوم ، ديكتاتوريات . كل ما يوجد هو أنظمة استثنائية ، بعضها يعلن أنه ليس قائما إلا برهة من الزمن ، و البعض الآخر يحاجج بمبدأ الانضباطية بحجة تأسيس ديمقراطية النشاط المكيفة حسب حاجيات مجتمع في طريق التحول . كذب في كلا الحالتين . ذلك أن الديكتاتورية هي محك التآكل : انها تنهك الأعصاب ، الارتكاسات ، و كل قدرة على التأني . اسمها يستأهل التذكير الى أننا بصدد املاء طويل يرمي الاستمرار بنفسه و التغذي ، بلا حدود ، من الاذعان الذي يولده،

هذا فيما اذا تنبثق الأحداث الخارجية قاطعا سيره : كالحروب ، الحصار ، أو بروز قوى جديدة في الأفق .

إن ديكتاتوريات عصرنا المزيف لهي ، في الحقيقة ، أشكال من الضيق الملتبس الذي يثيب سلطات القسر من جراء الايديولوجيات التي تدعيها .كاستاذ الرياضة الذي عليه التضليل للرفع من شأن النظام الذي يزاوله و الحط من شأن ما لا يزاوله في آن معا .

إن الديكتاتورية ، بالأخص ، تتستر أو تقتسم ذلك لأنها في حقيقتها العارية ، تتاصل في ارادة منفصلة عن كل الارادات الأخرى . انها ، إذن ، علامة الشطط ، لكن هذا أيضا ليس بشيئ : انها ، بطريقتها الخاصة ، ازدهار العزلة المرضي . الديكتاتور ، بعيدا عن كونه الزعيم التوتاليتاري كما نتصوره - ان كلمة كلية تتضمن خلطا حادا بين الواحد والجميع - هذا الديكتاتور ينتمي الى العنصر المغالي من المنغلقين على أنفسهم . منحبس حي في اسكوريال حلم طفولي كبر طوال ليلة غبشاء حيث الصرخة لا تمر ، وربما ليس أمامه من مناص إلا في الصلاة ، أو في الارهاب أو في الكحول : سالازار، ستالين، أتاتورك . نعيره عواطفنا ، و هو لا يرجعها . انه في مأمن ، أي أنه خارج الصدى

ان قاعدة الحكم المطلق التي فرضها بنفسه و ليس في مقدوره التقصير عنها ، تجبره على المكوث بموضع المروض اللامبالي و الذي لا يشبهه ، الى حد ما ، الا شخصية الدون جوان .

يفهم المستبد السياسة كعشاء فجوري ، و الطاغية يفهمها كموزع دائم للشر ، والديكتاتور يفهمها كخلق مجتهد لعالم غير قادر على أن يعيش من بعده . والأشياء هذه معروفة . فللوهمي أيضا أشباحه الخاصة التي تطوف بحرية في القصور المحكمة الحراسة.

إن الحطّ الحديث من قيمة فكرة الديكتاتورية يعلل بالنفور الذي تلهمه العزلة في مجتمع يتصير بدائيا من جديد و يعبد أساطير المشاركة كل الأنماط ممكن مناقشتها ، بشكل أو بآخر ، إلا نمط واحد : الحكومة المنعزلة . أن لم يسع الديكتاتور الى خداع الآخرين عن طبيعته الحقيقية ، ينتهي به الأمر على أن ينظر كغريب . لم يعد هو الذي يقصي المناهض : انما هو نفسه مرصود باقصاء ، أحيانا بالكاد أن يدرك هذا الاقصاء الذي سيدوم رغم الجميع و سيقضم كل الحماسات العرضية التي تعقب الانتصارات و تطيل الخطابات . و ساعة أن يتخلص المرء من تخوفاته ، لا يعد الديكتاتور سوى رجلا خارج المركز ، رجل أجنبي ، شخص جاء من بعيد ، تارة نمساوي و تارة جيورجي . أما بالنسبة للكائنات التي تحمست أو ذعرت لوهلة ثم أذعنت فجأة الى عاداتها ، فهو يبتعد كطواف تخرج كلاب البيت ضده ، ينمحي حاملا معه عبء قسوة لم تفهم شبيهة برجل المريخ ، الشهير في القصص العلمية ، الذي ذابت أخيرا في البلادة العامة قدرته على الأضرار .

جنة النيران

!. كفاحي كتاب في هتلر وضعه كما الدعاية فن

١ / جنة النار

الدعاية سلاح جبار في يد من يستطيع حمله ، و لا يصلح لذلك الا الخبير بدقائق النفس الانسانية ، العارف بخفايا و أسرارها . الملم بمنازعها و ميولها فهي في يده كالعصا السحرية إن لمس بها نفوس الشعب لجعلها ترى الجنة ناراً و تخال ضروب الشقاء ألوانا من النعيم .

٢ / فن الموت

وظيفة الدعاية الأساسية هي الايحاء الى الناس بأن يموتوا . و بما أن هذا أمر يتطلب الحذق و المهارة فالتطبيق العملي له قد أصبح فناً له أصوله و قوانينه التي يجب فهمها و الالمام بطرائقها حتى تستطيع الدعاية بلوغ الهدف المطلوب لها .

٣ / الحقائق

لا شأن للدعاية بتربية الأفراد طبقاً لمبادئ العلم الصحيح أو بالاهتمام بالحقائق و القيم الذاتية للأشياء و انما شأنها هو في تقديم ألوان جديدة للحقائق و المثل العليا و الحاجات الاجتماعية .. الخ

٤ / الوسائل

يجب أن لا تقتصر الدعاية على الشكل دون الموضوع بل يجب أن تتناول الاثنين معاً لأن قيمتها لا تقاس لا بمقدار تأثر الجماهير بها و هي في سبيل ذلك تخلق الوسائل وتبتكر الأساليب التي تكفل صون و بقاء القضية التي تبشر بها الى أن تستقر عقيدة

في النفوس .

٥ / الهدف

أياك أن تمضي بالدعاية في تلك الطريق الملتوية القائمة على " موضوعية الأشياء " وما تقتضيه من تقليب وجوه الرأي و تمحيص مختلف المناحي . لأن في مثل تلك الطرق لا تخطو الدعاية الا خطوات ضعيفة متعثرة قد لا تؤدي الى شيئ ، واعلم أن اثارة الروح القومية مثلاً لا تقوم إلا على تعبئة النفوس مرة واحدة ثم دفعها قوياً في طريق واحد ة هي التي تنتهي بالهدف .

٦/ الشراذم

من هم الجماهير ؟

فطاحل المشرعين و كبار رجال القانون و العلماء النابهون و القادرون على الفهم الصحيح و الادراك السليم و المنطق القويم ، كل أولئك بعيدون عن الجماهير .. الجماهير هي شراذم و أفواج من الناس لا قدرة عندهم للفهم و لا صبر لديهم لتحريك الافكار وتنشيط العقول و لا يملكون سوى الشك و الارتياب . من أجل هذا يكفي لتقويض عقيدة من عقائدهم أن تلوح لهم بشعاعٍ واحدٍ من الحق في الصفوف الأخرى .

٧/ طبيعتهم

طبيعة الجماهير عاطفية و أمزجتهم تتلون دائما بألوان الشعور و الانفعال التي تسري في أنفسهم ، و التفكير عندهم ليس وليد العقل و انما هو انسياب عاطفي لا يلبث أن يظهر في صور أعمال و أقوال . و هذه الألوان من الاحساس و الشعور بسيطة غير معقدة و محدودة جداً ، و هي إما إيجابية يجري فيها الحب و العدل و الحق و إما سلبية يسري فيها البغض و الظلم الباطل .

٨ / إغفال العلم

الدعاية الناجحة هي التي تقدم الى الجماهير في أساليب سهلة مستساغة حتى تستطيع تذوقها و الاحساس بها كما و أن مستواها العلمي يجب أن يكون مسايراً لعقلية أقل الأفراد عقلاً و أكثرهم غباءاً . و من هذا فا ن تزايد عدد الجماهير يستدعي خفض المستوى العلمي للدعاية . غير أن هذه الملاحظة لا قيمة لها اذا كان غرض الدعاية التفاف الشعب كله حول فكرة معينة أو انتظامه في طريق واحد .

٩ / قليلة الفهم

من خصائص الجماهير انها قليلة الفهم ضعيفة الذكاء و لكنها سريعة النسيان . و معرفة هذه الخصائص يتطلب من الدعاية أن تقتصر على مبادئ قليلة مصوغة في قالب نداء قومي أو صيحة وطنية حتى يتمكن أقل لأفراد حفظاً و تفكيراً و أبعدهم فهما وادراكا من أن يتذكرها دائما فيعي معناها .

و جوهر هذه المبادئ يجب أن يظل بعيدا عن كل تغيير أو تبديل . و لا يمنع هذا من تنويع أساليب عرض الدعاية و بسطها للجماهير على شرط أن تنتهي دائما بالجوهر الأصلي . و من المفهوم أن مثل هذه الأساليب ليست سوى مشاعل الغرض منها هو القاء أضواء جديدة على جوهر الدعاية ليزداد وضوحاً و جلاء في نظر الأفراد و بمثل هذا تحتفظ الدعاية بوحدتها و قوة تأثيرها في النفوس . قد يحدث أن الدعاية تكون غامضة أو غير مفهومة في بداية الأمر ، فالواجب وقتئذ هو الانحدار الى البساطة في شرح المبادئ ، مع تحليل معناها و مقارنتها بأمثلة عديدة حتى يتم فهمها و ادراكها . و اذا حدث أن البعض غير قادر على متابعة الدعاية في الطريق التي تسير فيها فيلزم الارتداد الى الحد المفهوم منها ، ثم تعرض الأفكار من جديد في صور عديدة ، و ذلك بعناية و مهارة حتى لا يترك فرد عاجزا عن الفهم . أما إن اعترض الدعاية ضباب من الشك يؤدي الى عدم الاقتناع بها فمهمتها هي في التكرار المستمر المتواصل ، ثم في اقتناص وجوه الاعتراض القائمة في أذهان الأفراد ، و ذلك للرد عليها بالدليل تلو الدليل، و البرهان إثر البرهان و الحجة ، حتى تنهار الاعتراضات كلها و تصفو الأذهان بعد ذلك للمبادئ الجديدة . و خير ما يذكر هنا هو أن أسهل طريق للرضوخ والتسليم هو دحض حجج المعارض قبل أن ينطق بها .

١٠ / الكذبة الكبيرة

في كل كذبةٍ ما ناحية يمكن تصديقها ، و عقلية الجماهير تصدق الكذبة الكبيرة أكثر من الكذبة الصغيرة .

١١ / الذين لا يقرأون

معظم الذين لا يكلفون انفسهم مشقة فحص وتمحيص مايقرأون من اخبار ، وهم بهذا يصدقون كل شيئ . فالصحافة المنتشرة بين الجماهير لمن أقوى الوسائل لنشر ما تريده الدعاية .

١٢ / اللامبالاة

سواءً لدينا (النازيين) أن يسخر منا المعارضون أو أن يصبوا جام اللعنات ، أن يتهمونا بالجهل أو بالاجرام ، فالمهم هو أن نشغل أفكارهم دائما حتى نصل الى أهدافنا..

عندما دخل الضابط الهتلري على بيكاسو في مرسمه بباريس ، ورأى هناك تصميماً كبيراً ملوناً للوحة " جرنيكا " سأله :

– أهذا من فعلك ؟

فأجابه بيكاسو بهدوء :

– لا ، هذا من فعلكم أنتم !

سيكولوجية الاغواء

أ. فوغل

سواء تم نقل التاريخ - الذى هو بالتحديد معرفة وتذكر احداث وقعت في الماضي - الي الاجيال الجديدة كحكاية تحذيرية أو مرشد للعمل ، فانّه يظل مسألة محيرة تثير النقاش و الجدل . فثمة بيّنة مخيفة - تدحضها الكتب و المدارس و الفلاسفة - بأن الحياة بالنسبة للانسان تبدأ منذ لحظة ولادته ، و بأن كل ماسبقها من أحداث ووقائع تكون مبهمة و خفية على حد سواء ، فهو مرتبط بأحداث عصره التي يعيشها أكثر من ارتباطه بالتاريخ البشري ككل ، وربما لهذا السبب نجد ان الذين عاشوا في عصر هتلر هم الذين يعرفون حقيقته جيدا ، أما الأجيال الجديدة فتنظر الى تلك الفترة كحكاية غريبة - ليست مروعة تماما - من الماضي الاسطوري ، يصعب عليها ادراك كنهها و حتى تصديقها ، و فوق ذلك هي تعتبر فترة " منتهية " - أي مرحلة انبثقت في الماضي و تلاشت - طالما أن نتيجتها كانت معروفة . الأمر نفسه ينطبق على هيروشيما و الكونغو و فيتنام وتشيلي التي أخذت هي الأخرى تتحرك في الفراغ لتصبح مجرد مادة لكتب التاريخ .

وبالرغم من ذلك فاننا نلاحظ بأن في كل جيل تظهر محاولات جادة و مخلصة لدفع تجارب الماضي نحو المستقبل و نقلها الى الآخرين لتأملها أو تجنبها .

لقد برز النظام النازي نتيجة أسباب واقعية يسهل ادراكها ، و في ظروف مساعدة ومهيئة : هزيمة ، كساد اقتصادي ، بطالة هائلة ، تضخم مالي لم يسبق له مثيل ، تفسخ المجتمع ، انحطاط أخلاقي ، صراع طبقي حاد ، ثورة مجهضة . و قد استغل النازيون هذه الظروف لتحقيق حلم الرايخ الثالث في تأسيس مجتمع متحد ، منسجم ، قوي ، يخلو من المنشقين و المعارضين ، نموذج للعنصرية الخالصة . فمن الخرائب و الرماد تنبعث الأمة من جديد . وجد هذا الحلم مناخه في شخص عالم نفسي بارع - هتلر - يعتبر كتابه " كفاحي "

الكتاب السياسي - النفسي الأول و الفذ"، إذ أنه خلاصة وافية ، فريدة و شريرة ، تبحث في مسألة كيفية التلاعب بالجماهير . و هتلر هو الشخص الوحيد الموهوب الذي استطاع أن يفهم جيدا أعماق العقل الباطني السلفي .

إن علاقة هتلر بالجماهير ، و التي هي علاقة حب سادية و طويلة لا تنتهي ، كما هي مرسومة بشكل واضح في " كفاحي " ، ترتكز بطريقة التحليل النفسي على التكوين الساحر لشخصية الفوهرر (عنصر مذكر ، سوبرمان ، مستودع للحكمة و الارادة القومية) الذي يغوي (بواسطة الدعاية) الجماهير الأدنى منزلة و مستوى (عنصر مؤنث) .

و لإقناع الجماهير بالأفكار النازية ، نشأت الحاجة إلى الدعاية التي يجب أن تخاطب مستواها الثقافي و المعيشي . الدعاية لا تناقش (أي لا تطرح أسئلة ولا تثير جدلاً) إنها تقنع (أي تصب المعلومات و تحرك المشاعر) و بالتالي يتعين عليها أن تكون بسيطة ، غير معقدة ، سهلة الوصول ، تخاطب العاطفة لا العقل ، متكيفة أو متلائمة لأدنى حدود الفهم والادراك .

الدعاية غير علمية ... " ليس من مهمتها أن تقدم دراسة موضوعية عن الحقيقة - حيث يمكن أن يستغلها العدو لمصلحته الخاصة - بل مهمتها أن تخدم قضيتنا نحن .. دائما وبدون تردد .

الدعاية ، مثل الاعلان ، ينبغي أن تقتصر على نقاط أساسية قليلة تتكرر المرة تلو الاخرى .." عندما تتكرر الأفكار البسيطة آلاف المرات فان الجماهير عندئذ ستتذكرها و لن تنساها أبدا . " و يجب تركيز الدعاية على قضية واحدة ، و ضد عدو واحد .

أما " إغواء " الجماهير فمن الأفضل أن يتم في الليل ، في اجتماع أو لقاء جماعي واسع - على حد تعبير هتلر - حيث يتسنى للفوهرر أن يبرز أفضل امكانياته في ممارسة سلطاته و قدراته على الجماهير " الدونية " الكسولة التي تتلقى الأفكار و المبادئ في استسلام لا ارادي . ضمن هذه الشروط يمكن للوسائل الايحائية أن تخضع الجماهيروتثير حماستها في أي وقت .

الى جانب ذلك ، بحثت الدعاية عن وسيلة أخرى تضاهي قوة و فعالية اللقاء ات الجماهيرية ، ووجدتها في السينما . قال هتلر : " هنا - أي في السينما - لا يحتاج المرء الى استخدام عقله كثيرا (...) انه يستقبل البيان المصور بسهولة أكثر من المقالة الصحفية (..) الصورة تعلّم و تلقّن بسرعة فائقة " .

عتمة الصالة تجعل الجمهور يستسلم بسهولة الى ارادة الفوهرر المستبدة ، مثلما يفعل ظلام اللليل بالمرأة . هذا أيضا - وفق ما يقول هتلر - يفسر استخدام الضوء الخفي في الكنائس الكاثوليكية .

في عام ١٩٣٤ كانت القيادة النازية مجهولة نسبيا ، سواء في الداخل أم في الخارج ، وللتعجيل في ابراز نفسها و كسب الاعتراف من جميع الجهات - المحلية و العالمية

الشعبية و الرسمية – دعا هتلر الحزب الوطني الى عقد مؤتمر في صورة اجتماع حاشد ضخم لمدة اسبوع واحد في نورمبرغ .. المدينة التي استقبلت مليون عضو حزبي من جميع الأنحاء . لقد استغل الحدث في محاولة تحقيق الانتشار العالمي لاسطورة النازية الجديدة بواسطة مجال (المشهد السينمائي) لم يُستغل من قبل بمثل هذه الدرجةوالضخامة و الفعالية .

نجم فيلم " انتصار الارادة " هو هتلر (الفيلم النازي الوحيد الذي يظهر فيه طوال الوقت) انه يأتي من بين الغيوم في طائرة قديمة تبدو مضحكة اليوم . من المكان الذي تقيم فيه جميع الآلهة، يجئ هذا المخلّص – الكائن الذي يسمو فوق البشر – بينما الجماهير البليدة في الأسفل تترقب حضوره من أجل أن يخلصها . إنه رؤوف ، حازم ، صلب ، رابط الجاش ، ذو سلطة مطلقة ، موجود في كل مكان و في جميع الأوقات ، و هو رمز القوة و ملهم الأمة . انه مذكّر أيضا مثل جميع القادة النازيين (تماما مثلما التحية بالذراع الممدودة و مشية الأوز هي رموز انتصاب) . و لجعله يبدو انساناً خارقا (سوبرمان) ، فان كل عيوبه و نواقصه (أي تلك التي تجعله كائنا بشريا) قد أخفيت تحت طلاء كثيف . هو و الفيلم كاملان بشكل مطلق ، إذ ليست هناك درجة واحدة ناشزة طوال العرض ، فكل شيئ مرسوم بدقة ، اللقطات التي تصور هتلر مأخوذة دائما من أسفل ، حيث يقف مرتفعا على قاعدة تجاه السماء ، أو في حركات استعراضية بطيئة وناعمة . حتى عندما يكون بين حشد من الجماهير ، نراه متفردا و لا أحد يضاهيه .

التركيز منصب على هتلر وحده . هنا يتم تحقيق الفردانية و الديمقراطية البورجوازية . ففي هذه الطقوس البدائية البشعة لا تقوم الجماهير – المجهولة و المنومة مغناطيسيا – بأي دور فاعل ، انها تستجيب فحسب لمبادرات الفوهرر الموجهة أو المنقولة في شكل فاشي ، هستيري ، استحواذي ، عازل للصوت .

كل شيئ مخطط و معد لغرض الاغواء (اغواء الجماهير) : الافراط الحسي للخطبة المهيجة ، ذات الطبقة العالية ، و الملهبة دعائيا / الشرائط والرايات الكثيفة / إيقاع الطبول ومشية الأوز / عاطفية الأغاني الألمانية القديمة / لقطات لمدينة نورمبرغ القديمة لخلق التزاوج بين النظام الجديد و الماضي القومي . حتى اللغة تصبح شعائرية وتعزيمية . إذ في تمجيد " هيس " لهتلر ، نجده يصف زعيمه بـ " لحم جسدنا ، دم حياتنا . أمامنا .. تمتد المانيا . خلفنا .. توجد ألمانيا . الحزب هو .. هتلر . هتلر هو .. المانيا . والمانيا هي .. هتلر " . كل هذه الشعارات و الوسائل تفجر رموزا مستمدة من اللاوعي التراكمي . إن تلاعباتها الواعية هي التي تشكل الدعاية . و كما شرح هتلر بوضوح تام ، فان الدعاية أداة كبح .. لا أداة توعية . هكذا نجد أن تحريف الحقائق و كبحها ، يتم في اللحظة التي تنشط فيها الرموز السلفية المتجذرة مؤدية الي نكوص نفسي الي اكثر المستويات بدائية . العناصر الأساسية للتلاعب بوعي الجماهير ، و المرسومة من قبل هتلر ، تظل

في جميع أساليب الدعاية ، بسبب طبيعتها المدروسة ، لا تلوث الحقيقة فحسب بل كل من يقترب منها .

ترجمة : أمين صالح

× فصل من كتاب : film as a subversive art

× العنوان من وضع المترجم .

مقبرة الكلمات

أدواردو جاليانو

[١]

الآلة تقرر أن من يقف ضدها عدو للوطن . شجب الظلم جريمة في حق الوطن . أنا الوطن ، تقول الآلة . معسكر الاعتقال هذا هو الوطن : ركام من الخراب ، نفاية نتنة ، أرض كبيرة قاحلة .. خالية من البشر .

من يؤمن بأن وطنه بيت لكل فرد ، يقذف به خارج البيت .

الشيئ الوحيد الحر هي الأسعار . حرية الاستثمار ، حرية الأسعار ، حرية المقايضة . كلما كانت حرية العمل أكبر ، ازداد عدد السجناء . من سمع يوما أن الثروة يمكن أن تكون بريئة ؟ عندما تحدث أزمة ما ، ألا يصبح الليبراليون محافظين ، و المحافظون فاشيين ؟ لأجل من يعمل سفاحو الشعوب و الأوطان ؟

[٢]

ممارس التعذيب موظف . الديكتاتور موظف . انهما بيروقراطيان مسلحان سوف يفقدان مهنتهما إن لم ينجزاه بشكل فعال . انهما ليسا أكثر من ذلك ، ليسا مسوخا فوق العادة . و نحن لن نمنحهما ذلك الامتياز.

[٣]

الآلة ترهق الشباب بغاراتها المتكررة . انها تعتقل ، تعذب ، تقتل . و هم البرهان الحي على أهميتها . إنها ترميهم خارجا : تبيعهم كلحوم بشرية . أيدي عاملة رخيصة للبلدان الأجنبية .
الآلة العقيمة تكره كل شيئ ينمو و يتحرك . هي قادرة فقط على مضاعفة السجون والمقابر . تستطيع فقط أن تنتج السجناء و الجثث . الجواسيس و الشرطة . الشحاذين والمنفيين .

جريمة أن تكون شابا . و الواقع يقترف هذه الجريمة فجر كل يوم . كذلك التاريخ الذي يتجدد كل صباح .
لهذا السبب ، الواقع و التاريخ محرمان .

[٤]

في أورغواي يفتحون سجنا جديدا كل شهر . ذلك ما يسميه الاقتصاديون خطة تنمية . لكن ماذا عن الأقفاص اللامرئية ؟ في أي تقرير رسمي أو وثيقة معارضة يظهر سجناء الخوف ؟ الخوف من فقدان المرء لوظيفته ، الخوف من عدم الحصول على عمل ، الخوف من الكلام ، الخوف من الاستماع ، الخوف من القراءة . في بلد الصمت ، أي اشراقة تومض في الأعين يمكن أن ترسل المرء مباشرة الى معسكر اعتقال . لا حاجة الى تهديد الموظف بصرفه من الخدمة : يكفي اعلامه بأنه من السهل ازالته بدون اشعار ، و بأنه لن يحصل أبدا على عمل آخر . الرقابة تنتصر حين يصبح كل مواطن رقيبا قاسيا على كلماته وأفعاله .
الديكتاتورية تصنع سجونها من الثكنات ، مخافر الشرطة ، الحافلات المهجورة ، المراكب المهملة . و ماذا عن البيوت ؟ ألم تتحول الى سجون ؟

[٥]

كم عدد سجناء الحاجة ؟ هل هو حر ذلك الانسان المحكوم عليه بانفاق سنوات عمره في البحث عن عمل و طعام ؟ كم عدد الذين مصائرهم موسومة على وجوههم من اليوم الذي

يلجون فيه العالم و يبكون للمرة الأولى ؟ كم عدد المحرومين من الملجأ و الشمس ؟

[٦]

قائمة التعذيب والقتل و الاختطاف و الاختفاء ، لا تستنزف جرائم الديكتاتورية . الآلة تعلمك كيف تكذب و كيف تكون أنانياً . التضامن جريمة . النصر للآلة : الناس يخافون التخاطب فيما بينهم و النظر الى بعضهم البعض . كل شخص يتفادى الالتقاء بالآخر . حين تلتقي بشخص و يحدق في عينيك دون أن يحول نظراته عنك ، فانك تفكر برعب : آه ، سوف ينال مني .
المدير يقول للموظف الذي كان صديقه : أنا مضطر لأن أقدم تقريرا عنك . لقد طلبوا أسماء ، و يتعين عليّ أن أعطيهم اسما .. اغفر لي ، إن استطعت .
لماذا لا يدرج قتل الروح ، بتسميم الشكل الخارجي ، في تأريخ العنف ؟

[٧]

المراكب تبحر ملأى بالشباب الهاربين من السجن ، أو الجوع ، أو الموت .
أن تحيا .. مجازفة
أن تفكر .. خطيئة
أن تأكل ... معجزة
لكن كم عدد المنفيين الذين هناك .. داخل تخوم بلدانهم ؟ أين هي الاحصائيات التي تحصي أولئك المحكوم عليهم بالاذعان و الصمت ؟
الديكتاتورية هي العار الذي أصبح سلوكاً و عرفاً انها الآلة التي تجعلك أصماً و أبكماً ، غير قادر على الاصغاء ، غير قادر على التكلم ، و أعمى ازاء الأشياء المحظور رؤيتها .
الآلة تعلم الناس قبول الرعب بنفس الطريقة التي يعتاد بها المرء على الزكام في الشتاء .

[٨]

أفتش عن صوت عدو يصدر لي أوامر بان أكون تعيسا . أشعر أحيانا بأن الفرح جريمة ، والضحك خيانة عظمى ، و أنني مذنب لكوني مازلت حيا و حراً .
أن تكون حيا : انتصار صغير . أن تكون حيا يعني أن تكون قادرا على الفرح ، بالرغم من الجرائم و العزل . و من المنفى نقدر أن نشهد امكانية بزوغ نوع مختلف من الوطن .
المهمة التي أمامنا هي أن نخلق وطنا حقيقيا ، و هذا لن يتحقق بقرميد مصنوع من براز ، هل سنكون ذا فائدة حين نرجع محطمين ، مهشمين الى شظايا .
الفرح يقتضي بسالة أكثر مما يقتضيه الألم . و الألم ، على أية حال ، شيئ اعتدنا عليه .

[٩]

خطة الابادة : تجريد الأرض من العشب ، استئصال النبتة الحية الأخيرة ، تغطية الأرض بالملح . بعد ذلك ، محو ذاكرة العشب .
لكي تستعمر الوعي ، إقمعه .
لكي تقمعه جرده من الماضي . أطمس أية علامة تشير الى أن هناك شيئا ما في هذه الأرض غير الصمت و السجون و المقابر .
التذكر ممنوع .
ثمة قوانين جمركية للكلمات
مواقد للكلمات
مقابر للكلمات .
و في الليل يرسلون جماعات من السجناء ليستروا بالطلاء الأبيض كلمات الاحتجاج التي كانت تكسو ، في أوقات أخرى ، جدران المدينة .
غير أن المطر المتواصل ، المثابر ، يبدأ في اذابة الطلاء الأبيض . و هناك ، شيئا فشيئا ، تبزغ الكلمات العنيدة مرة أخرى .

ترجمة : أ . ص

فضائح الكلام

كريم عبد

فضائح الكلام كثيرة ، أولها عندما نهرب منه بالالتجاء إليه ، نحن نمجّد الكلام كي نلغي فطنته ، نحوله .من اشارات الى ضجيج . نغطيه بضجيجنا كي لا يستمع لوقع خطانا ونحن في طرقات الفضيحة، نحن فضيحة الكلام ، لقد أحطنا بقش الصمت ، وأوبئة المجاملة، أصبح المكان حرقة المواجهة ظنون ، نلثق في الرحيل ، نحن الذين كنا منكفئين في الاقامة ، كانت الحرب قابعة بين البيت و المقهى ، بين العين و العين، بين القصيدة والسماء ، و نحن نوغل في المداهنات تبريرا لشجاعة مفقودة ، نغسل وجوهنا بمياه النسيان ، رغبة براحة هي انحسار ، هي شهوة الميتين ، لقد سطا المغول على بغداد في وضح الارتكاس ، ثم عاشت الجرذان في جدران تاريخنا فسادا ، تبددت المعاني على شواطئ الخرافة ، و بغداد أسسها السفاحون على جثث الأولياء و المعارضين أصبحت مقدسة ، كانت مقدسة و لا تزال ، بدءا بوجه اليقين ، الملطخ بدماء الحلاج ، و الأئمة والعلماء ، مرورا بازدهار التجارة و العبيد و الخصيان، حتى آخر طفل يلثغ الآن على صدر أبيه المقطوع الساقين !!

بغداد مقدسة ، لأنها وطن ، و هي بغداد القادمة من روث الطبقات ، و فلسفة الشذوذ، ملكية أم جمهورية !؟ وطن أم مقصلة ؟ علامة استفهام أم مقبرة !؟ نحن نلثغ الجواب ، الفصاحة الآن ، هي فصاحة الشركات المتعددة الجنسية ، و الحضارة للمقاولين الثانويين ، الأحزاب تتثائب ، بعد أن أكلت المزيد من غبار الحكمة و التجارب . الكلام فضيحة الآن ، فضيحتنا نحن ، و إلا كيف ارتضينا ترويضه الى هذا الحد ، و تشاغلنا مفرطين بالتدخين و المشاجرات !؟

بغداد هي العراق ، و العراق قطرة ماء في نهر يلثغ ، فصاحة الكوفة ، و سعة البصرة ، دماء تتيبس الآن على جبال كردستان و في شوارع بغداد . لم يكن ثمة من يقول الكلام كما هو ، كان الوقت يتخثر في السجون و البارات ، الشهداء كانوا صراخا ، و حيطان السياسة من فلين ، الخيانة امتصت الوقت و الوجوه ، والذين كتبوا لنا بيانات

الثورة ، استعملوها في التواليت في أقرب فرصة . ثمة من حوّل الاسطورة الى خرقة يمسح بها الجلادون أيديهم من دماء الضحايا .

كيف ننقذ الكلام من فضائح (نـا) أو فضائح (هم) ، كيف ننقذ الكلام من هكذا فضائح ؟ بين كربلاء و بعقوبة ، ثمة رائحة البرتقال ، و دماء العراقيين على أراضي الأردن وسوريا و لبنان وفلسطين و ، دفاعا عن وجود اليقين . و يقين الوجود ، لكن صفقة الاختلاس كانت كبيرة ، لقد اختلط الحابل بالنابل ، و أصبح العراق لثغة ، يسقط فيها السوط متعثرا بفصاحته ، لم تبق لنا الدول الكبرى و قتا كافيا لمراجعة الذات ، لقد دفعتنا هي أيضا الى وحول السياسة ، عممت فضيحتها على فضيحتنا ، و كأن العالم وتاريخه الراهن لا يصلح إلا للفضائح ؟!!

القمر والروث

القرى قمر و روث ، دم على الظلال ، و في المخافر شرطة و أنين ، الأرض ثياب الفلاحين ، الوجوه ممزقة ، و النساء ينزلن الى النهر عاريات ، ذكريات الملوك خرق بين أفخاذ الأطفال ، الورد الجوري يسطو على الحيطان ، في الصدور تدرن الأيام ، الحب حصرم في جيوب الرجال ، و البلهارسيا تدخن و تلهو في الأكواخ و حول البساتين ، آثار التوت الأحمر على ثياب البنات، النهر يجري و الاقطاعي يعطس في المركب ، الرغبة راكدة في المستنقعات ، النساء يخرجن من الماء و البرد الى البيوت و التوقعات ، و يصيح الديك ، تنهض الأعشاب و الكروم على صياح الديك ، تدب في الروث شهوة النمل و الأرانب ، وتركض السواقي و تنحني بين هيمان العصافير و نباح الكلاب ، القرى تنبح على الزمن ، القمر في بيوت البساتين ، و الروث في شوارع المدن ، الحكومة تعطس ، ويتراكض الرجال في باحة السجن ، ننهض من النوم بتثاؤب الأشجار "الحرس القومي " يسحبون الاقسام ، و (فاضل) يتسلق النخلة ، يخفي كتبه وخوفه بين العذوق ، التمر مر يتساقط علي مستنقعات العراق ، هوس المدن ، و النساء بين ممرات القبور ، !كذب في دفاتر الأولاد ، و النشيد يتكسر في الصدور ، بيانات كثيرة ، و خارج المدينة ، (الحرس القومي) يدفنون البشر أحياء ، هكذا وجدناهم بعدما أخرجوهم من الحفر ، إنهم يدفنون الانسان بثيابه و ذكرياته و يديه ، كل الأشياء تدفن مع الانسان و هو حي ، ١٩٦٣ اكتشف عبدالكريم قاسم عراقه في الاضطراب ، لأن العراق ليس ثكنة أو بستان ، عبدالكريم قاسم لم يفهم ذلك ، التدرن الذي في العقول كان أكثر فطنة من الروث ، لذلك سطا علينا اللصوص و سرقوا الثكنة و البستان .

البرد في المدن ، و الشهوة غبار في جيوب الفلاحين ، الحرية لوجوه الموتى و هم يهرولون في المقابر ، لقد اضطربنا كثيرا بين البرد و الرغبات ، عشعشت العصافير بين الكتب والنحاتون يحفرون الأشجار بأصابع من جمر ، غجر نرقص حول نار اليقين ، نرقص ،ورماد الشكوك يعمي العيون ، و شوارع العراق طويلة ، غجر في شوارع العراق ،

كل الدجالين معنا ، الخلفاء و الأرانب الشحاذون و القوادات ، بنادق (الحرس الوطني) وبنات التجار ، فضيحتنا واضحة في النهار ، في الليل و النهار ، ثم نسكب كؤوس الخمر على غبار الأيام ، نسكب كلام إرواحنا ، على مستنقعات العراق ،و المطر يهمي في الشوارع و على السجون ، على الملاهي و في حدائق القصر الجمهوري ، جمهورية الهرطقات ، شعب المصادفات و الخوف و الذكريات ، كلكامش يتنزه حول مشانق شيدها بقدميه و يديه ، غجر يرقصون على جمر ، أوقدوه بغبار أرواحهم ، و الحكومة ترقص والبنات يعدن من المدارس متعبات ، و نحاول في الكلام ، نفتح زوايا المثلث ، كي يصبح أفق المعاني سماء ، و نعصر حب الرمان في كؤوس فخار ، نشرب عذوبة اليأس و الأوهام بيانات الأحزاب خرق ، و يلاحقنا طنين الطبقات، روث التجار ، و حكمة الشكوك . لم نتعلم شيئا ، نصفق للخرتيت ، و نشيد السجون بشهوات الحرية ، نزن العدالة بأكوام التمر الخائس ، و نذهب في التيه بعيدا ، ضغائن و خناجر و روث ، ثم نهرب من العراق ، نهرب بالضغائن و الخناجر و الروث ، و يستطيل المثلث ، يتربع الغبار ، و تقوم التفاهة ، وبغداد حصير يصلي عليه القتلى و السجناء .

الاكراد

الأكراد في أول العراق ، و نحن نضعهم في نهاية النص ، كل النصوص تضع الأكراد في نهايتها ، لا لكي تخذلهم ، بل لتعبر عن خذلانها هي ، ليس لأنهم مشتتون ، بل لأن النصوص تعبر عن تشتتها هي .

خطاب الهيمنة في العراق ، يقول (نفط العرب للعرب)

و الجميع يعرفون ، حقول النفط في المناطق الكردية ، و الأكراد في أشلاء كردستانهم الأخرى بين صخور الابادة . الكل يتشاطر لإبادة الأكراد ، و كأن الأكراد صالحون للإبادة فقط !! الجلاد لا يدافع عن كرامته ، لأنه بلا كرامة ، إنه يرغب و يهتز لإبادة الآخر ، كي يشعر بلذة العار كاملة .

الأكراد في أول الدم ، في أول الصوت ، في أول المعنى ، و الجميع يضعونهم في نهاية العواطف و الرماد .

الأكراد يستيقظون مبكرين ، و شلالاتهم تهطل على وجوه الدنيا و التاريخ .

المشهد لوز و صخور وينابيع ، و الدبابات تتقدم على وجوهنا المذهولة ، أشباح السلطة تدور حول الوجوه ، قطرة دم تسيل في جميع النهار . و يقهقه السيد ، تضحك سلالة العار ، و الأكراد يكنسون الشوارع في مدن الجنوب و الفرات ، في مدن ١٩٧٥ ، في مدن سورتها المخابرات بالجرذان ، و خدرتها البنوك بدولارات بترول الأكراد .

حربنا الأهلية في العراق ، لا أحد يتحدث عنها ، لأنها بحماية الدولة ، الكل يخذل الكل ، والكل يعترض و ينكفئ ، نحن الكل ، الضياع الواضح ، نحن الأكراد و العرب و الفرس ، نحن المنطقة المنخفضة في هذا العالم الذي أصبح متاهة ، نحن الذين نعتقد بأن العالم

متاهة ، لأننا في التيه ، في تيه القوميات و الطوائف و الأحزاب ، تائهون في وجوه بعضنا ، واضحون في أرشيف الشركات المتعددة الجنسية ، و الأكراد في ذروة التيه ، الأكراد لعنة على وجه العالم ، لعنة أكيدة ، ربما لن يحتفل فيها الشعراء و تجار الكلام ، لكنها تربك الجميع ، العراق مضطرب لأن الأكراد مضطربون ، ربما لا يشعر أحد بذلك ، لأن العراقيين لا يفرقون ، لأنهم جميعا في خدر الاضطهاد ، اضطهاد شامل ، تعود عليه الجميع ، و لا يشعر به أحد !! و البعض أرادها فرصة ، كي يحدد حدود اقطاعيته ، و كأن العراق ليس وطنا ، كأنه فريسة تدور حولها ذئاب القوميات و الدول و الأحزاب .
هكذا تتبدد قرة الماء الواحدة ، هكذا يراد لها أن تتبدد ، هكذا يفعل بنا الكسل الروحي ، الجميع يخذلون الجميع ، لأن الجميع يتغذون على قش المعاني ، لأن الجميع يفقدون الشجاعة عندما تواجههم حقيقة العراق .

كلهم يريدون العراق ، لكنهم في عبودية الذات يفترقون .

لم تعد قرى كردستان تحترق لوحدها ، قرى الوسط و الجنوب وصل دخانها الى عيون الله أيضا ، إنها حرب بين لصوص و مخذولين ، اللصوص يضحكون على الجميع ، و الجميع يخذلون الجميع !!

الحرب

حول الثكنات حدائق ، عصافير تتناسل في ظلال المستشفى ، و الرجال يأتون من الكلام والبيوت و الشوارع ، يزدحمون في أبواب الله ، في كل عام يطل الضابط من شرفته العالية ، يهتف باسم الملك و الزعفران ، يغص الجنود بين فقرة و أخرى ، فيعيد الملك خطابه من جديد ، العراق في حفرته العالية، و الوزراء يدونون أكاذيبهم في دفاتر المذكرات ، تتسع الثكنة ، و ينهض حفار القبور مبكرا ، البنات بثياب بيضاء ، والأوراق حطب و غبار و زمهرير ، و حفيف العصافير في كؤوس فخار ، ضجيج القبلة الأولى في حدائق المساء ، و يعود المهندس في كفن أبيض ، بدأت الحرب في تقسيم جثة اليقين على جيوب الوزراء ، و كان الدم ينز من الكلام ، الحرب بدأت قبل و صول المدافع الى الحدود بسنوات ، المدافع كانت في أبواب البنوك في هواء بيوتنا في ظلال البساتين ، الحرب كانت واقفة لنا في الشباك ، في الطريق الى الجامعة ، و في معاول المثقفين و هي تحفر في رؤوسنا ثغرات الخيانة و مأوى الغبار ، لقد سقط العراق على قلبه ، و في العام ١٩٧٧ تم تكنيس العلم الوطني سبعة أيام ، ليس من أجل يسوع أو محمد ، لا من أجل الحدود ، و لا من أجل فرصة أخرى نستعيد فيها صباحات فلسطين ، بل لأن (فرانكو) الأسباني مات . الحرب نمل بين الورق و الكتب ، في زوايا القصر الجمهوري ، جثث في ظلال السجون ، قمل و بعوض و سياسيون و روث أكيد .
بدأت الحرب ، و الملك المتوج بقرنفل التفاهة ، يطل من شرفته العالية ، بدأت الحرب عندما تحول الكلام الى هباء ، بدأت الحرب قبل أن تشعر الحدود بقشعريرة من برد حديد الدبابات ، الحرب قائمة مذ كانت جثث قتلانا في المستنقعات و في أعماق المدارس

والمصادفات .

و الحرب بدأت ، في شوارع بغداد ، الدراويش يأكلون روث الأنوثة ، و في شوارع طهران قتلى أكثر من الانتصار .

الحرب قشور تفاح تحت موائد المقاولين ، و التجار يعطسون في زوايا الليل ، الملاهي في البساتين ، و على الحدود ، الجماهير ساحقة على الجماهير ، حنظلة الحياة تتدلى من خوذ الجنود ، و يقهقه الملوك في قصورهم ، و يقشعر الكلام في جيوب الشركات المتعددة الجنسية ، روث على برج ايفل ، و العلم الأمريكي يرفرف ، روث في شوارع اليابان ، والعلم البريطاني يرتفع ، و في عواصم أخرى حفر كثيرة ، حفر كثيرة و لكن لا تكفي لجثث القتلى .

هل بدأت الحرب أم أن أوهامنا تقودنا الى الشطط !؟

الأعشاب نمت على جماجم قتلانا ، الأعشاب نمت على سياج قصور القوانين ، لسنا بصدد الحرب ، نحن بصدد الكلام ، كيف يستقيم في هذا الفراغ الهائل القديم ، كيف يستقيم في ظلال المقصلة ، كيف هي نصوص الرب ، و أحاديث الأولياء ، الكلام يتنفس غبارا ، و الحكمة أياد مقطوعة ، و الدول تجدول الديون و المراسيم .

نيسان ٨٦

× عن مجلة " الصوت " العدد الثاني – الدينمارك .

الكتابة في المقاهي و شاطئ البحر

رعد مشتت

١ –

بدأتُ الكتابة منذ عشرين عاماً تقريباً ، كنت حينها أدرس الأدب العربي في جامعةٍ في العراق ،و لكن كتابتي الحقيقة بدأت بعد تخرجي و التحاقي بالجيش ، هناك اكتشفت عالماً جديداً فتح عيني على حقيقة النظام . فالجيش ما هو ألا منظمة لغسل مخ الشعب ، فليس مسموحا لك أن تقرأ أي شيئ باستثناء الصحف و المجلات الرسمية ، واذا وجدوا عندك أي كتاب أدبي ، حتى اذا كانت مادته غير خطرة ، كروايات تولستوي ، أو قصائد ولت ويتمان ، فانهم سيوجهون لك تهمة توزيع أدب مضاد للدولة ، و يصدر بحقك حكم الاعدام ، و هذا عائد الى عدم فهمهم لمحتوى الكتب ، و لأن معظم الضباط والجنرالات أغبياء ، فانهم يفسرون أي شيئ لا يفهمونه على أنه تهديد للأمن .

٢ –

إذا كنت خريج جامعة و مجند بالجيش ، و تحمل عضوية الحزب الحاكم ، فهناك فرصة للحصول على وظيفة كتابية في بغداد ، و لكن اذا لم تكن كذلك فانهم سيحيلون حياتك الى جحيم . عندما جندت في اكتوبر ١٩٧٧ خضعت لفترة تدريبية ، ثم أرسلت الى أكاديمية الضباط لأدرّس اللغة الانجليزية ، و لكنهم حرموني من التدريس بعد أن عرفوا بانني لست عضوا في الحزب . و كان عليّ أن أذهب الى الأكاديمية يومياً ، و لمدة شهرين ، دون أن أعمل شيئا غير الجلوس و الانتظار ، ثم أرسلوني الى وحدة في كردستان حيث قمت بأعمال مكتبية ادارية . و بعد أن أتممت أخيرا أوراقي و أرسلت الى وحدة أخرى حيث كان عملي هو تنظيف البغال . و عرضوا عليّ أعمالا مدنية مغرية في بغداد مقابل التنازل عن جميع (أفكاري المجنونة) . كان يعلمون ، من خلال معلومات مخبريهم في الجامعة، بانني كنت مناصرا للماركسية أثناء دراستي الجامعية ، و بانني كنت أشارك،

مع آلاف الطلبة ، في إجتماعات لمناقشة قضايا كثيرة . كانت تجربتي في الجيش نقطة تحول بالنسبة إليّ . إن وصف دستويفسكي لأوضاع السجون في سيبريا في القرن التاسع عشر لا يختلف كثيرا عن وصف السجون هنا حالياً ،
وإن كانت العراق دولة غنية .

٣ -

الصحافة ، النشر ، الموسيقى ، المعارض ، كلها تحت سيطرة وزارة الاعلام . و منذ السبعينات لم يستطع أي شخص أن يصدر أي مجلة أو صحيفة بدون إذن رسمي ، و لم تمنح اجازات خاصة بغض النظر عن توجهات الناشر السياسية . أما أي شخص يعمل في مطبوعة غير حكومية فانه سرعان ما يتعرض للمضايقة ، كما في حالة الشاعر المعروف سعدي يوسف ، الذي نقل ، بأمر حكومي الى وزارة الزراعة . و أصبحت السلطة أكثر صرامة مع الفعاليات المسرحية ، و تم إغلاق فرق مسرحية مثل (اليوم) و(المسرح الشعبي) و قد كانتا من الفرق العراقية النشطة . إما فرقة (مسرح الفن الحديث) فقد سمح لها أن تجري بروفات لمدة ستة أشهر ثم أبلغوها بقرار منع المسرحية، مع أن المسرحية لم تكن تحمل مضامين سياسية ، و لكن النظام كان يريد أن يظهر سيطرته على كل شيئ ، لذا كان يمنع حتى مسرحيات تشيخوف .

كان الفنان العراقي فيما قبل لصيقا جدا بالناس و بالحياة اليومية ، و لكن سرعان ما اختفى الفنانون من العراق ، إذ أن كثيرا منهم فضلوا مغادرة البلاد . و اذا أبدى أي شخص موهبة في حقل الكتابة أو الفن فان السلطة سرعان ما تجنده في خدمتها و تعرض عليه كافة أشكال الماديات المغرية (بيت ، مال ، .. الخ) . قبل عام ١٩٧٨ كان بالامكان إيجاد مثقفين في البلاد ، و إن كانوا في وزارة الزراعة، و لكن بعد بدء حملات التصفية الجسدية والاعتقالات فان معظم الكتاب و الفنانين غادروا العراق .

٤ -

عندما بدأ النظام في الاعداد لحربه مع ايران استخدم كل وسائل الاعلام في دعم الحرب ، و صارت الكتب و الأفلام و المسارح و المعارض الفنية و الموسيقى و الأغاني والملصقات ، و أي نوع من العمل الابداعي في خدمة أهداف النظام .

٥ -

غادرت البلاد في يناير ١٩٧٩ مباشرة بعد تسريحي من الجيش ، وذلك لأنني كنت عرضة للاعدام . ففي عام ١٩٧٨ كتبت ديوان شعر تحت عنوان (الجنود) ، في الوقت الذي كان الجيش في العراق يعتبر شيئا مقدسا و لا يسمح بذكر أية اشارة له ، بما في ذلك استخدام عبارات مثل بيرية الجنود أو أحزمتهم أو أحذيتهم . كنت أعرف أنني

تحت المراقبة و ملاحق أينما ذهبت ، و كنت معتادا على حفظ كتاباتي في أماكن مختلفة . كان من المستحيل الهرب عبر المطار ، لذا كان علي أن أذهب بالباص ، فاذا أردت عبور الحدود الى سوريا بالباص فلابد أن تحجز تذكرتك قبل عدة أيام حتى تعطي الشرطة السرية الوقت الكافي للتحري عنك و تمرير اسمك الى نقطة الحدود لإيقافك ، و ليس بامكانك استبدال العملة العراقية ، التي لا قيمة لهابالخارج ، إلا إذا كانت بحوزتك تذكرة الباص ، لذا فانت محاصر . و لكنني ذهبت الى شركة النقل ، وحجزت مكاناً واشتريت تذكرة ، و استبدلت نقودي في مصرف ، ثم أخذت سيارة أخرى إلى مدينة بالقرب من الحدود على الجانب العراقي ، ثم سافرت من مدينة الى أخرى بالنقل العام . كنت أعرف أن أمامي ساعات فقط قبل أن يصل إسمي الى نقطة الحدود . (..) .

في المدينة الحدودية (و كان معي إثنين من المصريين) طلب الضباط رؤية جوازات سفرنا و قالوا إنه بامكاننا الحصول عليها بعد وقت قصير ، و تركوني أتصبب عرقا من شدة الخوف . و عندما عادوا كان جواز سفري مختوماً ، و كان المفترض أن يسجلوا الكاميرا التي كانت معي لكنهم لم يفعلوا ذلك إكراما لانتظاري الطويل . في الواقع أنهم لم ينقذوا كاميرتي فحسب بل أنقذوا حياتي . عندما وصلت الى دمشق وجدت أن صدام حسين كان هناك يحاول أن يوحد البلدين . فكرت ، يا إلهي ، ماذا أنا فاعل هنا ؟ و قررت أن أسافر حالاً . كانت القاهرة هي الجهة الوحيدة التي يمكن أن أسافر اليها دون الحاجة للحصول على تأشيرة دخول . وصلت القاهرة في تلك الليلة وشعرت لأول مرة في حياتي بأنني حر حقاً . أمضيت أسبوعا هناك و من ثم ذهبت الى الجزائر ، و هناك حصلت على تأشيرة دخول إلى إيطاليا . أقمت في ايطاليا عاماً واحداً ، و عملت بوابا في معرض أوفيسي في فلورنسا. و هناك أنشأت مجموعة عراقية مجلة عربية فعملت محرراً ثقافياً و سياسياً فيها . قرأت بعض أشعاري في فلورنسا و فينيسيا ، و كتبت قصائد جديدة . كانت المرة الأولى التي أقيم فيها خارج العراق لكنني كنت أشعر بالأمان ، و بالغضب الشديد لمايجري في وطني. وضعي الوظيفي ومحل اقامتي كانا بائسين ، و تعرضنا للأذى الجسدي من قبل المؤيدين للحكومة العراقية ، و بعض أصدقائي أدخلوا المستشفى ، لذا قررت العودة الى الجزائر .

٦ -

في الجزائر أقمت مع ٢٤ عراقياً منفياً بينهم أطباء ، كتاب ، مهندسون ، أساتذة ، فنانون . كنا نعيش في حجرتين و ننام على المناشف ، و لم يكن مع أحد منا نقود . وجدت أنه من المستحيل أن أمارس الكتابة إلا في المقاهي أو على شاطئ البحر . أمضيت سبعة أشهر في تلك الشقة ، و على الرغم من الصعوبات فقد كانت تجربة عظيمة بالنسبة إليّ ، و قررت كتابة رواية عن تجربتي و عن تجربة بقية المنفيين .

حصلت على وظيفة مدرس في مدينة صغيرة تدعى (الواد) في الصحراء الجزائرية . أمضيت أربع سنوات هناك أكتب طوال الوقت ، و أنجزت مجموعة أسميتها (السجين السياسي) أهديتها الى أبي الذي قضى عشر سنوات في السجن عندما كان شاباً لنشاطه النقابي .

٧ -

غادرت الجزائر عام ١٩٨٤ ، لأنه حتى هناك لا تشعر بأنك في مأمن من الشرطة السرية العراقية التي تتبعك أينما كنت في العالم و تغتالك . و شعرت بأن الضغوط تزداد عليّ لذا قررت الذهاب الى بريطانيا و طلب حق اللجوء السياسي . في المنفى ، بعيدا عن وطنك ، يراودك إحساس بالفقد و بإنقطاع الجذور ، و كفنان ، فأنه من الصعب أن تظل مبدعاً . كثيرا من قصائدي تدور الآن حول المنفى ، مثل قصيدة (منفيان في ميسيله) و هي مدينة منعزلة في الجزائر . إنني أتحدث عن حياة زوجين عراقيين يعيشان هناك . هو مدرس و هي مهندسة ، و لكن الزوجة لا تتمكن من الحصول على وظيفة فتؤدي دور ربة البيت ، و تقضي ساعتين ، في كل صباح ، كي تحضر الماء من الدور السفلي ، ثم تمضي بقية النهار في تنظيف الشقة ، و في المساء ترتدي ملابسها كي تشاهد مسلسلا تلفزيونيا مصرياً ، و عندما يعود زوجها الى البيت يسألها لماذا لا تقولين شيئاً ؟

٨ -

معظم أعمالي فقدت في العراق . قبل شهر من مغادرتي البلاد كتبت قصيدة أحببتها كثيراً و أسميتها (العائلة) ، و اضطررت لتركها هناك . كنت دائماً أجد صعوبة في حفظ الشعر ، خاصة أشعاري ، و لكنني استطعت أن أعيد كتابتها عندما كنت في ايطاليا . عندما غادرت الوطن طلبت من عائلتي إحراق أعمالي التي كانت تتضمن المئات من القصائد . حالياً أكتب رواية من ثلاثة أجزاء، الجزء الأول عن حياتي في الجزائر ، و الجزء الثاني عن ثلاث عائلات في العراق نزحت من الريف الى بغداد ، وأسرد لتطورهم ، عبر أجيال عديدة ، منذ أن كانوا فلاحين في الريف ، حتى تحولوا الى البرجوازية الصغيرة في المدينة . بعضهم أصبح جنرالاً في الجيش و قُتل ، و أخرون قتلوا ، و بعضهم إنتهى بهم الأمر الى المنفى . إما الجزء الثالث فهو عبارة عن رسالة من شهيد عراقي في بيروت .

ترجمة : عبدالقادر عقيل

ثقافة المنفى، منفى الثقافة

شاكر العيبي

ملاحظات أولية عن
الثقافة العراقية في المنفى

تعدم الفاشية أسس الشعر الروحية و النفسية و الأخلاقية و الجمالية (مثلما يعدم العلم ، بالتوازي مع ذلك) . لقد نفي الشعر هو الآخر من المانيا مثلما جرى في التوازي الوقت ذاته للفكر الحر ، و لمحبة الأنوار و الحقيقة ، للوعي و الشرف .
لكن هذا النفي كان كذلك جسديا ، تلك كانت الحال مع الادباء الذين لم يستسلموا للبربرية الفاشية . يعيش دائما وسط شعب كبير كالشعب الألماني كتاب يظلون متعلقين بالتقاليد العظمى لماضي شعبهم المجيد ، يسهرون على وعي شعبهم و وعيه لذاته ، يجتهدون باستمرار في تطوير هذين الأخيرين ، لأنهم بالضبط كانوا يصارعون القوى المظلمة عندما بدأت هذه باثارة الاضطراب في الأخلاق و الفكر و لم تكن بعد قد أصبحت عوامل سياسية مسيطرة ، لأنهم لم يركعوا أبدا أمام هذه القوى المظلمة التي استولت على السلطة ، لأنهم واصلوا المعركة ضدها بالمزيد من الحزم و العمق (نقول العمق بما أن العديد من نزعات التطور القومي جرى فهمها بكل حقارتها فقط بعد بداية العصر الهتلري). لأن الشعراء ، و إن استبقوا أموراً كثيرة متنبئين ، لم يروا و لم يفضحوا إلا آنذاك الطريق الرهيب الذي سار فيه الشعب الألماني الذي أحبوه : لهذه الأسباب جميعا ، جرى نفيهم و الشعر معهم من المانيا النازية .

مقدمة / حول المنفى و أدبه ..

تترسخ يوما بعد آخر في منفى المثقفين العراقيين عبارة (أدب المنفى)
و كأنهم يلقون أمام التاريخ الأدبي و السياسي و لمن سيؤرخ اشارة معبرة عن طبيعة ما يكتبون اللحظة في منافيهم ، و يشيرون في آن للبرهة العابرة و الزائلة لهذا النفي

الأدبي الذي هو ليس اغترابا طوعيا البتة ، حتى لو ادعى بعضنا لأسباب معينة باغترابات محض أدبية . و إذن فقد بدأت شريحة أساسية من الثقافة العراقية تتأسس في المنفى لتنبثق منها بالضرورة كتاباتها المستمدة أو المتماهية مع الاشكالات التي يطرحها منفاها الجسدي الضاري ، وصار أدبها يتضمن اشارات و دلالات مكتوبة (بعيدا عن السماء الأولى)و هو يتأثر بالمحيط الجديد ، و بمؤثرات لم يكن قد عرفها من ذي قبل ، وربما عرفها عبر الوسائل الشفيفة ، الطباعية و الكتابية و الاعلامية .

لقد راكم منفانا الجسدي و الثقافي في أعماله ، مجموعة شعرية بعد مجموعة شعرية ورواية و نصا مسرحيا بعد آخر و أغنية إثر أغنية ، متواصلا عفويا الى اطلاق تسميته الخاصة على نفسه و على أعماله ، متجاوزا الغياب الموضوعي للنقد و لمشروع نقدي سيلزم وقت طويل من أجل ترسيخه و ثباته . راكم أعماله مثلما خلق تلك الاشكالات والأسئلة التي ترافق نشوء الظاهرة الفريدة و تصاحب نموها الجنيني صعودها وانطفاءها ، لكن اتجاهات و لغات و أساليب المنفى الثقافي العراقي لما تزل ، على الرغم من سنوات ثمان أو تسع في طور التشكل الرحمي و في إحدى درجات البحث الابداعي المواظب (هنا نشير الى أن عشر سنوات كانت بالنسبة للنقد العراقي كافية لاطلاق صفة الجيل على ثلاثة تيارات شعرية في العراق ، الخمسيني و الستيني والسبعيني ..)

من هنا فان هذه الملاحظات لا تطمح ، و تزهد ، بمهمة رصد و نقد كل ما كتب و يكتب في المنفى و عنه، و تعتبرها مهمة بعيدة عن مجال اهتمامها ، بل انها تنشغل و تشتغل على الظاهرة في اطارها العام ، محاولة رصد ما يعتمل في باطن الثقافة العراقية بعيدا عن الوطن من تململات و أفكار ، جاءت من قلق اللحظة و من عذاب المنفى و ليله البهيم إنها تجتهد – و الاجتهاد أحد درجات العلم على كل حال كما يقول السلف – أن تبحث في المجالات المعينة (شعر ، قصة ، رواية ، رسم ، بحث ، نقد ..) عن وشم المنفى و آثاره ، عن انحرافات و تطابقات النص معه ، عن مؤثراته و عن أحكامه الثقيلة و هواجسه الظاهرة بكليتها من خلال بعض التفاصيل وإنشاء هيكل لمعادلة من :

ثقافة ـــــــــــــــــ منفى

و منفى ـــــــــــــــــ ثقافة

أو بشكل علاقة مزدوجة :

منفى ـــــــــــــــــ ثقافة

لا يساوي طرفاها أحدهما على الرغم من التوازي الرياضي المتحكم بها .. منفى –

ثقافة لم يشهدها التأريخ العراقي ، و ربما أمكن القول العربي ، نجما عن صعود الشارة الواحدة التي أريد لها أن تعم بالقوة .

و أنه لأمر طريف ، قدر ما هو محزن ، أن نرى الى هذه الشارة في مواجهة المنفى الثقافي الذي تسببت به و هي تسلك سلوك النعامة غير معترفة بوجود ثقافة و أدب غير ثقافتها و غير أسماء أدبائها ، سواء بالبيبلوغرافيات التي تصدرها المؤسسة (ولعل ليس آخرها كتاب صادر سنة ١٩٨٦ عن جيل السعينات) أو بالعمل النقدي أو بالتحريم القديم و المنع الجديد لأسماء العشرات من كتابنا العراقيين و مبدعينا . لسنا إذن موجودين نظرياً في حساب السلطة القائمة اليوم في العراق ، و غير معترف بثقافتنا الموصومة بالتهمة ، بل أننا قد أصبحنا من بعض الوقت موضوعاً لأهجيات و شتائم أبرز شعراء المؤسسة السلطوية ، لنقرأ لحميد سعيد :

(..... ....

يا رفيقة

ما كل ها الذي يقال

فالذين استبدلوا وطنا .. بمقاهي البلاد الكئيبة

و استبدلوا رحما طيبا .. بصناديق موحشة

و الرطب الجني .. بفاكهة مرة

لي معهم كلام

لو ينفع الكلام

و ما كل هذا الذي يقال

....)

(مجلة : الأقلام – كانون الثاني – ١٩٨٧)

و لنقرأ نص سامي مهدي ، المنشور في مجلة – الطليعة الأدبية – عدد ١٠٥ / ١٣ أيار ١٩٨٥ . و المعنون الثمن) و المهدى الى (ش ، ل) أي الى كاتب هذه السطور .

و النص الشعري الذي لا يخرج عن سياق هذه اللغة الذي ألقاه يوسف الصايغ في أحد (المرابد) الأخيرة و ليس بحوزتي الآن .

إنها نماذج تذمنا و تذم منفانا قبل أي شيئ ، ليس بسبب الحرب العراقية – الايرانية ، التي نقف جميعا منذ البدء ضدها و ضد التدخل بشؤون وطننا العظيم من أيما جهة كانت ، سواء ايرانية كانت أم غيرها ، إنما قبل ذلك بوقت طويل ، عندما لم تجد نفعا وسائلها في دفع الجزء الحيوي من مثقفينا و ثقافتنا الى الدخول في حظيرة الطاعة وممارسة شعائرها . إن الأمثلة التي سقتها في هذا البحث للتدليل على صحة ما أذهب اليه ، بصدد ثقافتنا في المنفى ، هي في يقيني مجرد أمثلة لا غير ، لا تعني

استهانة بما أغفلت و نسيت ، كما لا تعني ثلما ممن تناولت أو مررت عليه مرورا ، لأنني مرة أخرى معني بالاطر العريضة التي تطرحها مجموعة أنشطة هذه الثقافة في المنفى. إن النوع الفني يظهر مشكلات العلاقة مع المنفى بطريقته الخاصة به لوحده ، و إن العلاقة الداخلية و التمازج بين الأنواع الفنية سيسمح بتكرر ظهور ذات المشكلات كل مرة فيها ، و لكن ضمن نطاق النوع المعالج . وبعبارة أخرى فانني من ناحية منهجية فضلت تكريس صفحات محددة للنشاطات الابداعية في حقل معين ، بالرغم مما يبدو معه من تعسف ومن نبرة باردة مجاملة و وصفية بعض الأحيان ، و من الابتسار و الاختصار الواسم ذاك الوصف حيث يحتاج يقينا كل حقل من الحقول دراسة معمقة معززة بالشواهد والأمثلة المبرهنة ، و لكن ما يشفع لي هو أن هذه الحقول ملمومة بسبب الموضوع على نفسها : المنفى . و ما يشفع أيضا هو أن ملاحظات وصفية لثقافة ما مثل ملاحظاتي إنما هي شرط أول للتعمق في رؤية الظاهرة برمتها . و في الحقيقة فان الشعر العراقي المنفي وحده يستحق دراسة ضخمة ، عليها أن تتأسس على نقد وتحليل مجاميع وقصائد ليست قليلة العدد ، كما ليست قليلة الشأن ، و إن قراءة العمل التشكيلي كذلك سيحتاج جهدا مماثلا ، مما يتوجب معه الحذر من اطلاق تعميمات بعيدة، و هو ما حاولته في الصفحات اللاحقة ، حذرا من السقوط بنبرة أحكام نهائية أو حماس نقدي لا طائل من ورائه ، مما بدا معه للبعض و كانني لا أود الخوض بما هو حار و دسم ، و كانني أتجنب المساس بسلبيات بينة أو أسماء ، و هو ليس كذلك ، لأنني معني بمسح عام يخوض في التفصيلات بقدر ما تعنيه على تشييد ملاحظة صحيحة ، لأجد في هذا السياق إن من الضروري استبار أفكار الكتاب أنفسهم ، فقمت بتوجيه دعوة / رسالة الى مجمل الحضور من مختلف المشارب على الساحة للإدلاء بدلوهم في الموضوع ، ولكنني لم أستلم إلا بضع اجابات أثبتها في أخرة البحث ، كما استفدت من مقابلات منشورة ، و هي على قلتها ، و الاختصار الفاحش ذي المغزى بواحدة منها ستعطي ، ربما ، ما تحتاجه صورة المنفي الثقافي من قسمات . إنني أرجو مخلصا أن يفهم العنوان الفرعي (ملاحظات أولية) كما ينبغي ، لأن ما يكتب هنا ليس إلا ملاحظات تأسيسية تنتظر المزيد من الدرس .

مدخل الى المنفى الأوربي :

لعل ظاهرة خروج جزء أساسي من الثقافة العراقية الى المنفى هي واحدة من الظواهر الأكثر دلالة و ربما الأكثر ايلاما على امتداد العالم العربي ، و على الرغم من أن البعض - و قد صرح جهارا - سيجد في هذا الزعم مبالغة جسيمة ، فان حجم ما يسمى بالمعطيات ، يبرهن ، بما لا يقبل الشك ، على أن الظاهرة راسخة و لا تقبل الجدل .

إن الثابت اللحظة : لقد خرج جزء حيوي من الثقافة العراقية بمختلف أنواعها الفنية و الأدبية ، و على اختلاف الاتجاهات الايدلوجية الى المنفى واعية في النادر ، و كراهية في الأعم الأغلب ، خرجت بعد أن مورست ضدها شتى الاحابيل و التضييقات تحت شعر الترغيب و الترهيب ، أو كلاهما معا ، و بعد أن التقت باستحالة أن تمارس نشاطها في داخل الاطار الضيق المحدد لها من قبل الدولة خفاء أول الأمر ثم جهراً ، و استحالة تطوير لعبها الفني و شرطها الديمقراطي . ها هنا لن يكون المنفى بالنسبة لثقافة أصيلة خيارا ، و سيكون أهون الشرور ، فهي ستفتقد من جهة الهواء الأصلي الثر الذي تعيش به و تقتات منه ، و ستفرض عليها من جهة أخرى أحكام مستجدة هي ضرورات العيش بعيدا ، ضرورات المناخ (أو المناخات) الثقافية و التيارات المتباينة التي ستجد نفسها في وسطها ، لكن هذه الجدة الجغرافية و الثقافية لا تتضمن بالضرورة عناصر سالبة ، لأنها جدة التلاقح و التزاوج بين مسائل و فصائل المعرفة و الخبرة الجمالية ، و إن هذا الخروج الجماعي الذي لم يكن مهجرا مختارا و لا منفى سعيدا ، سيجد نفسه مطالبا باثبات الذات و تبرير هجرتها الثقافية . إن الحديث عن جدة الثقافة إنما هو حديث نسبي مرة أخرى ، لأننا نتحدث عن هاجس عام في إطار الثقافة العربية ذات الظلال والتلوينات المتباعدة أو المتقاربة بين هذا البلد أو ذاك ، ثقافة عربية تمتد من المحيط الى الخليج ، دون خيوط تواصل محكمة الربط ، و لا انقطاعات فاجعة بحيث يمكننا على الدوام أن نتحدث باسمها عن مشرق و مغرب فيها ، و عن ثقافة مصرية وأخرى عراقية في داخلها ، مفارقة شديدة الاثارة ، و لكنها واقعية و ذات حسنات ، و لن ترضى الودويين الأقحاح و لا القطريين الأقحاح لحسن الحظ . إننا نتحدث بعبارة أخرى عن تنوع في الوحدة ، و عن تنويع ثقافي عراقي في داخل الوحدة الثقافية العربية المنوعة ، ما زالت هذه الثقافة تفيد من خلاله و تستفيد بعملية معقدة لا ندري فيما اذا كان صالحا القول أو صالحا الذهاب معه الى أن اتجاهات فنية قد ازدهرت فيها ، واتجاهات أخرى قد ذوت و ان اتجاهات أخرى بحاجة الى فحص و نقد ، و هو موضوعات الصفحات اللاحقة في هذه المحاولة ، سوى أنه في جميع الأحوال فان خلخلا و التباساً ما - ما شديدة الغموض و في غاية الحساسية - قد أصاب هذه الثقافة يجيئ من البرهة الراهنة لانقطاعها الاجتماعي ، باعتبارها نشاطا تاريخيا يتم على البسيطة ، و سياقا من الابداع و نقده في اطار مجتمع واضح القسمات ، يجيئ من تاريخية ثقافية مثل الثقافية العراقية راكم حولها مشكلاتها الخاصة و طريقتها في معالجتها الجمالية (فلقد أمكن باستمرار الحديث عن خصوصية معينة في الشعر العراقي مثلا) و يجيئ من البرهة القلقة التي لن تدوم الى الأبد لهذا الانقطاع ، ... (الانقطاع ..) ! هل هي الكلمة المناسبة؟ لعلها الأنسب بالنسبة لمثقفين عراقيين في مناف ليست عربية ، إن المشكلة هنا تزداد حدة و تتفاقم أمام انقطاع مزدوج > اسمه الأول : اللغة التي تكف في حالة نشاط ابداعي أن تكون فحسب نظاما ما ، إشاريا للتواصل و التوصيل ذا المستوى الواحد البسيط لترتفع كما هو الأمر في

الممارسة الابداعية الى نشاط خلاق في اللعب بها و عليها . في تفجيرها و اثراء النص في ابداعها باختصار . لكن ابداعها يستلزم حضورها و استحضارها الدائب يومياً ، الأمر الذي لا يتوفر بحكم القسر و القهر المسمى منفى لدى منفيين في شتى أرجاء القارة الأوربية و في بلدان أخرى لا تتكلم العربية ، لقد كنا نفكر كثيرا عندما كنا في البلد الأصلي عن الأسباب التي تؤدي وتودي بمبدعين عراقيين خرجوا الى أوربا ، الى صمت دام بالنسبة لنا طويلا ، و ها نحن اولاء نكتشف الأمر أخيراً .
إن قصيدة كاظم جهاد (مرثية نفسي) المنشورة في احدى المجلات العربية الصادرة في باريس تصلح هنا مثالاً قوياً ، لمَ يرثي جهاد مستعيرا عنوانه من وايتمن نفسه ؟
إن قراءة اجتماعية للنص ستكون مفيدة :

كاظماً يا عزيزي

....

ينبغي الآن أن أنبشك
من تلال الكلام
ينبغي الآن أن أنبشك
من غبار القواميس و الكتب
أن أصبح بهذا الركام من البشر السادرين
صاحبي مات من كثرة أشغاله
و من قلة الزاد ، من طول صمت القصيدة)

لسنا مولعين بقراءات من هذا القبيل ، بل نجدها أحياناً فظة و فظيعة اذا لم تحل في محلها من الاعراب . لكن الدلالة الأساسية في النص تشير الى مشكلة من نوع أخر . الصمت الصمت المعبر الذي يلف المثقفين عربا وعراقيين في أوربا انهمكوا بتعلم لغات جديدة ، فتكيفوا رويدا رويدا مع مناخاتها الثقافية و أنماطها في التعاطي الجمالي ، وصولا الى شبه قطيعة مع الرحم اللغوي الأول ، قد تبدو هذه الفرضية رجما بالغيب أو مجرد تخمين متحذلق ، عندها سنحتاج الى تقص من نوع جديد لن ينقطع بدوره عن اعطاء اللغة دورها الصحيح الواضح في انشاء أغنية المنفى و المنفي . يبقى أن نشير بهذه المناسبة الى أن انصراف البعض - ربما كانوا قلة ولكنها قلة معبرة - الى الكتابة بلغة منافيها الأوربية ، و انصرافهم الى نشاطات ثقافية بتلك اللغات يبلور المشكلة و يصعدها الى مستوى مأزق جدي ، إنهم مزودون بإرث ثقافي موسوم باشكالات و جذور و هموم أخرى - تقف بالطبع في التعارض مع الانساني والشمولي - يتواجهون مع قراء لم تتوافر لهم الفرصة لتأمل جذور تلك الاشكالات وأنهم لهذا السبب بالذات يمنحون الثقافة التى يكتبون بلغتها الحق بالحكم على ابداعهم أحكاما

ثقيلة ، لعل الهامش أقساها . إن ما كان يشفع لثلة من الكتاب المغاربة الكتابة باللغة الفرنسية هو استلاب شامل لا يصلح تعميما ، و أن المفارقات و التفجرات المزعومة التي أثاروها في اللغة الفرنسية لا يمكن احتذاؤها بنفس الطريقة ، طالما لا يمتلك آخرون ذات السيرة الدامية مع غزو اللغة و الثقافة الفرنسيتين في بنية المجتمع المغربي . لقد كتب أحد الكتاب العراقيين لكاتب هذه السطور يخبره بأنه يحاول أثناء كتابته احتياز لغة ثالثة على حد تعبيره ، و قد كان ، يقينا ، يتكلم عن حساسية اللغة و ليس عن قواعدها النحوية الثابتة ، أمن الممكن حقا الفوز بهذه اللغة الثالثة في فترة قصيرة لم تتجاز السنوات العشر ؟ و اذا ما كان أدب الكاتب العراقي أو سواه مشبعا برائحة بيئوية هي في ذات اللحظة حساسية لغته الأصلية التي أجرت مفرداتها تشذيبا وتطهيرا ، و راكمت المعاني و الظلال الخصوصية فهل يمكن أن تنقل تلك اللغة (الثالثة) هذه الرجفة البكر الأولى ، أو تنقل بعضها عبر وسائط لغوية لا تمت (لعقل اللغة الأصلية بصلات داخلية يمكن الاحتكام اليها ؟ ها هنا تظهر جلية مفارقة المنفى . فهو من جهة يمنحك أشياء جديدة (لغة جديدة) ، و لكنه من جهة أخرى يمحو بعض الفعاليات اللغوية القديمة و يزيل عاداتها في الفكر و الكتابة ، حتى أن البعض يصل الى قلق مرير في السيطرة على جملة عربية محكمة كان منذ الوقت يحكمها تماما بسبب العادة اللغوية المستجدة التي من جديد لا صلات قوية بينها و بين العادة اللغوية الأم .

إن النشاط الذي نسميه (منْ – لغة) لا يساهم باثراء المعنى العميق عربيةَ كاتب من الكتاب ، بل أنه يمارس شتى الألاعيب لاضعافها ، هذا المقام ليس مقام اللغة الأسبانية على سبيل المثال في أمريكا اللاتينية التي ساهمت بتخصيب لغة الغازي الأسباني .

في حوار مع كارلوس فونتيس (مجلة الكرمل – عدد ١٨) يجيب الروائي على سؤال بصدد تغيير كتاب أمريكا اللاتينية كليا اللغة الأسبانية ، قائلا بأنهم لم يستطيعوا أبدا الشعور بأن الأسبانية كانت لغتهم (فهي لم تكن فقط اللغة التي هدمت وابادت الثقافة السابقة ، و إنما كانت غريبة على الخلاسيين و المولدين ، بما أن المولدين البيض الذين ولدوا من أسبانيي أمريكا اللاتينية سرعان ما اجترحوا لأنفسهم لغة خاصة . إن الشاعر الكوبي خوسيه ليثما يرجع بكثرة الى هذه اللغة في دراسته عن التعبير الأمريكي اللاتيني ، و يرينا كيف أن المولدين ساهموا أيضا في تهيئة نوع من (الغزو المضاد) أو (الثقافة المضادة للغزو) فحملوها بسلسلة من التعابير الباروكية واساسات الجسد والحركة و الذوق و الدين التي لم تكن اللغة الأسبانية (النقية) والمعمقة قادرة على احتوائها) و ينتهي الى القول (بأننا لم نقبل لغة الاصلاح الأسباني المضاد التي جردت الأسبانية من كل امكانية خلق أدبي بعد ثرفانتس وكيبيبدو وغونغوار ، نعم ، لقد مرت قرون عديدة حتى أمكن ظهور كتاب كبار بالأسبانية ..) .

لكن فونتس يتكلم عن اسبانية يجري الكلام بها هنا و هنالك ليجري بعد إذن هجران

بعضها و إثراء بعضها ، وصلا الى تلك (اللغة الثالثة) التي يفجر كتاب أمريكااللاتينية من خلالها إمكانات الاسبانية التعبيرية بأعمالها المعروفة على نطاق واسع اليوم. ستظل هذه المشكلة صغيرة و محصورة و لو أنها على تماس مباشر بالمشكلات العامة التي تطرحها المنافي على ثقافة خصبة و متعددة الأوجه .

إن السنوات التسع ، اذا ما انطلقنا من عام ١٩٧٩ ، التي انصرمت تسمح كما نظن بالقاء نظرة و اعادة حساب مع ثقافتنا في المنفى . إن نقد و إعادة اكتشاف العناصر المؤثرة فيها ستبدو محاولة اقحامية و مستعجلة ، وسيفضل البعض تأجيلها مقدمين عليها ما يعتبر عادة الأوليات الأكثر جدارة بالامتحان ، و سيفضل آخرون حماسيات تشجيعية لسنا من أنصارها ، و من أنصار نقد جريء و نقد نقد لن يفيد أعداء هذه الثقافة و لا أعداء حركتها الديمقراطية المناضلة ، قدر ما يسهم في ترسيخها و تصليب جذورها ، إننا نفضل درسا نقديا ، منسيا ، أو يجري تناسيه عن عمد مع الأسف.

مدخل الى المنافي العربية

في الحركة الشعرية :

خرج الشعر العراقي الى المنفى مثقلاً بارث جميل ، و بخروجه فان قطيعة واضحة قد وسمت حركة الشعر العراقي عامة ، قطيعة بين قطبين ، أحدهما يمثل بدرجات متفاوتة السلطة العربية متلبسا طروحاتها و مزاميرها ، و منافحاً عن شخوصها وأهدافها ، بلغة تميل يوما بعد الآخر الى تنميط بلاغي ثابت يجري التنويع عليه ، أوالخروج عليه الى تنميط من نوع آخر ، صوفي ثابت هو الآخر ، هذان التنميطان يفترقان شكليا و يلتقيان جوهريا في خلق طقوس من الهيبة حول مفاهيم المؤسسة وحرق البخور و تقديم النذور أمام هيكلها المقدس ، بينما ينحو القطب الآخر نحو تعددية اسلوبية بلغات حسية في الغالب ، منحى يتأتى من أن هذا الخروج الشعري قد حمل شتى التيارات الشعرية و بمختلف الاتجاهات العقائدية (المصنفة دوما بالنسبة لمؤسسة الدولة في خانة العداء و اللاشعرية). إن ما هو سياسي في الشعر العراقي في المنفى ، أو ما يحمل نبرة هم سياسي فيه ، لا يمكن دون مجازفة ، أن ينفصل عن بنيته الجمالية ، هنا يستمد هذا الشعر بعض أوصافه من التاريخ القريب للشعر العراقي الحديث (نستشهد بانشودة السياب الشهيرة و بالأشعار التي رفعت البياتي الى مجده وبنبرة شعر بلند الحيدري و بمجمل أعمال سعدي يوسف التي لا تحتاج الى المزيد من البيان في هذا السياق) .

لقد حملت موجة الهجرة جمهرة من الشعراء من الأجيال كلها و الطرائق كلها ، و هذا ليس محض مصادفة ولا مجرد سهو ، مما كان يظن معه بأن حركة ستخفق في

قلب المنفى ، مفجرة الطاقات الشعرية العراقية على أخر مدياتها ، دون أن يجري التفكير بالعقبات أمام تفجر من هذا القبيل ، الأجيال كلها في حوار مفتوح بدا للحظة زاخراً و حماسيا لم تتراجع بالرغم منه مفهومة الأجيال القديمة عن توكيد نفسها وخططها دون أن يتراجع ممثلو هذه الأجيال عن توكيد طرائقهم في الكتابة إلا قليلا ، هكذا يذهب سعدي يوسف بنشاط شعري دائب ضمن الخطة نفسها ذات النزوع المثقل بالتفاصيل الشفافة و التفاصيل الدنيوية ، الخطة التي تمرق أحيانا نحو تجريبية شكلانية تحافظ على مسافاتها الضرورية بين الجمالي و الواقعي . و هكذا يبقى فوزي كريم دائرا في فلك غنائيته الأسيانة شائحا عنها أحيانا نحو نثرية نافرة لا تستقيم مع تجربته المعهودة ، غنائية مفكرة ، مفتكرة :

(كل شراع لم يعد ،
يا مخافر الحدود
لا باحثا سدى عن المعنى
بل هربا من المعاني السود
فهو شراعي)

بينما يكتب صادق الصائغ بتنوع اسلوبي لا يستقر على لغة مقيمة مكتنزا بحرقة وبصوت جموح مباشر ، هاجرا الى حد بعيد المخيلة المنفلتة السائدة في مجموعته الأولى (.) ، منغمرا بالواقعي ، الواقعي الذي لا ينفلت منه أيضا شاعر مثل جليل حيدر القادم من تجربة أخرى و بمصطلح (الضد) الذي أشهره في القصيدة الشابة العراقية ، مؤسساً على رفض السائد و هو يستخدم نبرة استفزاز و اقتحام ، واصلاً متواصلا به الى مجموعته الأخيرة (رماد الكاكي) حيث حزن شفيف يطغى عليه أحيانا صوت الأنا العالي الفرد ، دون الذهاب معه الى نهايته الفاجعة ، الفجيعة المستوحشة في غنائية أخرى يطلقها نبيل ياسين بصوت أجش ، عذ ب و هو يهجر (العائلة ياسن) الى العائلة الأكبر محتفظاً بالمناخ أو ببقايا مناخ شعري ستيني لن يوجد إلا قليلاً لدي شعراء لاحقين (عبدالكريم كاصد ، مهدي محمد علي ، مخلص خليل .. مثلا) هنا تبرز ، كما لدي كاصد ، جماليات الواقع أو جماليات المكان ، إذا ما استعرنا من (باشلار) عنوانه ، في انشغال باللغة الشعرية و انصراف أكبر الى الموضوع الشعري ، محاولا إعادة تكوين الواقع و تعميره من جديد ، مستقرئا فكرة الأبوة ، ممجدا إياها في مجموعته (الشاهدة) ، أوفاحصا حميمية مكان الهجرة السياسية في (وردة البيكاجي).
في حين ينصرف مهدي محمد علي الى المشهد اليومي نفسه منشغلاً قليلا بلغته الشعرية ، و مشتغلا أقل على المناخ التخيلي . إن سمة الاشتغال و الانشغال ستظل تحكم أشعار شاعر مثل مخلص خليل أيضا ، شاعر لم يجر الوقوف ازاء شعره نقديا (وهو حال

مجمل الشعراء العراقيين الذين نتحدث عنهم هنا مع الأسف الشديد ، ولكن بدرجات متفاوتة) . لقد تنقل مخلص من تجربة إشهار السياسي في شعره الى تجربة تأمله ، متناوباً شتى المناخات اللغوية ، نازعا نحو وحدة ايقاعية و وحدة بنائيةصارمتين . ان التاثيرات والتناوبات بين اجيال الشعر العراقي او بين اتجاهاته التعبيرية بعبارة اخري ، غير متوقفة عن العمل ، انها تعطيه سمة عامة في المنفي وهو يعالج الموضوعات نفسها تقريبا ، و لكنها تعطي لكل شاعر من الشعراء سماته أوبعض السمات الخاصة به ، هكذا سيحاول عواد ناصر ، مثلاً ، أن يفتح باب الذكرى على مصراعيه . ذكريات بيوت وأمهات و أحياء فقيرة ، معالجة ضمن تصور معين وسط كارثة الحرب بينما يحاول شاعر مثل هاشم شفيق (و هو الشاعر المكتوبة عنه النقود الكثيرة لسبب و لآخر)الفرار الى قصيدة قصيرة مغناة ، و لا أقول غنائية ، مفنتزاً الواقع بها الى أقصى ما تسعفه المخيلة و الذاكرة . لم أذكر سوى نماذج فقط ثابتة الحضور على الساحة الشعرية الحاضرة في المنفى العربي .

لقد حطت هذه الحركة بارثها القديم في الشتات العربي الذي تتوزعه بدوره محاولات و اتجاهات شعرية مهمة في لبنان و سوريه و بين الوسط الثقافي الفلسطيني و اتجاهات أخرى في اليمن و المغرب العربي . و لقد ساهم الشعراء العراقيون بأجيالهم و مشاربهم المتعددة ، في مشروع القصيدة الحديثة ، سواء بالمجاميع التي أصدروها أو بنشر قصائدهم في الصحافة الأدبية (لا ننسى عدم خلو الملحق الأدبي الاسبوعي لجريدة السفير اللبنانية من عمل شعري أو أكثر لشاعر عراقي ، كمل لا ننسى مساهماتهم الدؤوبة في صحافة المقاومة) الأمر الذي سلط الأنظار مرة أخرى الى الفعالية الشعرية الجادة التي استمروا يمارسونها منذ ١٩٧٩ و ما قبل حصار بيروت ١٩٨٢ و حتى اللحظة .

إن التاثيرات الواصلة جراء المنفى العربي لا يمكن أن تحسب الآن بدقة ، و لكن يمكن تلمس بعض النتائج التي نجمت عنها ، فقد أعاد الشعر العراقي من جديد لفت الانتباه الى شعرية الواقع الى غنائيته ، و إعادة استيهامه بطريقة لا تفرط لا بالشعر ولا بالتماسك البنيوي للقصيدة ، الأمر الغائب في اتجاه أساسي في الشعر اللبناني ، هناك كان ما سمي بشعراء الجنوب اللبناني ، و شعراء عراقيين يجدون الكثير من الصلات الحميمة بينهم ، حى أنه يمكن الزعم ببعض المجازفة أن الشعر العراقي المنفي جنبا الى أو لنك ، قد خلق شكلا واسعا بالتنظيرات المهيمنة في الشعر اللبناني والمهيمنة الآن ، الداعية الى عوالم فنتازية فحسب ، الى نوع من ميتافيزيق لغوي الى صرف على اللغة و الى احترام مفرط لبياض الورقة . إن انفتاح الشعر العراقي على الجدة و المغامرة ، و نتكلم عن أحسن نماذجه ، قد جعله يمسك بالتوازن الصعب في المعادلة الشعرية ، و خلق له احتراما لا ينكر (كتب عباس بيضون عن معظم المجاميع الصادرة في بيروت برصانة نقدية) إنه انفتاح مزدوج ساهمت أجواء الحرية بل الليبرالية في لبنان

الغائبة و المغيبة في العراق في بلورته ، كما أن الحوار الذي سيتم على أرضية نضالية وشعرية في آن واحد بين العراقيين و نظرائهم الفلسطينيين سيعمق تلك الحساسية القديمة المثقلة بالأرض في الشعر . إنه انفتاح ذو تأثيرات يجدها البعض سلبية لدي قلة من الشعراء ، ذلك أن الجو الليبرالي سيساهم أحيانا بنشر مجاني لنصوص يشك بقيمتها الفنية ، نصوص شكلانية تماماً ، و لا تمت بكبير صلة الى تاريخيته الثرية . إن الأساس الذي ستنطلق منه الصفحة الثقافية في جريدة (النهار) البيروتية في نشر قصائد الجميع الحاضر على تلك الساحة المزدهرة في تلك اللحظة ، الأساس الداعي الى نزع الهيبة و القداسة عن العملية الشعرية ، و نشره بالتالي مجاوراً للكلمات المتقاطعة ، و الداعي الى أوسع ترويج ممكن لمفردات الأشراق و التسربل و الدعوة الى أوسع تحطيم ممكن للبنية التخيلية السائدة ، هو أساس ذو حدين و تغيب أثنائه الممارسة النقدية . إن شوقي أبو شقرا ، و هو شاعر جيد لم ينشر مجموعته الأخيرة إلا بين دفتي مجلد في غاية الأناقة و الترف الذي لا علاقة له بطريقة نشر الشعر التي تدأب عليها (النهار) . إن المجانية الشكلانية البارزة قليلا في لبنان لدي شعراء عراقيين ، والتي روّج لها محررون ثقافيون لبنانيون لا تشكل منعطفا حاسما في الشعر المكتوب في المنفى ، قدر ما تشير الى انفتاح حر و تأثيرات لما تزل تفعل فعلها في التجربة الشعرية ، و في سياقها يمكن أن نضع شعرا عراقيا كتب في أوربا تحت تأثير التفاعل والانفعال بتجربة الشعر الأوربي الجديد ، المنشغل بالتعامل مع اللغة بالدرجة الأولى ، هنا يحاول شاعر مثل شوقي عبدالأمير في مجموعته (مدن الدخان البشري) أن يطوع هذا التأثير للبنية اللغوية العربية و لموضوعاته الأثيرة ، و لو أنه يبقى محتفظا بنكهة وقاموس و ايقاع ستيني لا تخطئها العين في تلك المجموعة ، و بانصراف الى تجربة شبه صوفية مهمومة بالباطن في مجموعته (حديث النهر) . إن التأثير بالمناخ الثقافي الفرنسي يبدو لي واضحا في مثال عبدالأمير المتيقظ لعدم الانغمار الكلي في مياه منفاه الثقافي ، المحتفظ بعدته اللازمة لذلك ، و إذن فان الكتابة الشعرية تبدو محاولة للموائمة بين العدة القديمة و المناخ الجديد المتغلغل بطرقه الغامضة في الروح الذي لن يكون إلا التسلح بوعي نقدي كفيلا بموازنته و وضعه في الاتجاه القويم . و إذن كذلك تبدو بعض هذه الكتابات و بالضبط بسبب ضعف الوعي النقدي و قصر عمر التجربة الشعرية تبدو و قد انفلتت بغير ما هدى ، و انسربت ضائعة دون قسمات تحت وهم الحداثة أو حداثة ضيق الأفق ، انها ، من جهة أخرى تشابه هذا الانفلات (النثري) في شعر عراقي مكتوب في المنفى ، القادم هذه المرة من تأثيرات سيادة قصيدة النثر في بلد تجد فيه هذه القصيدة تأريخا و ذروة : محمد الماغوط .

في اسلوب هذا الشعر سنلتقي بسهولة في الكتابة الشعرية و هجران للمخيلة و الاتكاء على وصف نثري للأشياء ، وصف لا تجهد القصيدة فيه باضاءة الكثير ، وصف ساكن لا تخلخل اللغة فيه أمراً و لا تتغلغل بشيئ . إن هجران الوزن و الانتقال الى

شعر منثور ، و هي خطوة لم تحدث دون ممهدات و ليست بدون مبرر جمالي ، انها انتقال ضروري ، في تقديري ، نحو تأصيل المعاصرة و توكيد جدة الرؤية ، وهي ليست العلة في انشاء شعري عليل سأسميه مؤقتاً بـ (طريقة خاصة) في الكتابة ، و أزعم بأنها تجد رواجا في بلد يمتلك بدوره عراقته الشعرية مثل سوريا . طريقة تعتمد أساساً على (الكلام فقط ، و الكلام الذي يفتقد سخونة الحوار) نفسه على حد تعبير ممدوح عدوان الذي يضيف بأنه يشكل (نموذجا لما ليس شعرا و لا تتوفر فيه حتى النكهة التي تتوفر أحيانا في الشعر المترجم) . (ولا يبتعد عن قاموس الصحافة اليومية) . كما يذهب حكم البابا ، طريقة أصابت عدواها بضعة شعراء عراقيون يقيمون في ظل التأثيرات ذاتها ، وقادتهم الى سهولة و تساهل لا يسمان شعرنا كله ، و هي عادة ضرورية بل جاءا من رحم التغيرات بل الانعطافات الحادة القادمة من وقائع المنفى السياسية و الأدبية و ستصيب أو ما تصيب الشعراء الشبان الذين يلاحظ سعدي يوسف بأنه : (لا يمتلكون منبرا مشتركا و لا وشائج حميمة بينهم ، لقد أمست الحركة المشتركة تحركا انفرادياً أو فرديا ، هكذا افتقد الشعراء الشباب الهواء الذي يساعدهم في التطور و تبادل الخبرة ، كما أن ظروف العسف و المنع ،و حواجز المطبوع أدت الى انكفاء واضح في الاحتياطي الفني للشعر العربي الجديد ...) مجلة (اليوم السابع) ٨ كانون الأول – ١٩٨٦ .

ظروف العسف ، و ظروف المنفى كذلك

المنفى الذي سيعطي الشعر العراقي بعد بضع سنوات في منفاه نبرة شجى وأسى لم يألفهما تماماً ذي قبل ، شائحا صوب (رثاء) متواصل لعزيز مفقود . الرثاء : هذا هو اسم النبرة الجديدةفي السنوات الأخيرة التي ستواجهنا في معظم النماذج المنشورة :

[كدت أقول / لثقب في الحائط / أخيرا سدوك / كدت أقول / لصديق العمر / فقدتك / كدت أقول / لبزاق مختبئ / هل في وسعك ايوائي لنهار واحد] – صادق الصائغ /شظايا .

[هذا النقر / هذا النقر الهادئ / هذا النقر الهادئ فوق الدف / هذا النقر – الدق – الدق الصعب – الدق الحرب / الضرب المصعوق – البوق الناعق –/ في نافذة الأفق المسدود ، الدود ، الرايات السود ، / الولد المفقود ، الدق – الحرب / من يسمعه / من يصفعه / من يوقد شمعته في البيت المكفوف / من سيزف الليلة بين عويل و دفوف] عواد ناصر – زفاف .

[هذا شتاء آخر / و عليّ أن آوي الى كنف الشتاء / ماذا تنال يداي من أطراف هذي الأرض / غير قصائد / و سجائر محروقة ، و كؤوس خمر / أو صداقات

مؤقتة و أسماء النساء / هذا حصار آخر / و تضيق مقهى في الرصافة / مثلما ضاقت على الدانوب مقهى " الأنجليكا " / مثلما ضاقت بقلبي الاكبرياد ..] **نبيل ياسين** - شتاء آخر .

[فنزلت هنا .. / و تذكرت أني بباب غريب / و أني يد هاجرت عن يد / ومناف تطارد منفاي / إني الشقي العراقي / ها هنا هابط - قذفتني المياه / كأني شراع تحطم قربك / أني جوال يطارده الرعد / أني هباء تناثر بين هباء / و أني ينابيع نفسي] **شاكر لعيبي** - مقطع.

[سأمسك في يدي حجرين / من ماض و من مستقبل ناء / و أركض .. / حين يلمسني الهواء أطير / أدعو الريح أن تأتي إلي / فلا أرى أثرا /سأجلس كاليتيم على الطريق / و أندب الحجرا] **عبدالكريم كاصد** - حجر .

[من تل محمد / من حي المنسيين / سأهبط في الليل الى -كمب الأرمن - .. / من ينصرني الآن هناك / ادارة كاترين / أخمارتها / أم جارتي الريفية / لا أحد يسأل عنك / تقول امرأة الحانة في قبرص / آنئذ / أطفئ أسئلتي في منفضة / و أهيم كسكير / كي أصعد ذاك التل / مخموراً ، منطفئا ، مختلاً / أبحث عن بيتي / في تل محمد / لكن لا بيت هناك / لاشيئ سوى أعلام سوداء / ترفرف في غبش محتل] **هاشم شفيق** - بحث عن زمن ما .

مرثيات للذات مرة و للوطن مرات غالبة ، حين نتلمس حزنا شفيفا مشرقا متصاعدا ، لم يكن سائدا منذ حين في القصيدة العراقية ، يعطيها الآن سيمياء جديدة ، متألما و حداديا قلباً ، و يعطيها على مستوى فني ايقاعا حادا الى حد بعيد لا يفتش كثيرا في اللعبة الشكلية الضرورية من جهة (في الأمثلة السابقة ربما أمكننا الحديث بحذر عن لعب ايقاعي في قصيدة عواد ناصر) كما يسم شعراءها بميسم الاشتراك في العديد من العناصر اللغوية و الرمزية ، رمزية تحول و تستحضر الرصافة و الكرخ وتل محمد .. الخ . و بيوتاتها و ماضيها الساحر و السحري الى مصاف طقوسي و شعري بالتالي . يكون الرثاء هنا عملا من أعمال الضد ، ضد المنفى و ضد النسيان الذي يجلبه المكوث طويلاً في المنفى ، و يسم من طرف خفي بنقد الحاضر و الماضي القريب الذي قاد الى المنفى . امنه رثاء متلالئ و ليس صوت الشاعر فيه بصوت شديد الانكسار و لا نستشف فيه ضعفاً أهوج ، من هنا تكتظ تلك النماذج بالأسئلة ،. اننا ازاء مرثيات متسائلة ، و تساؤلات حزينة و مصعوقة . هكذا تتشكل المعادلة (رثاء - أسئلة) في خضم استعادات حارة بحيث يمكن التساؤل الى أي مدى يمكن المضي بهذه الأسئلة و تلك الاستعادات :

[ماذا سيصطاد العراق مبحرا من ألف عام / أوردة مائية ؟ لؤلؤة الأبناء / و هي تغوص في القرار / قد عادت الدنيا و ما عاد العراق / لا حد يبدو و هو مبحر ..

ماذا سيصطاد / أسماكاً ترود البحر ؟ بعضا من محار / أحذية رماها الناس / أحذية و أوراقا ترود البحر منذ ألف عام / أوردة الموج شباكه / أجسادنا المقطوعة الأعناق / سنارته .. ماذا سيصطاد العراق / أوقية من الرمال ، سلة من الماء الفرات في الضفة الأخرى تنام الكائنات / و تولد الحياة / الله في المسجد ، و الحياة في الساقين / و هو مبحر ، ماذا سيصطاد / أبصرة ضلت إرضها ، و باعت زنجها / أضرحة من متنبي بها الدنيا تنوء / أجرة من منزل الخليفة المأمون / يحيلها ثانية / أبناؤه في الماء و السماء / موتى و أحياء يموتون .. مناف و تراب / و هو مبحر .. ماذا سيصطاد / أنطفة و طينة ترودان المياه / أنطفة و طينة تريدان الحياة] فاضل السلطاني - النشيد الناقص .

[مدن جبتها / مدن دوختها رياح السموم / مدن قاحلة / مدن ترفع الساق للبدوي / مدن ترفع الساق للبدوي / مدن سافلة / مدن تختفي أزقتها في السجون / مدن مثل زهو الصبايا / مدن عفتها / مدن تركتني بلا تذكرة / مدن لن أعود اليها / مدن لو تجيئ الي / مدن مررت بها ساهما / مدن قتلت صبوتي ..] وليد جمعة - زقاق في مدينة بعيدة .

و اذا ما كانت التجربة الحياتية تقدم انهماكا متواصلا في المنفى ، و معاناة تحت وطأة الضرورة ، لأفضلية لتأمل جمالي مترف فيه أعني انهماكا بالضروري نفسه في عراء المنفى و انقطاعات جذوره ، فهل يمكن تحقيق انجاز فني أو جمالي في داخلها ؟ إنه سؤال مثير ، ولعله يؤول لنا انقطاع حماسات بعض الشعراء من أجيال متفاوتة للكتابة الشعرية و للنشر ، و صمت الأخرين . إن الكتابة في شروط شبيهة بالشروط التي يكتب في ظلها غالبية الشعراء العراقيين و الصدمات المتوالية التي تفاجئهم بها أرض متغيرة ، شديدة الالتباس و عديمة الرحمة ، تقدم مفتاحا ذهبيا لقراءة أشعارهم وقراءة صمتهم أيضا . شروط لم تنف من جهة أخرى نوعا من المواضبة الشعرية المتفاوتة المستوى غير الثابتة اسلوبيا ، المرتكزة دوما على الموضوع المحدد الموصوف قبلا بذات الرؤية تقريبا ، و لم تنف بروز أسماء جديدة الى الساحة الشعرية ، تهيأت منذ بعض الوقت في العراق ، و لكن لم تتح لها المناسبة أو لم تستكمل لحظتئذ عدتها للمساهمة الواضحة . لقد شهد منفانا الثقافي ، سأجازف بالقول ، ولادة جيل من الشعراء و الكتاب بعيدا عن الوطن ، مشكلين ظاهرة تستحق و يستحق نتاجهم دراسة جدية ، سأسميه بـ(جيل المنفى) . إن رعد مشتت و هو على كل حال من جيل أخر ، يحاول في مجموعته (الجنود) الصادرة في بيرت سنة ١٩٨٢ ، أن يستنبط من المشهد القاسي الواقعي للغاية أفقاً لشعره مرتكزا على جملة قصيرة ، صارمة ، ذات عنف داخلي مرتج ، لا أثر لشعرية جاهزة ، أو فلتقل سائدة فيه ، متأسساً على موضوع جد شائع و لم يجر التوقف عنده ملياً ، الذهاب لتأدية الجندية ، الانتظارات الممضة لامهات لامهات منكسرات بعيونهن الحزينة كاسراً حدة صرامته التخيلية تلك في شعره الأخير مثلا (قصيدته الأخيرة - مسلة الغرام - العدد -١ / مجلة البديل (الى مزاوجات و التقاطات

واقعية و تخيلية يمكننا العثور على نظائر لها في شعر أقرانه . بينما لا يحيد منعم الفقير في مجموعته (بعيدا عنهم - دمشق -١٩٨٣) ، (المختلف - دمشق ١٩٨٦) عن خطته الأصلية المستندة الى قصيدة نثر قصيرة ، تريد التقاط صورة فوتغرافية موحية أكثر مما تنفعل بخلق طقس متخيل ، حيث من الصعوبة بمكان العثور على صورة شعرية في البيت الشعري عنده ، ليبدو و كأن القصيدة برمتها انما هي محاولة لصورة من هذا القبيل ، أو لكأن القصيدة القصيرة كلها إنما هي استعارة مجازية لقول الغَصي ، في الوقت الذي لا يقف فائز العراقي في مجموعة (الينابيع - دمشق ١٩٨٤) على أرض ثابتة ، أقصد يقف بين قصيدة منثورة و نص موزون ، متبعثراً بين لغات شتى ، ونلمس بين طيات شعره أحيانا انفعالا صاخبا ، أو محض استعارات شكلية (مدارج الفسق ، طحالب اليأس ، معصم الفجر ، جرار الفجر ..) و لا تنعدم فيه التياعات صافية لشاعر مثل جمال مصطفى ، الذي يختار منذ البدء لغة غنائية ، ناعمة تصدح بقواف وتتناثر ببهجة مرة ، بقصيدة قصيرة أيضا تشدد على نهايتها الموقعة المحسوبة أحيانا أكثر مما ينبغي ، في الوقت الذي يختار آدم حاتم ، ومنذ البدء أيضاً هجران أي صوت غنائي مفضلاً قصيدة تنوء بتيار نثري يهدر جامعاً فيها الشتات محاولاً تعمير غرائب خيالية فيه ، و كأنه يتعمد أن لا يترك اثارة شخصية فيها ، لتنتسب الى نفسها ، أو الى نطاق شعرمسحور . بينما يذهب خالد المعالي بعيدا (خصوصا في مجموعته - في رثاء حنجرة - الصادرة في كولونيا عن دار الجمل) نحو سوريالية تشم فيها روائح تأثرات قادمة من الشعر السوريالي الأوروبي ، هنا ينفلت النص و يتبعثر جملاً و لكنات غير مهتم سوى بالغرابة و غير باحث الا عنها ، وعن لعب مفترض باللغة أكثر بكثير من مهدي قاسم في مجموعته (في الوقت متسع للضحك - دار العودة - ١٩٨٢) التي تترك حيزا معقولا للمخيلة ، و لو بدت متأثرة باتجاه كاسح في الشعر اللبناني ، هذا الهوس بالنشر لدي بعض الشعراء الشبان هي ملاحظة جديرة بالتسجيل هنا ، لأنها تكشف عن سؤالين اثنين :

الأول / سؤال الحرية : الأساسية في الخلق الشعري ، التي التقاها المثقفون العراقيون في المنفى عموما ، و فتح أمام الأصغر سناً أفاقا معتبرة من التلاقح والاستفادة الطليقة كل مرة ، و أشدد عليها ، من التجارب التي صادفوها .

و الثاني / سؤال اختمار و نضوج التجربة الشعرية المؤدية ، في حال رصانتها ، الى تجريبية مشروعة لا غبار عليها ، و إذن فهل يدل الانغمار ، مباشرة و دون تمهيد ات، في قصيدة النثر على نضج فني خاصة في نماذج (جيل المنفى) الذي نتحدث عنه هنا . سؤال مشروع و قاس جداً ، لابد أن الزمن سيجيب عنه بوضوح شديد ، لأننا لا نمتلك اجابة ، كما لا تمتلكها النصوص المقدمة أيضا .

إن صوتا مثل كريم عبد يدل القارئ بدقة الى مواطن قوة و ضعف نص منثور مكتوب في سياق تجربة المنفى عموما من جهة ، و ينبغي من جهة ثانية أن يقرأ

- كما أظن - ضمن تجربة الشاعر نفسه ، المنحدر من انهماك سابق في الشعر الشعبي متوصلا خلالها الى نص نثري فصيح ، مكتو و ذو جموح و انفلات من اسار التنميطي ، أو محاولة الانفلات منه ، من أجل الامساك في نهاية الحساب بلجام و عصب الشعر الذي يتقصده ، كما في مجموعتيه (ثم نهدي الكلام - دمشق ١٩٨٦) و (اطروحة الندى - دمشق ١٩٨٧) . و مثلما لم تكف تلكم الحرقة وحدها أبدا كما أحسب) في مجموعة حميد العقابي (أقول احترس أيها الليلك) - دينمارك - ١٩٨٦ ، في تشييد معمار جمالي خاص بها ، و لو انها احتفظت بصوت أجش مختلط و متشابك بأصوات شعرية معروفة أخرى ، و احتفظت بجرأة أن تعلن نفسها وسط الحصار الضارب بأطنابه في الجهات الأربع .

× عن مجلة " الصوت " العدد الثالث - الدينمارك .

أبعد من الكلام الجميل

شهادات

كأنهم أبرياء

(إن الذين يتعللون الآن بشعار (معاداة الامبريالية) و (معاداة الوجود الأجنبي) هم الذين قدموا خدمة جليلة للامبريالية و الوجود الأجنبي . بل هم الذين أعادو المنطقة الى الوراء عشرات السنين ، قد ضربوا التضامن العربي الذي بدأ يأخذ شكلا عقلانيا في السنوات الأخيرة . و حولوا الصراع مع العدو الصهيوني الى صراع عربي - عربي . و جعلوا البندقية العربية تواجه البندقية العربية . و أعطوا لاسرائيل فرصتها بتنفيذ مخططاتها و بشكل صريح ، لذلك علينا أن نرفض الاستماع الى مناظرات في معاداة الامبريالية من أولئك الذين قدموا للامبريالية كل مصالح الامة على طبق من فضة و راحوا يتباكون على المنطقة . لقد أشعلوا الحريق ثم راحوا يصيحون و كأنهم أبرياء مما حدث .)

د. أحمد الربعي
الخليج ٢٢ - ٨ - ٩٠

حساسية

(على الرغم من كل ما تقوله أجهزة اعلامنا و ينادي به كتابنا و مفكرونا عن ضرورة احترام حقوق الانسان في الوطن العربي ، فقد كشفت الاحداث الأخيرة عن حقيقة لا يملك المرء إلا أن يعترف بها أسفا ، و هي أن مبدأ كرامة المواطن و التمسك بحقوقه الانسانية الثابتة ليس مبدأ متأصلا في نفوس نسبة لا يستهان بها من العرب ، بل في نفوس قطاع غير قليل من المثقفين الذين يكتفون باستغلال هذا المبدأ تكتيكيا لتحقيق أهداف سياسية معينة . و لكنهم مستعدون في قرارة نفوسهم للتنازل عنه عند

أول اختبار حقيقي) .

(إن حساسية كثير من المواطنين العرب ، و ضمنهم فئات هامة من المثقفين ، لموضوع حقوق المواطن و كرامته ، ضعيفة الى حد مؤسف .)

د . فؤاد زكريا

الأيام ٢٥ -٨-٩٠

فزع ثقافي

(الثقافة في الكويت تستحق هي الأخرى أن نفزع لها ، و أن نقف معها في محنتها ، فقد كان لها إسهام معروف في الدفاع عن الحرية و العقل و مخاطبة الوجدان العربي المعاصر)

الأيام - ٢٢ -٨ -٩٠

المحوران

(من المؤكد أن الغزو العراقي للكويت سيترك آثارا سلبية على الحركة الثقافية العربية ، سواء على المستوى المحلي - داخل الكويت أو العراق - أو على المستوى القومي العربي كله . فحركة النشر في الكويت ستتوقف ، أو توقفت فعلا ، و الصحف ستتعطل ، أو تعطلت فعلا . و المهرجانات و اللقاءات و روح اللقاء التي يخلقها هذا النشاط ستحل محلها روح الجفاء و التنابز و الكراهية ، و لاشك أن هذا سيسمم الجو الثقافي العربي كله . لكن الغزو من ناحية أخرى دليل على أن الحركة الثقافية العربية حركة عاجزة . فقد رفعت شعارات زائفة ، و المثقفون العرب ساهموا بوعي أو بدون وعي في التستر على الواقع المختل المتفجر . و من المؤكد أن الحركة الثقافية العربية ستمر بفترة من الشلل و التشتت حتى تستوعب ما حدث و تهضمه و تجيب عليه الاجابات المناسبة التي لابد أن تتبع في رأيي محورين :

الأول : محور الديمقراطية و نبذ الطغيان .

الثاني : حرية الرأي الثقافي و نبذ العنف .)

أحمد عبدالمعطي حجازي

عكاظ - ٢٩ - ٨ -٩٠

الراهن الحزين

(هكذا نتأمل بضمير غير مستريح لحظة غير مضيئة في زماننا العربي حيث دفع الظرف الراهن دولة عربية أن تنتزع مصائر دولة عربية أخر ى وتحيل وجودها الفعلي خارج الذاكرة و خارج التاريخ . و قد تناسى النظام العراقي أن هذا الزمان هو زمن الحوار و المفاوضة و ليس زمن السلاح و تهديدات الحرب . (..) هذا الحدث سيؤدي

للمزيد من الانحسار للثقافة العربية ، و لانقطاع الحوار و التواصل بين المثقفين . و نأمل أن يسود الواقع العربي نوع من الفهم يصل بنا الى حل لهذا الوضع الراهن الحزين .)

سعيد الكفراوي

الرياض– ٢٦ – ٨ – ٩٠

أبعد من الكلام الجميل

(نحن معه ، قلوبنا معه ، مع الكويت ، الكويت الشقيق ، الكويت الوديع ، الكويت الذي يتعرض في السنوات الأخيرة لأنواع مختلفة من التخريب الغامض و المكشوف ، و الذي يجابه أشكالاً من المحاولات الرامية الى زعزعة الاستقرار وتحطيم النموذج العربي . (..) إن تجربة ربع قرن أو يزيد من زمن الاستقلال قد تمكنت من ترسيخ أصول التعامل الكويتي مع الأشقاء و الأصدقاء و مع الأعداء ، و اذا كان للكويت سلبياته و نواقصه الداخلية التي لا يخلو منها شعب و لا يسلم منها بيت عربي أو غير عربي ، فان تعامله مع الأشقاء ، و مع غير الأشقاء ، قد أصبح ظاهرة فريدة في الواقع العربي ، خصوصاً في هذه المرحلة الغريبة و اللامنطقية .. مرحلة التطورات العاصفة ات المثيرة للغثيان . إنه كويت العرب ، و هو معهم في الضراء و السراء ، و٣٧والسلب حين يساعد بعضهم فانه لا يبتغي من وراء ذلك جزاء و لا شكورا ، عواطفه العربية مبرأة من الغرض و هي لا تعكس سوى الرغبة الأخوية في مواجهة التخلف ، و التحرك بعيداً عن مناخات الاستقطاب المشبوه ، و بفضل هذا الموقف يحتل في نفس كل عربي ، محب وصادق لبلاده ، مكانة عالية و قدراً غير محدود من الحب و الاعجاب ، و صار أي تحرش به أو إساءة الى مرافقه العامة تحرشاً بكل عربي و إساءة الى الأمة العربية التي ما زالت ، رغم مظاهر التشتت و الاختلاف ، قادرة على الغضب و التحدي ، و على التعبير الصادق عن مشاعرها بأساليب لا تقف عند حدود الكلام الجميل العاطفي ، و إنما سوف تترجم الى موقف و إسناد غير محدود ين .)

د عبدالعزيز المقالح

الشرق الأوسط . أغسطس – ٩٠

الجمرة في اليد

(إن مسؤلية المثقفين العرب واضحة ، وفي مثل هذه النكسات الكبرى يصبح دور المثقف العربي في المقدمة فقد طال عهد الصمت على الأخطاء الكبرى والصغرى ، و لو كان المثقفون يشجبون كل خطأ و يرفضونه ، و ينبهون شعبهم اليه لما تفشت الأخطاء ، و صار صغيرها كبيرا و لما نخر السوس في الجسم العربي كله . و الحق أن المثقف العربي – على مسؤليته – كان دائما بين المطرقة و السندان ، و كان كالممسك بيده جمرة ، و لكن هذا لن يعفيه من المسؤولية أو يحد منها . و مهما كان بطش الأنظمة

و جبروتها فان قولة الحق و إزالة اللبس و كشف الظلال مهمة منوطة بمثقفي هذه الأمة . و أنه لمن أغرب الأمور أن يطلب من مواطن عربي أن يبرر العدوان على دولة عربية باسم القومية العربية ، بينما الضرر الرئيسي من هذا العدوان واقع أساسا على فكرة القومية العربية و على مستقبل الوحدة العربية في زمن تتطلع فيه كل المجتمعات الى خطاب العقل ، و الى الأساليب الديمقراطية في حل جميع المشاكل .)

أحمد عباس صالح
القبس – ٤ – ٩ – ٩٠

العدوان

(إن كل القوى الديمقراطية في العالم العربي ترفض بكل تأكيد هذا العدوان الغاشم . أقول (العدوان) و أعني كل ما في الكلمة من تجاوز للمواثيق و الأعراف الاقليمية و الدولية و تحطيم للمشروعية العربية التي يحاول العرب دعمها و تأكيدها خلال الفترة الأخيرة .)

محمود أمين العالم
أخبار الخليج ١٥ – ٨ –٩٠

أول الضحايا

(أول ضحايا هذه الهستيريا هو العمل الثقافي الذي كان ازدهاره في السنوات الأخيرة بداية جديدة نحو التواصل العربي ، إما الآن فأتوقع انهياراً شاملا للنظام الثقافي العربي ، و أتوقع أيضا عمليات تمحور و خندقة و تمذهب ستكون الضحية الأساسية لها الحركة الثقافية العربية العامة . كما أن الكتب ستتأثر بالشكل الجديد للعلاقات السياسية العربية في المرحلة القادمة .)

يوسف القعيد
الرياض –٢٦ – ٨ – ٩٠

الدمار

(ما حدث من العراق هو دمار شامل و تمزيق للأوصال و أعتقد أننا بهذا الفعل نواجه واحدة من أهم المشكلات التي مرت على العالم العربي .)

ابراهيم أصلان
الرياض ٢٦ – ٨ – ٩٠

رهينة حرب الأشقاء

(إن القيادة السياسية في العراق هي نتاج الانقلابات العسكرية ، وقد سحقت ، بأساليب دموية ، كل أثر ضئيل لأية رغبة جماهيرية ، و أي تعبير حر عن المجتمع المتمدن . مئات من المناوئين للنظام ، و بينهم مفكرون و كتاب ، قتلوا دون أن يتعرضوا لأي شكل من أشكال المحاكمة . آلاف غيرهم يرزحون في السجون أو أجبروا على اختيار المنفى ، و لسنا في حاجة هنا لذكر الحرب ضد ايران ، فنحن نعرف الثمن الذي دفعه الشعب العراقي ، و الذي أخذ كرهينة في حرب الأشقاء . و ليس مهماً التذكير بأن فرنسا هي التي أغدقت السلاح بوفرة على العراق خلال هذه الأحداث الدموية الطويلة ، دون أي احتجاج من الفعاليات السياسية أو الرأي العام . لقد انتهى شهر العسل الفرنسي العراقي (٢٠ سنة) بمجرد أن تضررت المصالح الاستراتيجية الطبيعية والاقتصادية لفرنسا و العالم الغربي . و تحول صديق الأمس الى هتلر آخر . و حتى في وضع جديد كهذا ، لا أحد يذكر أي شيئ عن حقوق الانسان الراهنة في العراق ، كما لو أن الشعب العراقي قد تحول بين عشية و ضحاها إلى جماهير مشوهة تمتثل للنازي الصغير)

عبداللطيف اللعبي
اللوموند + الجارديان ٣١/٨/ ٩٠

الدرس

(لا يمكن تغيير الجغرافيا دون رؤية صائبة للتاريخ . فقد أثبتت تجربة المجتمع الانساني أن (اللخبطة) في علم التاريخ تؤدي بالضرورة لـ (لخبطة) أخرى على أرض الجغرافيا .)

د . أحمد الربعي
الأيام – ١٤ – ٨ – ٩٠

الطيف

(الكويت في حياتي طيف جميل ، أمضيت في أرضها و بين أهلها خمس سنوات ، من أكثر سنوات حياتي عطاء و خبرة ، في مناخ ازدهرت فيه الثقافة بكل فروعها ومؤسساتها ، حتى حققت طموحها – ليس فقط في الحوار مع الشعوب العربية – بل في تصدير الزاد الثقافي لهذه الشعوب أيضا .)

سعد أردش
القبس ٢٢ – ٩ – ٩٠

الهنا و الهناك

(إني لأؤمن إيماناً قاطعاً بأن احتلال العراق لأرض الكويت أبشع ، في جوانب أساسية ، من نكبة فلسطين . ففي حالة فلسطين جاء الاغتصاب من عدو تاريخي للعرب ، لم يكن يخفي نواياه منذ ما يقرب من قرن من الزمان ، و هو عدو له برامجه المعروفة و مطامعه المكشوفة التي كنا نعلم ، منذ البدئ ، انها تتعارض مع امتنا وأمانينا تعارض الظلمة و النور ، اما في حالة الكويت فقد جاء العدوان غادرا مباغتا كالموت ، يحمل في طياته قدرا من الحقد و الكراهية لم يكن يخطر ببال أحد . و الأهم من هذا كله أنه جاء من أقرب الأقربين .) . (هل يختلف ما حدث للكويت في يوم الخميس الحزين (٢ اغسطس) عما حدث لأهلنا في فلسطين منذ نكبة ١٩٤٨ ؟)

(من لا يرى في الكويت سوى صغر حجمها و ثرائها ، سيكون قد أغفل أهم مزايا هذا البلد الفريد ، ففي الكويت من الاشعاع العقلي و الثقافي ما يفوق امكانات بلاد أكبر منها حجما بكثير ، و مامن انسان محب للثقافة في كل أرجاء الوطن العربي ألا ويحتفظ في قلبه بمكانة عزيزة لما يصدر من الكويت من كتب و مجلات و دوريات رفيعة المستوى ، زهيدة السعر ، و ما من مثقف عربي ذو شأن إلا و يحمل ذكرى غالية لمؤتمر أو ندوة أو مهرجان عقد في الكويت ، و لم يلق فيه إلا التكريم ، و لم يحاول الداعون أن يستغلوا حضوره لكي ينافقوا من خلاله هذا المسئول أو يتملقوا هذا الحاكم . هذا هو الوجه الآخر ، الفريد ، للكويت ، و كل من لا يدرك هذا الوجه ، و لا يصف الكويت إلا بأنها دويلة صغيرة واسعة الثراء ، لا يعرف عن هذا البلد أهم ما فيه . فهل يتصور المنظرون الذين يعقدون ما هو بسيط ، و يلوون ما هو مباشر و مستقيم ، أن مثل هذا الاشعاع الثقافي سوف يستمر في ظل القهر و الاحتلال ، و هل قدروا – و هم قطعا من المثقفين – مدى الخسارة التي ستلحق بالعقل العربي إذا انطفأ هذا الاشعاع ؟)

د . فؤاد زكريا

الأيام ١٣ – ٨–٩٠

المواطن

(أما المواطن العربي العادي فالكويت بالنسبة اليه أرض و أهل ، و مؤسسات اعلامية فاعلة من أجل القضية الفلسطينية ، و مجموعات واسعة من الكتب تباع بأرخص الأثمان في أنحاء العالم العربي ، تحمل المعرفة من أجل المعرفة ، و تشرع أمام العقل العربي الناشئ نوافذ على شموس الكون . يكفي هذا ليحس المواطن العربي بالخسارة و يتمنى السلام لعرب الخليج و العرب جميعا ، لأن هذا المواطن يرى في اسرائيل عدوه الوحيد ، و في الاستقلال العربي نعمة لم نقدرها حق قدرها .)

محمد علي فرحات

الحياة ١١–٨– ٩٠

القلق الأخلاقي

(فالكويت كانت مجتمعاً مزدهراً ، و شعبها جزء حيوي من الأمة العربية ، و مؤسساتها ناجحة و متحررة . فأي نفع تحقق من مهاجمة كل ذلك ؟ و كيف أمكن اعتبار استخدام العنف ضد الكويت له ما يبرره بأي حال ؟ إن قصور الرؤية وخرق المثل الأخلاقية و المبادئ على هذا النحو أمران مقلقان لنا جميعا ، خاصة و أن نوعية (الانتصار) الذي أعلنه صدام تبدو مشكوكاً فيها الى الآن . و ثمة خسارة محزنة ومؤسفة ، و اساءة بالغة الى سمعة كل العرب بلا استثناء .

أدوارد سعيد
المجلة ٥ - ٩ - ٩٠.

انحباس السماء

(الغزو في تعريف علماء اللغة : الطلب . و هو مورد من أهم موارد الرزق عند الأعراب، لاسيما في سني انحباس السماء و انقطاع الغيث ، و غضب السماء على الأرض و قد يقع الغزو لأسباب أخرى لا علاقة لها بانحباس المطر ، بل بسبب طمع القبائل بعضها مع بعض ، و لا سيما القبائل التي ترتبط بروابط حلف مع قبائل أخرى . والعادة أن القبائل القوية تطمع في القبائل الضعيفة لتأخذ منها ما عندها من مال و رزق .. أضف الى ما تقدم من أسباب وقوع الغزو : أثر العلاقات الشخصية بين سادات القبائل و من حسد و تنافس ، و من كلمة نابية قد تثير حرباً بين قلبي شخصين متنافرين ، ومن عمل سفيه جاهل يثير غزوا و حربا بسبب عصبية قومه له ، و الى غير ذلك من عوامل معقولة مفهومة، و عوامل تافهة سخيفة تجد لها بعد ذلك مكانة في القلوب فتثير غزوا وتسبب نكبة لأناس مساكين فقراء ، لا دخل لهم في كل خصومة ، و كل ما لهم أنهك من قوم غضب عليهم قوم أخرون ، فزادوا في تعاسة اخوانهم المغزوين . و الغزي والمغزو مع ذلك معدم محروم .. فالغزو إذن هو حاصل ظروف طبيعية و اقتصادية و اجتماعية ألمت بالأعراب و أرغمتهم على ركوب هذا المركب الخشن، كارهين أم مختارين ، فليس للاعرابي للمحافظة على حياته ، و لتأمين رزقه غير هذا الغزو) - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٥ / ٣٣٣ .

و يضيف :

(و قد بقي (الاعرابي) يغزو حتى في الاسلام ، مع منع الاسلام له ، و هو إن إمتنع اليوم منه و طلقه ، فانه لم يتركه عن إرادة و اختيار و طيب خاطر ، و انما امتنع منه لأنه يعلم أنه إن قام به ، فان هنالك حكومات أقوى منه ، لها أسلحة لا يملكها و على رأسها الطائرات) ٥ / ٣٣٤ .

نقلتُ هذه الفقرات العديدة لأنها التعبير الذي يعود الى جذور ما نشاهده الآن ، التعبير الذي يبدو أمام صدقه و حقيقته كأن الزمن قد توقف في داخل الوجدان العربي

و فكره ، و كأن الظروف جميعها قد تحجرت و كفت عن الجريان .
لقد كان مؤلف (المفصل) موفقا أجمل التوفيق في فقرته الأخيرةالتي تقطع بأن العربي لم يتغير ، فهو الآن مثله قبل ألفي سنة ، و لكن مؤلف (المفصل) لم يدر في خلده أن رجلا يعيش في هذا القرن و ينهل من كل معارفه أو تقرأ عليه على الأقل ، لم يدر في خلده أن رجلا كهذا يخلع الزمن ، و يخلع الظروف و يخلع كل شيئ و يخرج بثياب الإعرابي ، متقلدا سيفه و يقتحم العالم أجمع بكل ما فيه من ارادات و إجماع و صواريخ و أقمار صناعية .
لم يبق لأساليب التعجب أي مكان :
فهذا الاعرابي الجديد ، إعرابي القرن العشرين ، يعيش بين نهرين ، و لم تبخل عليه الأرض و لا السماء بكل خيراتهما ، فلماذا إذن تبقى هذه العقلية فيه أو هذه الغريزة فيه على أشد ما هي عليه فتكاً و همجية .

لقد قال الجواهري مرة :

إن أفسحوا أجلا فإن وراءهم　　　　شعبا و أحلام الشعوب فساحُ

و أنا أكرر ما قاله مرة أخرى . ×

محمد العلي
الشرق الأوسط ٨-٩-٩٠

× إعداد " كلمات " .

كانت الساعة تقترب من الخامسة

شهادات

فلسطين ٤٨ / الكويت ٩٠

التاريخ لا يعيد نفسه الجلاد و الضحية هما اللذان يكرران نفس المشاهد و الحالات ، بكل تفاصيلها ، في كل مرة تتعرض أرض للاحتلال . تتغير الجغرافيا ، تتغير الهوية ، تتغير اللغة ، لكن قوانين اللعبة تضل ثابتة .
نوقظ الذاكرة فحسب ، نوقظها ، لئلا يلتهم النسيان عقل الانسان و قلبه فيرتكب حماقة العيش بلا ذاكرة .

لم يكن أهل البصة يتوقعون أية مشاكل مع جيرانهم اليهود ، سكان معصوب و حانيتا ، فقد كان اليهود قد طمأنوا مخاتير القرية الى أنهم لا يريدون بهم أي مكروه . ذلك أنهم اعتادوا أن يزورا القرية من حين الى آخر و كانوا يعرفون دونما شك أن أهلها لا يبيتون لهم أية نيات سيئة .

فلسطين ٤٨

لقد عرفت أن هناك اجتياحاً الساعة الرابعة فجراً .. و لم أكن أتصور أن العراق يقوم بهذا اطلاقاً .. شاهدت القوات العراقية التي كانت تطوق العاصمة " الكويت " من كل جانب .

الكويت ٩٠

إن الوضع في الكويت سيئ جدا ، و للأسف انه جاء من دولة شقيقة لم نكن نتوقع في يوم من الأيام أنها سوف تقوم بهذا الغزو الغاشم .

الكويت ٩٠

لقد مر ما حدث كالحلم حتى هذه اللحظة و لم أصدق ما حصل حتى الآن من دولة شقيقة وقفنا معها في محنتها .

الكويت ٩٠

أفقنا على أعلى صوت سمعناه في حياتنا ، صوت انفجارات القذائف و نيران المدفعية .. كانت القرية بكاملها تعيش حالة من الذعر .. و بدأ معظم أهالي القرية يهربون و هم ما زالوا في ثياب النوم . زوجة قاسم أحمد سعيد هربت و هي تحمل بين ذراعيها مخدة ظناً منها أنها طفلها .

فلسطين ٤٨

كانت الساعة تقترب من الخامسة صباحاً حين أيقظتنا قذائف المدفعية .. قمت أفتش عن أسرتي و أطمئن عليها .. و بعد ساعات و بسبب عجزنا عن معرفة حقيقة ما يحدث أو تصديقه ، قمنا بحزم أمتعتنا واصطحبت الأهل جميعا .

الكويت ٩٠

استيقظنا في الصباح الباكر على اهتزاز المنزل و شاهدنا الحرائق مندلعة و أصوات المدافع و الرشاشات .. مما أنبأ عن وجود غزو غاشم .. و احتلال العاصمة الكويت .

الكويت ٩٠

ضربنا اليهود و أخذوا ساعاتنا و خواتمنا (..) و أمرونا أن نركض بأقصى ما نستطيع الى الجانب الآخر دون أن ننظر خلفنا . كانوا يطلقون النار في الهواء ، و قد ركضت كما لم أركض من قبل .

فلسطين ٤٨

ضربوني أنا و أخواني ضربا مبرحا بروؤس البنادق (..) و بعد ذلك أطلقوا بعض الرصاصات و التي جعلتني أركض بدون شعور في الصحراء خوفاً منهم .

الكويت ٩٠

.. و لم يمض وقت طويل حتى التقينا اليهود الذين كانوا يأتو ن من الشمال و الجنوب

ويتجهون نحو الكابري . و قد أوقفونا و فتشونا . و لم يكن معنا أسلحة . و أخذوا مجوهراتي - أقراطي الذهبية و عقداً و أربع أساور - و إربعين جنيها كانت بحوزتنا .

فلسطين ٤٨

لقد سرقوا كل شيئ في بلادي ، سرقوا الوطن و الأمن . ثم بدأت قوافل النهب و السلب تسير من الكويت الى بغداد . و لا أستطيع أن أصف مقدار ما تحمله تلك الشاحنات من مواد ، سواء من الشركات الكويتية أو المؤسسات أو المنازل . شيئ لا يصدق . جاءوا للسرقة و النهب و السلب . !

الكويت ٩٠

فتشنا اليهود و أخذوا النقود القليلة التي معنا ، كما أخذوا خواتمنا و ساعاتنا .

فلسطين ٤٨

لنا ابن عم أبلغنا أنهم - الجنود العراقيين - أوقفوه في الشارع و أخذوا منه ساعته وماله و أقلامه و نظارته الشمسية و كل ما له قيمة ، ثم صفعوه و ركلوه

الكويت ٩٠

أخذ الصهاينة سبعة و ثلاثين شابا من شباب القرية و لم يعيدوهم أبد

فلسطين ٤٨

اختاروا نحو ٢٠٠ رجل بصورة عشوائية و نقلوهم في شاحنات توجهت بهم الى الرامة . لا نعلم ما لحق بهم .

فلسطين ٤٨

الخيار أمام الأسرى الكويتيين كان بسيطاً ، فإما الاستسلام بصمت قبل أن يوثقوا واحدهم الى الآخر و يقتادون كقطيع من الأغنام تحت وابل من ضربات أعقاب البنادق والركلات الى جهة مجهولة ، و أما الاعدام على الفور عندما يعترضون .

الكويت ٩٠

دخلت قوات الدفاع اليهودية الى الصفصاف و قتلت ٧٠ رجلا أمام أعين ما تبقى من أهلها. و تردد أن الصهاينة قد اغتصبوا أربع فتيات .

فلسطين ٤٨

قام الجيش العراقي باعتقال مجموعة من المواطنين من مناطق مختلفة ، و بعد تعذيبهم لعدة أيام بمختلف أصناف التعذيب ، أقدم الجنود الغزاة على اعدامهم أمام أنظار امهاتهم

و أبائهم و أبنائم و جيرانهم .

الكويت ٩٠

ينبغي أن يكون واضحا فيما بيننا أن هذا البلد لا يمكن أن يتسع لكلا الشعبين (...) و الحل الوحيد يتمثل في افراغ فلسطين من العرب .. و ليس ثمة من وسيلة أخرى سوى نقل العرب الموجودين هنا الى البلدان المجاورة ، نقلهم جميعا . ينبغي أن لا تبقى قرية واحدة أو قبيلة واحدة .

مسؤول صهيوني ٤٠

انهم يضمرون شيئا هناك فقد قاموا باخلاء الكويت من الكويتيين و أجبرونا على الرحيل مع نسائنا و منعونا من حمل أية ورقة تثبت هويتنا .

الكويت - ٩٠

ان العراقيين بدأوا في توطين أسر عراقية في المساكن بعد تهديد أهلها بالغازات السامة و الأسلحة .. و عندما ترفض أي أسرة الخروج فان مصيرها القتل .

الكويت - ٩٠

أحصيت ما بين ٩٠ و ٩٥ حافلة وصلت خلال ساعة بينما كنا نرحل . ان كل حافلة كانت تكتظ بعائلات عراقية و أمتعتهم .

الكويت ٩٠

انهم يزيلون كل ماهو كويتي . لم يبق لنا سوى أبراج الكويت فقط ، و لا أعتقد أنهم سيبقون عليها .

الكويت ٩٠

وقد وصلتنا أخبار عن مجازر أخرى ارتكبها الصهاينة في الجش و دير ياسين و عن اعتداءات على الأعراض . أكثر ما كان يهم أهلي هو الحفاظ على أعراضهم ، و الخوف على العرض هو الذي دفع بالعديد من القرى الشمالية الى النزوح حتى قبل أن تصلها الحرب.

فلسطين ٤٨

الجيش العراقي نهب و سلب جميع البنوك في الكويت و قام بسرقة جميع ما يجده في الأسواق حتى أنهم دخلوا بعض منازل الكويتيين و سلبوا الذهب و المال و الخيرات وأفزعوا الأطفال و النساء ،و خوفاً على العرض و الشرف قررت الهروب الى السعودية .

الكويت ٩٠

لقد لجأ الصهاينة الى الارهاب بصورة واعية ليس لمجرد بث الذعر في صفوف الفلسطينيين ، بل أيضا لضمان أن كل شخص سوف يعني بالدرجة الأولى بسلامة عائلته

هو . و ركزوا على القتل الجماعي و الاغتصاب بقصد ايجاد مناخ يضطر فيه الرجال الى تغليب اعتبار شرف نسائهم و حياة أطفالهم على الاعتبارات الوطنية .

فلسطين ٤٨

لقد اضطررنا الى الخروج بعد أن وقعت الكويت تحت وطأة الغزو العراقي . لقد شهدنا هجوماً لم نعرف مثله في التاريخ .. السيارات تتوسط شوارع المدينة هامدة ولا حياة فيها .. و سيارات التفتيش في كل مكان و بعض من الجنود العراقيين يجبرون السائقين على ترك سياراتهم . رأينا أيضا كيف كانت الدبابات تدهس السيارات في الشوارع بلا رحمة و لا انسانية ، كما شاهدنا السرقات و عمليات النهب التي تمت للمعدات و الأثاث و السيارات من المعارض و ثم نقلها الى العراق . لقد سمعنا عن عمليات اغتصاب تمت في مستشفى الفروانية و تعرضت لها بعض الممرضات هناك .

الكويت ٩٠

آلاف الفلاحين الهائمين على وجوههم و قد صعقهم الذهول و الرعب ، صرر الفرش المتساقطة على جانب الطريق ، العائلات التي تفرق شملها ، عجائز يموتون من الاجهاد ، أطفال يحملون أطفالا أصغر منهم ، رضع يموتون من قلة الماء .

فلسطين ٤٨

استغرقت الرحلة عبر منطقة الخفجي مدة ١٢ ساعة في الوقت الذي كان يستغرق الطريق في الظروف العادية ساعة و نصف فقط . و لكن انتهاج طرق وعرة في الصحراء حيث تعرضنا خلالها للعواصف المغبرة (الطوز) و تعرقلت سياراتنا في رمل الصحراء أكثر من مرة .. و كنا في لحظات كثيرة يكاد يقتلنا اليأس في امكانية الخروج من هذا الجحيم .. خصوصاً و اننا كنا نحمل معنا أطفالنا و هم أكثر حاجة للماء و الحليب من الكبار .

الكويت ٩٠

اشارة :

× شهادات الفلسطينيين مأخوذة من كتاب " الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع الى الثورة " – روز ماري صايغ .

× شهادات الكويتيين مأخوذة من عدد من الجرائد و المجلات العربية الصادرة في شهري أغسطس و سبتمبر ١٩٩٠ .

× من إعداد " كلمات "

الرهينـــــــة

أو المدعو " صُدفة "

يوسف الحمدان

في ساحة يحيطها الخراب..
نرى قاعدة عسكريةكارتونية ، من قعرها يمتد سلك أسود سميك ، يصل بالونة شفافة كبيرة ، على هيئة قنبلة يدوية تتقدم القاعدة ، في حيز البالونة يتقرفص رجل غائم الملامح ، أشبه بجنين المشيمة ، يحاول أن يفرد أعضاءه حتى يتقنع وجهه بغشاوة البالون ،لحظتها نلمح مع النمو التدريجي المتباطئ للساعد دبوساً صغيراً مستقراً بين السبابة و الابهام .

الرجل بصوت طقسي :

اليوم أعلن خوفي
و أشهر هدنتي
كي أبرئ ذمتي
و أسلم من مغبة الوضوح ..

مع تتمة الكلمة الأخيرة ، ينغرس الدبوس في قلب البالونة ، لتحدث بفرقعتها دوياً هؤلاء ، يحاول الرجل أثره و هو يدفن رأسه في باطن كفيه التقاط أنفاسه . شهقات متلاحقة تملأ المكان ، تسكن بالتدريج حتى تتلاشى ، يرفع الرجل الشاحب رأسه ، يستكشف بعينيه المكان بشكل سريع ، يتحسس جسده ، يتفحصه ملياً كما لو يطمئن الى وجوده (سلامته)

تنفرج قسماته بعض الشيئ ..يقول :

– عجباً ، أيعقل أن يكون هذا الانفجار المدوي مجرد فقاعات ؟ أم أن رحمة الرب كانت أسبق ؟ عموماً لا ضير، فأنا في كلتا الحالتين نجوت ، بدمي

ولحمي وعظامي و شاني ..

بقرار حاسم :

- فلأعد إذن الى قواعدي سالماً ..

بثقة يتجه الى منبر كارتوني زجّ في القاعدة ، تنزلق قدماه لكنه يتماسك سريعاً ،ومن مخبأ المنبر يستل قبعة جامعية ورقية أشبه بقبعة الطباخين ، يغطي بها شعر رأسه المنكوش .

يقول بصوت رخيم مضخم :

- اليوم و قد اكتمل الحضور و المدعوون و المحكّمون ، و افترشت الأقمار الصناعية محيط الكون و تسللت بين الثقوب و جحورالمنازل و السراديب في شتى أصقاع العالم ، و اتسعت محاجر و أحداق الأعين و تزودت بكل رادارات الفضول الثاقبة ، يتفضل رئيس أو ملك أو عاهل السويدفي العاصمة أوسلو بمنح قائد و رائد السلام في هذا العصر المدعو (صدفة) "جائزةالفريد" نوبل للسلام ..

تصفيق وهمي و انحناءات متكررة تصدر منه تنم عن تقديره البالغ لهذا الاهتمام .

يواصل خطابه بحماس :

- و لقد منحناه هذه الجائزة الفريدة لكونه أول عالم ، منذ نشأةالكون والتاريخ وما يليه ، يقوم باختراع قنبلة تنفجر بصاحبها و هو في عمقها دون أن يصاب ، هو أو من حوله ، بأذى ..

بحماس أشد :

- إنها حقاً دعوة جديدة و مبتكرة نادرة لسباق التسلح في مضمار السلام العالمي و تعايش الشعوب كافة ، لذا نقر و في هذه اللحظة بالذات بضرورة تخصيص جائزة للسلام تتقلد اسم هذا العالم ، حيث أنه حتى نوبل نفسه ، بكامل عدته و عديده لم يتوصل قط الى اختراع مثل هذا السلاح السلمي المتميز ..

التصفيق يعلو ، هو في حالة ذهول ، تتبعها قهقهة مدوية تسقط إثرها القبعة من فوق رأسه ، يتأملها ببلاهة ثم يواصل الضحك ..... و الكلام :

- عليك الرحمة يا نوبل ، فمآثرك اليوم تبرأت منها الجسور و الأنفاق والأبراج و الطرق و الحروب ، ولم يبق سواي .. سوى " صدفة " ..

ضحكة يكتمها دوي أشبه باهتزازات الزلازل صادر من مكان مجهول ، يحبس أنفاسه يهرع نحو المتاريس ، يختفي خلفها ، يراكمها فوق جسده ، يهدأ الحال ، بعدها يتوجه متسللاً بين زحام المتاريس الى ذروة برج كارتوني ، يدس ناظريه بحذر في عدستيّ منظار صغير ، و بعد تأمل وجيز يطلق لحنجرته عنان الفرح :

- يا هو .. يا هو ..

يجري في المكان ، يتعثر ، يتشقلب ، يقبل كفيه بحرارة .. و هو يقول :
- إنهم يحترقون ، يتدمرون ، يتهاوون ، يتناثرون أشلاءً .. نار في كل زاوية .. تحرق الأخضر و اليابس .. يا هو .. يا هو ، منازلهم محطمة ، عمارهم دمار ، ما أروع هذه الكمائن ، إنها تسكت الأصوات وتحبس الأنفاس وتبقى هي و أنا .. هي هناك و أنا هنا ، إن تجاوزت الحدود أبطلها مفعول اختراعي العظيم ، و إن قصدتهم تحولت قنابلهم و قذائفهم الى فقاعات ، ما أروعك أيها الفنان الكارتوني ، في كل الأحوال أنت الرابح
يجره قدماه الى القاعدة . يتأملها باعجاب شديد . يتحسسها . ثم يقول مفاخراً :
- أنظروا الى هذا الصرح العظيم ، لقد أقمته بنفسي ، أنا وحدي شيدته وبارادتي ، تيقنوا أنه لم يجبرني أحد على تشييده ، و لم يساعدني أحد في بنائه ، إنه ورقة الضغط لدي ، كان هذا الشموخ مجرد ورق ممزق و مبعثر هنا و هناك ، و لكن العقل سيد الكون ، فعندما شُلت الأفكار و تعوقت الأجساد و سُدت المنافذ وجدت نفسي أنفخ في الفراغ فأبدو صرحاً شامخاً ..
يواصل ، وهويدق بقبضتيه صدره النحيل :
- شامخاً كهذا الصدر المجوشن ، إنه هو .. أنا أنا .. إننا..
يفترش بذراعيه مجال عرض القاعدة . يتملكها . يحضنها بحميمية . ، يمعن في احتضانها ثم سرعان ما نراه واجماً . تتسمر ذراعيه لحظات عند قطعة كارتونية أشبه بخارطة ذات تضاريس جبلية أو جدار طيني خام يتحسس مساحتها . يستنشقها بعمق . قطرات من الدموع تسيل فوق خديه . يقول في جيشان :
- استنشق أيها المنخار الضيق المعتم ، استنشق بملء رئتيك رائحة لم تعهدها منذ أمد طويل .
بهدوء يفك القطعة الكارتونية من أسرها . و بهدوء يفترش الأرض بها . يبدأ عجنها بباطن قدميه ، و هو يقول :
- تسلل أيهاالطين من شقوق قدمي الى رأسي ، فتّش في خلايا الذاكرة عن موطن الذكرى
ما أروعك أيها الطين و أنت تثلج كبدي بدفئك ،تكلم أيها الطين يا حضن خبزي الأسمر ، رافقني يا صلصال الطفولة ، بيتاً أو دمية أو صحبة أو بساطاً أو حصاناً أو سريراً .
يستلقي . يرخي ظهره فوق القطعة . و بحزن يقول :
- مسكينة ، عليها رحمة الله ، ماتت حسرة عليه و هي بعد في عنفوان شبابها ، كانت توصيعه رفقاً بي ، فاتسعت وسادة القبر الطرية لحشر حولها ، فوقها ، تحتها ..

ينهض فزعاً . يلتقط أنفاسه :

- .. هـا .. لا زلت حياً ، لم أمت بعد ، أنا لا أموت ، صدقوني ، إنني شيدت هذه القاعدة من أجل أن أحميكم ، أحرس قبوركم و أبلل ثراكم ..

يتجه نحو زوادة علقت في عنق مدفع كرتوني . يختطفها ثم يفرغها في جوفه دفعة واحدة . بعدها بعدها يتجه ثانية الى القطعة التي استرخى فوقه ليتكئ على ركبتيه ويتمتم بآيات و أحراز دينية ، محاولاً استجداء الزوادة علّها تفرغ آخر ما بها من ماء . فلا تدفق فوق هذا القبر سوى قطرة واحدة يتيمة .

يتفجر ضحكاً :

- لا شك أيتها القطرة اليتيمة سيكون لك شأناً مثلي ، من يدري ، ففي هذا الزمان كلما توحدت بنفسك أكثر ، اتجهت اليك الأنظار مدهوشة معجبة مسحورة ، و ارتفعت الأصوات عالياً . . عالياً مشيدة بمجدك التليد و تاريخك المجيد .

مشخصاً :

- عاش ظل الله على الأرض .. عاش البطل الأوحد .. عاش مخلصنا جميعاً ، عاش بوكاسا الأفريقي ، عاش هولاكو ، جنكيز خان ، الفوهرر هتلر،موسوليني ، قيصر روسيا الأعظم ، عاش الحي الأوحد صدفة .. عاش ..

فجأة . تقطع هتافاته همهمات حزينة مكتومة خافتة . تصدر من جهات متعددة . هو في حالة ارتياب . هلع . يجري مسرعاً نحو جهاز اللاسلكي . ينتزع منه سماعةالرأس . يلبسها بسرعة . يفاجأ بتحول الهمهمات الى دقات قلب متلاحقة قوية . يزداد هلعه . يعبث بمفتاح الجهاز . ترتفع دقات القلب . يخلع السماعة . ترتفع دقات القلب أكثر . يضع كفه على قلبه مرتاباً في مصدر الدقات . تطفر كفه من فوق قلبه . يحاول ثانية . لا فائدة . يزداد فزعه . يزداد ارتيابه . دقات القلب ترتفع أكثر . يوصد أذنيه بكفيه . إلا أن كفيه تطفران عن أذنيه بسرعة مذهلة . بفزع ظاهر ، يقول ، وهو يتجه الى مدفع كارتوني :

- لابد أنها الحرب ، أسمع دمدمات العساكر ، إنهم يتقدمون نحوي .

دقات القلب ترتفع . يوجه فوهة المدفع باتجاه اليمين . يفاجأ بدقات القلب في اليسار . يوجه الفوهة باتجاه اليسار . يسمع الدقات من ناحية اليمين . يوجهها الى أعلى . يفاجأ بفرقعات كالرعد تأتي من الأسفل . يزداد فزعه . يتحسس قلبه . و كالقصف ترميه دقات قلبه الى أسفل القاعدة . يقع نظره على غطاء أشبه بغطاء المجاري . يزحف نحوه . يكشف الغطاء و هو يقول :

- وجدتها ، إنه سرداب النجاة ..

يغمس رأسه بحذر . و بالتدريج يغوص نصف جسده الأعلى في سقف السرداب . تعود الهمهمات الحزينة الخافتة ثانية . تختفي دقات القلب . تبدو الهمهمات في قاع السرداب

. تختفي الهمهمات تماماً مع خروجه بسرعة من السرداب و هو يضحك بشكل هستيري
. يتكلم و هو جالس على الغطاء نصف المكشوف :

- في الحضيض دائماً ، في ظلام المجاري دائماً يتكاثرون كالصراصير والبق و البعوض ، يهمهمون فقط .. و لكن ..

يقطع كلامه بضحكة ، ثم يواصل :

- تصوروا .. إنها قضيتهم و ليست قضيتي ، و مع ذلك أجد نفسي مضطرا للدفاع عنهم ، فهؤلاء الجياع حين يحزمون بطونهم يشلّون الهمم ،ولكن ما ذنبهم ، لقد ولدوا و عاشوا ضعفاء ، جبناء ، في حين أنني ولدت وعشت شجاعاً ، مقداماً ، و القوي في العرف الدولي يحمي الضعيف .

ثم ، كمن ينذر :

- و حين تنشب الحرب ، لا ينفع يومها تسوية أو حلول أو مفاوضات ، اللهم إني قد بلّغت ،و حتى إشعار آخر، فمثلي لا تجدي معه المماطلات والمراوغات ، سيناريو الحرب قد تم إعداده من قبلي ، و أنا المسؤول عن أخراجه و تنفيذه .

فجاة ينزلق حتى وسطه في السرداب فيصبح في وضع أشبه بقارب يستنهض حوضه خشية الغرق . متألماً ، يحاول الخلاص بواسطة ذراعيه المرتكزتين على الأرض . يقول و هو يشد جسده الى أعلى :

- يبدو أن الحرب ستبدأ هذه المرة من الأسفل ، في الخنادق و السراديب والحفر و الكهوف ، و ما عليك أيها الجنرال العظيم الا أن تنجو بنفسك قبل أن ترصدك الكمائن و المستنقعات النارية و تلفي نفسك دون مهمة أو ضرورة ...

يحاول أن ينهض :

- هيا .. هيا .. قاوم أيها الجسد ، قاوم قبل أن يجرك القاع الى عتمته ..

يحاول أن ينهض فلا يستطيع . يحاول ثانية لكن دون جدوى .. يقول كاليائس :

- يا ترى ما الذي يشدني الى أسفل ؟ هل هو المجهول أم ماذا ؟

يدفع جسده باتجاه اليمين بهدف الخلاص فلا يستطيع . يحاول دفعه الى اليسار فلا يتمكن . يحاول استنهاضه الى أعلى و لكنه يسقط ثانية . بتحدي ، يقول ، و هو يتأرجح بين أطراف منفذ السرداب بغية الخلاص :

- إنني لا أحتاج مساعدة أحد منكم ..

يضحك ساخراً :

- ربما لأنكم غير موجودين أصلاً ، أو ربما لأنني الوجود ..

(يضحك عالياً) إلا أن صوتاً غاضباً يترافق مع دقات مطرقة خشبية يفسد نشوته .

الصوت : لا ترفع صوتك عالياً ..

هو ، بخوف : - حاضر ..

الصوت : لا تعلو هامتك هامات الرجال

هو : - حاضر

الصوت : أحبس أنفاسك و اقنع بما توفر من مال و حال

هو : - حاضر .. حاضر

الصوت : احمل سلاحك و دافع عن نفسك و عنا أولاً ثم عن الوطن ..

هو : - حاضر .. حاضر ..

الصوت : اخترناك في الصفوف الأمامية لأنك الجدير بالحياة

يتحسس عنقه ، ويقول : موافق .. موافق ..

الصوت : ليس مهماً أن تقاتل و لكن الأهم أن تبدو مقاتلاً

هو : - حاضر .. حاضر

الصوت : سنمنع عنك الطعام و الشراب و الزوجة و العيال ، و لكننا سنرفع أجرك

هو : - حاضر ..

الصوت : اننا نمنحك حريتك .. فامنحنا نفسك

هو متردداً : - ماذا ؟

طرقة قوية ..

هو : - حاضر .. حاضر ..

الصوت : العدو من أمامك و نحن خلفك ..

هو يتردد في الاجابة . طرقة أخرى .

هو ، بحسم : - حاضر ، موافق .

الصوت : شرفنا بشهادتك

هو يرفع سبابته بخشوع ، و يقول : - أشهد أن لا إله إلا الله ..

الصوت : انهم يشحذون الخناجر .. فاشحذ همتك ..

هو : - حاضر

و فجأة يتدارك حجم الخطب ، فيتساءل مرتابا :

- ماذا .. ماذا ، يشحذون الخناجر .. و لكنني ..

يتفحص يديه . ثم مفزوعاً يقفز بخفة و يتجه صوب المتاريس ليفرغ متراساً مليئاً بالورق الممزق و يلبسه . المتراس عبارة عن كيس من خيش . يقول ، و هو يزج قدميه في قعر كيس الخيش :

- الهروب أجدى ، اشحذ قدميك تصفقك الريح ..

يختفي كلياً داخل كيس الخيش ، ثم يتدحرج في المكان . تصدر حركات مريبة . يتحول مرة الى حلزون ، مرة أخرى ينتصب ككيس الأرز . و تارة يزحف فوق الأرض ككلب البحر . و تارة أخرى يمشي متمايلاً كالبطريق . ثم يرتمي على بطنه فوق الأرض و يطل برأسه ببطء من كيس الخيش فيبدو كالسلحفاة . يقول و هو في حالة اطمئنان :

- في هذه الحالة تضمن السلامة .
يضحك ثم يقول :
- مجرد خيش تافه .. لا يغري ، و بامكانه أن ينضم ببساطة الى أرتال الشحن ، في مخزن أية عبارة أو سفينة أو شاحنة . هنا .. لا أحد بامكانه أن يتبين ملامحك أو حجمك ..
يضحك مطمئناً . يتقافز و هو بداخل الخيش . مصفقاً كالأبله ، متجهاً الى مؤخرة كارتونية .
يقول : - الآن يا صدفة يمكنك أن تصعد هذه المحمولة و أنت مطمئن ..
هيجان أمواج يقتحم المكان . تهتز القاعدة . يشعر بالخوف في المكان . يتجرد من الخيش .
يبحث عن مخبأ . يباغته صوت يترافق مع هيجان الأمواج : قف ..
يبحث عن مصدر الصوت .
الصوت : أنت المدعو صدفة ..
هو : - و كيف عرفتني ؟
الصوت : بالأقمار الصناعية ، بالتلسكوب ، بآذان الحيطان ، من هيئتك المعجونة التافهة، من مسام الخيش ، من رائحة المجاري ، من العفونة و النتانة ..
يحاول أن يبلع ريقه : لكنني لم أخطئ في حق أحد ..
الصوت : أخطأت في حق نفسك ..
هو : - كيف ؟
الصوت : تجاهلت حق الآخرين عليك ، لم تسأل ..
هو . مذهولاً : - و هل لأحد حق عليّ ؟
صفعة وهمية . يصرخ . ثم يفغر فاه مذهولاً . الصوت بنبرة ساخرة :
- إن شكلك يبدو أكثر غموضاً و تضليلاً مما كنت عليه في جوف الخيش ، ما الذي أخرجك من بطن الحوت يا يونس ؟
الذهول يسيطر عليه .
الصوت . بنبرة آمرة : ارتد خيشك ، هيا .. كي نتعرف عليك أكثر
يتردد في ارتداء الخيش . ثم يرتديه و ينكفئ في جوفه . نلاحظ حركات غريبة داخل الخيش . على أثرها ينفتق الخيش من الوسط . يقول مطلاً برأسه من الفتق :
- كان أبي يصليهم بماء ساخن
يموء بقوة .
- .. أو ينفيهم عبر أي مركب متجه الى شيراز
يموء أكثر . يباغته صوت غاضب :
- لعنة الله على هذه القطط الكسولة .. لماذا لا تأكل الفئران ؟
يموء ثالثة . يخرج من فتق الخيش كما لو من شرنقة ، قائلاً :

- سنونوتي الجميلة ، أليفة جداً ، تحبني و أحبها ، تأكل معي و تنام ، و مرة تأخرت عن اداء واجبي بسبب الارهاق و الكوابيس

كمن يجر من يديه القطة ..

الصوت بغضب : أنت تشبه قطتك ، بل هي أجمل منك أيه المشوه

يفزع . مواء حاد يملأ المكان . يقول :

- لماذا تصليها .. لماذا ، إني أحبها

يموء و يبكي كالطفل ، زاحفاً هنا و هناك . يقول :

- سكب عليها الماء الحار ، ثم قذف بها بعيداً ، لا أدري أين ، و لكنني علمت فيما بعد أنها ماتت مسلوخة ..

يموء في حزن . ثم فجأة يشعر ببرد قارس . يرتجف . تصطك أسنانه . كما لو يحتمي من البرد . ثم نراه ينط كالجرو ، قائلاً : تصوروا ، لقد عرفوه .. تبينوا ملامحه ..

كمن يحتضن جرواً و يمسح على عنقه و هو يصحبه نحو طائرة كرتونية . قائلاً :

- هيا ، رافقني الى الطائرة .. لا تخف ، فقد خصصت لك مكاناً فاخراً و جندت لك طاقم الطائرة كله لخدمتك و ضمان وصولك بالسلامة ..

يصعد الطائرة و هو يحدث الجرو الوهمي :

- هناك ستقوم الدنيا كلها و لا تقعد ، حين تصل أو لا تصل

يضحك . ثم يواصل :

- ثق بأنك رغم النار و البخار و الدمار ستنجو و تطوف كل الأرجاء في أمان و سوف تستقبلك الحشود ، يتقدمهم رئيس الدولة ، استقبال الفاتحين .

يشير الى مكان ما :

- أنظر .. أنظر ، إنهم يقبّلون صورك .. يحتضنونها

يضحك . ثم يواصل :

- و كذلك الصحافة و كل وسائل الاعلام تجري معك اللقاءات و تهديك باقات عطرة من الورود النادرة ..

كمن يقبل الجرو . و هو يقول :

- هل تهديني وردة واحدة حين تصل بالسلامة ؟

يجيب بنفسه :

- حتماً ستهديني ، خصوصاً و أنني أعددت لعيد الميلاد المقبل ، كعكة شهية وهائلة بحجم قصر فرساي ..

يتساءل :

- لكن ، هل ستحتفل الآن بعيد ميلادي المجيد ؟ أظنك ستفعل ، هيا إذن ..

يصحب الجرو الوهمي معه الى دبابة كرتونية . ثم يبدأ باشعال الشموع المثبتة على فوهات مدفعية متعددة . و ما أن يوهم نفسه با طفائها حتى نسمع طلقات نارية قوية ..

تعقبها ضحكة مجلجلة صادرة منه ، ثم يقول :

- أنا الآن سعيد جداً ، لابد أن العالم كله الآن يحتفل بعيد ميلادي الذي أنفقت عليه الملايين و التلايين ، المليارات و التليارات ، و أهداني الشعب كل حقوقي دفعة واحدة و هو راضٍ جداً عن إفلاسه و فقره و موته ، تصوروا أن بعضهم احتفلوا بالمناسبة بأن دسوا رؤوسهم في فوهات المدافع و البنادق تعبيراً عن سعادتهم .

يضحك بكبرياء ، ثم يقول :

- سيحسدك الناس يا صدفة ، لأن شعبك يضحي بنفسه من أجل الاحتفال بعيد ميلادك فكيف لو تعلق الأمر بالدفاع عنك .

ضحكة مجلجلة . ثم يبدأ بترديد أغنية عيد الميلاد التي تصاحبها صيحات أطفال و ولولة نساء و استغاثة شيوخ و طلقات نار ..

هو :

هبي بيرث دي تو يو
هبي بيرث دي تو يو
هبي بيرث دي ... هبي بيرث دي

إنه يغني و يرقص فوق مقدمة الدبابة . و يدور حولها مصفقاً كطفل . ثم فجأة كما لو أن شخص يجره من شعر رأسه و هو يصيح متألماً :

- آه .. آه .. رأسي ، طيب .. طيب ، لقد أخطأت الطريق ، صدقوني ، لم أتعمد الهروب من الوطن ، إني أعشقه ، أتنفس هواءه ، و أستنير بليله و ظلامه و مجاهيله .. و لكي تصدقوا.. انظروا ..

يذهب الى مكان ما من القاعدة و يحضر قنديلاً . يتفقد المكان بخطى وئيدة . يتعثر أحياناً و يوشك على السقوط . يبدو أشبه بأعمى يتعكز على القنديل . يقتحم المكان ضوء أحمر ناري . يختفي معه ضوء القنديل تماماً . بهلع :

- أين الظلام ، أين زيت القنديل ، لقد نضب ، أين القنديل ؟

يتساءل بحيرة : - لابد أنها القيامة .. يوم ينفخ في الصور .

تباغته ريح قوية . تتقاذفه ذات اليمن و ذات الشمال . يحاول أن يتماسك لكنه لا يستطيع . يصرخ بقوة : ماذا يحدث ؟ القاعدة تهتز ، أخشى أن تنهار .

يحاول أن يتوجه اليها . لكن الريح تبعده عنها .

هو : - لكنها قاعدتي ..

ثم ، مستسلماً :

- يبدو أنها الاقدار ، غضب من الله تسلط عليّ

يتساءل بحيرة :

- لكنني لم أذنب قطاً في حياتي ، صدقوني ، كل ما فعلته فقط هو أني ، و من

باب التسلية ، صنعت هذه القاعدة ، لأحمي نفسي و الوطن .. و أحميكم ..
يتلقى صفعة :
- و الله ثم والله .. صنعتها مجبراً عندما فقدت بيتي الصغير بين هذا الركام الفولاذي و الجيش النووي الهائل للقواعد العسكرية الحقيقية التي تشبعت بها مسام الذاكرة والتاريخ ، صدقوني ، صنعتها بدافع انساني ، أحببت أن ألعب فقط ، لا غير ، و هل اللعب ممنوع ؟
كالمذهول : ماذا ... لا تلعب بالنار ؟
مجيباً :
- و لكنه ورق . . كارتون ، ماذا .. ألزم حدودي ؟ ، و هل تجاوزتهاحتى ألزم..؟
كما لو أن شخصاً يجره من عنقه الى مقصلة كارتونية . يقول و رأسه في المقصله :
- هنا سوف ينفصل رأسي عن جسدي .
و بسرعة يُسحب من عنقه ليُحشر رأسه في فوهة مدفع ، هو يقول :
- و هنا أؤدي القسم ..
و رأسه في الفوهة ، يقول :
- أقسم بالله العلي العظيم ، أنني لم أقرأ كتاباً غير كتاب الله و سنة رسوله ، ولم أعتدي على أحد ، و لا أثق في أحد غير نفسي (مستدركاً) .. عفواً ، أعني غيركم ، و لم أنضم الى إية منظمة شعبية و لم أنحز الى أي طرف غير طرفكم ، و لم أصادق على أي قرار غير قرارات الجامعة و المجلس والهيئة ،ولم أشترك في حرب اندلعت بسبب وارسو ضد الناتو ، و لم أشهد زوراً طوال حياتي و لم أقل الحق منذ نعومة أظفاري ، و لن أقول ما حييت .. و نصيبي الأكبر في الشجار يتمحور في العراك مع الديكة ، و إن سئمت قضمت أظفاري ، و نتفت الشعيرات المتبقية في الشارب و اللحية ، و ملأت الحي صراخاً .. (يصرخ من جوفه بقوة) أوه . . أوه .. ها .. ها ... أوه ..
يذرع المكان و في كل الجهات . و هو يصرخ بصوت عال . يقتحم صراخه عواء متباين لكلاب و ذئاب . يتوقف عن الصراخ . يتلفت نحو كل الجهات . يتفحص المكان . يقول ، فيما يتوجه نحو القاعدة :
- إنها نذر الحرب ، هذا الصوت المشؤوم يذكرني بليلة موت أخي الرضيع .
صياح طفل يتداخل مع نواح إمرأة . النواح يعلو و يعلو بعد أن يختفي صياح الطفل .
هو :
- صدقوني ، لم يمت بسبب العطش ، إنه نعيق البوم ، عواء الكلاب . يختفي النواح ..
هو : هي أيضاً ماتت عندما تعسرت ولادتها بي ..
عواء ونعيق . هو ، كما لو أن أنتبه لشيء :

- إنها نذر الحرب ، قالوا أنها ستندلع بعد يومين ، و اليوم يمضي على إعلانها قرن .

يتساءل مرتاباً :

- هل بدأت فعلاً منذ زمن دون أن نعلم ؟ يجوز ، يجوز فعلاً ، فقد اعتمدت في التنبوء بنشوب الحرب على قراءة الكف و الأبراج و النجوم ، حتى الجرائد تعتمد في تحليلاتها على هذه القراءة الحدسية ، ترى هل يصدق الغيب؟ أم أنني واهم ؟ كانوا قبل قليل يتحدثون و بحماس عن الحرب والسياسة ، فما الذي ألم بهم الآن ؟ لماذا خفّ حماسهم ؟ هل الحرب مجرد جرعة منشطة أم ماذا ؟

عواء يثقب سمعه . هامساً :

- يبدو أن نهايتي اقتربت .

أصوات تهاجم المكان دفعة واحدة و كأنها في عراك ، نعيق غربان و نعيب بوم و نباح كلاب و عواء ذئاب . بعد ذلك تتلاشى فجأة . هو بحسم :

- آن لي أن أحسم الأمر ، لا سبيل للنجاة دون حرب ، يبدو أنها تتهيأ لخوض المعركة ضدي .

يتوجه نحو القاعدة . يستل عصا غليظة طويلة على هيئة ذنب فأر لقراءة الخارطة و شرح خطط الحرب . بثقة جنرال متمرس يقف عند الخارطة . يشير بالعصا الى موقع ما .

- أرجو أن تصغوا جيداً ، فالقضية صعبة و شائكة ، و هي في غاية الأهمية و دونها سنجهل مصيرنا .

و بثقة مفرطة :

- هنا في الجنوب ..

كمن التبس عليه الأمر ..

- أو الشمال كما يبدو أو ربما الشرق و الغرب في آن ..

يحاول أن يحدد أكثر :

- ليس مهماً ، المهم هنا ، في أي مكان ..

يتساءل مرتاباً . و هو يتأمل الألوان المتشابكة في الخارطة :

- و لكن هذه الألوان ماذا تعني بالضبط .. من أين ستبدأ الحرب ، من الجبال أو من البحر ، أو من البر ، أو من الجو ..

يحاول أن يحسم أمره :

- المهم أنها ستبدأ من هنا ..

يشير بالعصا على موقع ما في الخارطة ثم سرعان ما يتخبط في اختيار موقع آخر . هامساً :

- و لكن أين تقع هنا ؟ ما اسم هنا ؟

(كمن توصل الى نتيجة)

– لنبحث إذن عن فن الممكن ، فهو خير وسيلة لاحكام الخطة المقترحة للحرب .. يضحك مطمئناً . يطلق العنان للعصا . نراه يتخبط بها في أي موقع دون تحديد و هو يقول بثقة :

– هنا مزارع القطن ، لا ، عفواً ، أعني منابع المياه ، لا فرق ، و هنا تنفجر البالونات المجمدة في زرائب الخنازير ، و يضيق الخناق على أنفاس المداخن هنا ، هنا تنصهر العطورات الباريسية في ... أتون المفعول الكيماوي ،ربما، أعتقد .. لا .. إنها حرب ضروس . إذن هنانطلق الفانتوم ، أو التورنادو، لا بأس لو سيطرنا على كوكب بلوتو و المريخ من هنا ، يجب .. عفواً ، من المحتمل أن تسقط كل الريش و الأوراق الفارطة من براميل القمامة من فوق قمة ايفرست من هناك يمكننا أن نسبح في المجال الغيمي ونشتت الحشودالسحابية في الفضاء ، أعني هنا ، من بخار البحر و رطوبة الندى .

يتساءل :

– صحيح .. هنا .. أين هناك ؟ أعني أين هناك من هنـا ؟

يزداد تخبط العصا في الخارطة :

– لا بأس .. كل شيئ هنا ، كل شيئ هناك ، كل شيئ محتمل ، هنا .. هنا .. هناك .. هنا .. هنا .. هنا هناك .. هناك . لا ، أشك هنا .. من هنا ... ربما ، لا بأس .. أعتقد .. متأكد .. لا لا لا .. هنا .. هنا .. محتمل ، بم يهذي هذا الأحمق الأخرق ؟

كمن يحسم أمراً ، و هو يضحك :

– فعلاً نجحت الخطة .. نجحت فعلاً . هذا هو فن الممكن في خطة حرب المواجهة .

يتأمل العصا ، ثم يرفعها مهدداً :

– أما هذه العصا .. فهي لمن عصا ..

يضحك و عصاه مرفوعة الى أعلى ، يقول :

– و مكروا و الله خير الماكرين ..

يضحك . يقطع ضحكته دوي أشبه بطنين الذباب . يفاجأ . يرفع العصا . كمن يهش بها شيئاً فيضرب فخذه ..

يتألم :

– آه .... آه ...

باستغراب :

– ماذا يحدث .. شيئ لا أراه ..

يزداد الطنين . تختلط الحروف و الكلمات و المعاني . يندفع نحو المحمولة الكاتونية :

- هيا انطلقي ،يا أنت ، أيتها المحبوسة ، انطلقي ..
يصعد الدبابة :
- تحركي يا دبابة .. هيا اقضي على هذا الصوت المزعج ..
يصعد البرج و يأخذ المنظار :
- أين المنطاد ؟ يبدو أن هذا الطنين سلاح جديد ..
كما لو أنه توصل الى نتيجة :
- أليس هذا هو الكيماوي الذي يقولون عنه .
كمن حسم المشكلة . ينزل مسرعاً من فوق البرج :
- أين الألبسة الوقائية .. أين ؟
يرتدي زياً مصنوعا من ورق الاسمنت :
- لاشك أنه لباس ناجع ضد الكيماويات
الطنين يزداد . يشعر بالوخز . يقول ، وهو يتهجى كلماته مستغيثا
- الصليب الأحمر ، قوات حفظ السلام ، منظمة حقوق الانسان .
بيأس :
- لا أحد يسمع ، يبدو أنني تحولت الى قربة مثقوبة ، أو أن الأوراق قداختلطت عليّ منذ أن استعنت بهذه الخارطة الخالطة .
كمن لاحظ شيئاً مهماً في برج المراقبة .تنفرج قسماته . يندفع نحو البرج . يستل كتابا ًكبيراً . يتأمله بفرح . يصرخ من شدة الفرح :
- وجدتها .. انه القاموس الحربي ..
يتصفحه :
- إن مفرداته سوف تنزل كالصاعقة على العدو ..
يضمه الى صدره :
- إنه مخلصي الأوحد ، إنه حرزي ، جرب يا صدفة و تهجى بعض الكلمات التي ستنجيك لا محالة .
يضع الكتاب على الأرض ، ثم يتكئ على ركبتيه و يواجه الكتاب . و مثل الساحر ،يخرج بكفيه منديلاً طويلاً من فمه ، و يقول :
- قاذفات ، أسرار عسكرية ، تحليل أسلحة ، بند مارشال ، إتفاقية جنيف ..
يزداد الطنين . يزداد بالمقابل إيقاع الاداء :
- ديون ، مظاهرات ، مسيرات ، تجمعات ، انتهاك ، اختبار قوى ، أسرى،مساجين ، اعتصام ، تعتيم اعلامي ..
يزداد الطنين . يزداد الايقاع مع شعور بالوخز المستمر :
- وضوح فكري ، ضغط سياسي ، أسلحة الليزر ، استشارة عسكرية ، هزائم ، الشرعية . آبار النفط ، كمامات ، استعمار ، تسريح ، بارود، كمائن ، مشاة ،

صواريخ أرض جو ، تضامن ، طريق مسدود ، انسحاب ، مارينز ، مساومة ، بلاغ عسكري ، عد تنازلي ، قواعد ، انفراج ، وفاق ، ادانة ، شجب ، تسويف ، حصار ، تناحر ، غزو ، فتنة ، تعصب ، تشرذم ، تراشق اعلامي

وخز مستمر . هو ، بتحد :

– حتماً سيخلصني هذا الحرز من هذه المشكلة ، سأظل أقذف بهذه الكلمات حتى يستووا بالأرض أو يغيبوا عن الوجود تماماً ..

يواصل :

– سيطرة ، نهب ، طمع ، جحود ، حرب باردة ، نزاعات اقليمية ، تحفظ، اقتناع ، موافقة ، اعتراض ، قمة ، ساعة الصفر ، ثورة .. آخ .. آخ .. فاشيست ..

صرخة أشد :

– تراجع ، تنازل، لعب على التناقضات ، قوى ديمقراطية ،دكتاتورية ،يمين ، يسار ، وسط ، استنفار ، آخ ... آخ .. خردل ، أعصاب ، ترياق، تحالف ، حظر تجول ، حلول جزئية أمبريالية ، آه .. آخ .. تقدمية ، تسوية ،تجزئة، أزمة ..

الطنين يزداد . مواصلاً :

– هيا أيها الحرز ، أنقذني من بلائي ، لقد اقتربت الساعة..

يطوي الكتاب . ثم يواصل لعبة الساحر و هو يدور في المكان :

– ضائقة ، معاهدات ، آه .. آخ .. آه آه .. مقاومة . تمييع سياسي ، هجرة ، حظر اقتصادي ، رهائن ، إبادة ..

يختلف ايقاع الاداء بين الفترة و الاخرى وفقاً لحدة لشعور بالوخز . يواصل منفعلاً . يبدو عليه الغضب :

– صِدام ، احتدام ، تشويش ، نفي ، وراثة ، معارضة ، قصف ، تكتيك،تواجد ، لجوء سياسي ، مناورات ، مؤتمرات ، ترسيم حدود ، انقلاب ، بي بي سي ، إن بي سي ، فيالق ، ضفادع بشرية ، ترسانات ، قرصنة،استيطان،تزوير،ردع .. آخ .. آخ ..

كالبائس . شعور بالوخز في لسانه . صرخة قوية . ثم يتجه الى الكتاب أو القاموس و يمزقه قائلاً :

– لقد طفح الكيل .. طفح الكيل ..

كمن ينظر الى جهة ما :

– ماذا أرى ، كل شيئ أسود .. حالك .. لابد أنه جيش الظلام ..

يتجه الى القاعدة و يتناول خرقة بيضاء و يعصب بها عينيه . يقول :

– هكذا بامكانك أن ترى الوجود جميلاً ، و تسلم من جيش الظلام الذي

يتربص بك في كل حين ..

يذرع المكان كالأعمى و هو يردد هذه الاهزوجة الشعبية :

– دودهو ..... من دودهك ... من طقك ..

دودهو ..... من دودهك ... من طقك ..

يتخبط .. يصطدم بمعدات القاعدة . القاعدة تتهاوى و هو بين ركامها يواصل هذه الاهزوجة الى أن يخفت صوته و هو منحشر بين هذا الركام :

– دودهو .... من دودهك ... من طقك ..

دودهو ... من دودهك ... من طقك ..

دودهو .... من دودهك .... من طقك .. ×

×/ أهزوجة شعبية يرددها الأطفال في الساحات و الأحياء الشعبية و هي تعبير عن الحيرة و اختبار مدى قدرة الشخص المعصوب على معرفة من ضربه أو حيّر و ضلله .